

إرنست همنجواي

نهر الحب

ترجمة: رفعت نسيم

نهر الحب

ترجمة: رفعت نسيم

مراجعة: أحمد زكي عبد الحليم

دار القلم
بيروت - لبنان

بيروت - لبنان
ص. ب. ٣٨٧٤

الطبعة الأولى – كانون الثاني – يناير ١٩٦٩
الطبعة الثانية – آذار – مــــارس ١٩٧١
الطبعة الثالثة – حزيران – يونيه ١٩٧٢

غادروا قبـــل ان ينبلج الصباح ، ولم يحتاجوا لتحطيم الجليد الذي يغطي القنال .. لأن المراكب الأخرى مرت وسهلت الطريق وجعلته صالحاً للملاحة . جلس كل منهم في مؤخرة مركبه يجذف ويتحدث ، بحيث يسمع ولا يرى .

جلس الصياد فوق صندوق خشبي كبير ، صنع خصيصاً لمثل هذه الرحلات، يحتوي على طعامه وشرابه وكل ما يحتاج اليه من ادوات ، كما وضع في كل زاوية قفصاً يضم زوجين من الطيور : ذكر وانثى .. كما كان في كل مركب ، كلب لا يهدأ في مكان واحد .. بل يرتجف من البرد ويتنقل من المقدمة إلى المؤخرة .. ينبح ويستعد للهجوم إذا ما صفقت جوانح طيور البط في الظلام .

سار اربعة مراكب في القنال الرئيسي باتجاه الطرف الشمالي .. بينما انعطف مركب خامس في قنال جانبي آخر .. وانحرف المركب السادس رأساً باتجاه الجنوب ، ماراً في مستنقعات كبيرة يحطم الجليد الذي لم يمس بعد .

كان الجليد يغطي كل شيء .. وتكثفت سماكته أثناء الليل من جراء هبوب عاصفة ثلجية قوية . وهكذا راح الجليد يتحطم ويؤلف مربعات زجاجية .. تحد من سرعة المركب وتجعلها خفيفة بطيئة .

ـ اعطني مجذافاً قال الصياد الجالس في المركب السادس .. نهض وخيم بحذاقة ...

كان يسمع أصوات البط تمر في الظلام ويشعر بارتعاشات الكلب الملحة ..

وأتاه من الشمال ، صوت الجليد يتحطم تحت المراكب الأخرى .

— انتبه ، قال الربان .. إياك أن تهشم المركب .

— انني أفهم جيداً بالمراكب وأمورها ، أجاب الصياد .

تناول الجذاف الذي ناوله إياه الربان وراح يديره في يده .. ثم أخذه من وسطه كي يتمكن من الأمساك به جيداً .. انحنى إلى الإمام ، وغرزه في الجليد وأحدث حفرة واسعة .. والقى بجسمه فوق الطرف الآخر ليوسع الحفرة وينال طرف الجذاف صفحة الماء .. كان الجليد يفرقع تحت ضربات بجذافه كأوراق الزجاج. فيبعدها الربان من أمامهبطرف بجذاف آخر . ويستمر قدماً بمركبه.

مضت برهة وجيزة والصياد يعمل بنشاط وجد .. وراح العرق يتصبب من جبينه ويبلل ثيابة .. تطلع إلى الربان يسأله :

— أين فخ البط ؟

— هناك ، إلى اليسار .. وفي منتصف الشرك الثاني ..

— هل يجب ان نضغط بسرعة فوق هذه الجهة ؟

— إذا أردت .

— كيف ، اذا اردت؟ أنت الوحيد الذي يعرف النهر ... وهل المياه عميقة بما فيه الكفاية لتتحملنا وتقودنا إلى هناك ؟

— يبدو المد منخفضاً الآن .. ولا نعرف ما الذي سيحدث فيما بعد ..

— ستشرق الشمس قبل ان نصل .. هذا اذا ما اسرعنا الخطى ..

ولم يجب الربان بشيء .

لا بأس ، يا وغد قال الصياد في نفسه . سنصل اليها بعد قليل ، وأنا الذي يقول هذا .. لقد قطعنا ثلثي المسافة .. كان يتوجب علينا أن نكون هناك لو لم تتلكأ وتضيع الوقت ، هنا وهناك ، بمطاردة رفوف العصافير ..

— تهذب ، يا وقح ، قال الصياد يخاطبه بالانجليزية ..

— قلت .. ان اسرع .. سينبلج الصباح بعد قليل ..

فاجأهم الفجر قبل ان يبلغا جذوع السنديان الممتدة فوق المستنقع الكبير .

كانت الجذوع محاطة ، عند الجذور ، بـوار من التراب الأحمر الناعم ، يغطيه العشب الأخضر .. وفجأة ، قفز الصياد من مركبه وراح يدوس فوق الاعشاب الجليدية .

رفع الربان الصندوق الخشبي ، الخاص بالمؤونـة وناوله ، برفق ، إلى الصياد الذي انحنى يضعه على مهل فوق التراب المبلل .

تخلص من نعليه المحددين وازداد حماساً ، عندما راح الربان يناوله بندقيتيه الحديثتين .

وضعها قرب الصندوق وفصل بينهما بجناد من الخرطوش .

– والماء ؟ هل لدينا ما يكفي منه ؟ قال يسأل الربان .

– ليس هناك من ماء أجاب الربان .

– هل نستطيع ان نشرب من ماء المستنقع ؟

– لا .. لا تصلح للشرب .

كان تحطيم الجليد وكسره عملاً شاقاً يقوم به الصياد ليفتح الطريق أمـــام المركب . كان يتلظى عطشاً ، ومع ذلك تمالك نفسه وقال :

– هل تحتاج إلى مساعدة ، كي تكسر الجليد وتوظب الحاجيات ؟

– لا ، أجاب الربان وهو يدفع المركب بغضب . كان يدفعه فوق القشرة الجليدية التي تتحطم بعنف لتزيده غضباً واشمئزازاً .

راح يحطم الجليد بضربات قوية مستعملاً المجذاف المسطح ويؤرجح مركبـه تارة إلى اليمين وطوراً إلى اليسار ... إلى الوراء وإلى الامام .

انه ضرب من الجنون ان تعمل باندفاع كهذا قال الصياد في نفسه .. ويا للعمل المضني . عملت أنا كالحصان وحتى اصل إلى هنا ... بينما كان هو يتظاهر فقط بأنه يعمل ... ولكنه في الحقيقة .. لم يقم بعمل يفوق قوتة .. ما بـه يا ترى ؟ انها مهمته ، أليس كذلك ؟

كيّف مركزه بطريقة تجعله يستدير بارتياح إلى اليمين أو اليسار ، وفتـــح علبة خرطوش وملأ جيوبه ، ثم فتح علبة اخرى وأخذ قسماً منها ، ملأ به يده

اليسرى واعتبرها كمؤونة .. لم يكن أمامه من شيء سوى البحيرة الجامدة تلمع تحت نور الشمس الخفيف . كان يحدق بأمعان في المركب الأسود ويتأمل الربان يتململ في مكانه يضغط على الجذاف ويؤرجح طعمه فوق صفحة المياه .. وكأنه يحاول أن يتخلص من شيء أثيم وقبيح .

اتضح النهار وراح الصياد يميز الخطوط العريضة للمستنقع .. كما وضحت له علامات وأشجار الغابة من حوله .. كان يعرف انه هناك فخين آخرين .. وعلى مسافة قريبة تكثر المستنقعات الجليدية .. وأخيراً البحر . حشا بندقيته ودفع المركب وانطلق يزرع الطعم من حوله .

سمع صوتاً من الوراء .. كان صفيق اجنحة البط .. اقترب رويداً رويداً وجلس القرفصاء ، تناول بيده البندقية الموضوعة عن يساره وأجال طرفه في البرميل القابع بجنبه .. ثم وقف ليطلق النار فوق الكنارين .. وقف الطيران في الحال يتخبطان بدمهما والطعم يتدلى من فمها .

احنى رأسه واخفض البندقية على مهل وصوب إلى طائر ثالث وعلى مسافة أقرب من المسافة الأولى .. ودون ان يهتم بالوضع المناسب ، رفع مقبض البندقية إلى أعلى ، فأعلى ، إلى الامام وإلى اليسار .. وفجأة شاهد الطير ينطوي على نفسه ويقع فوق الجليد ، بين حبات الطعم المتناثرة فوق الصفيحة الجليدية .. تطلع إلى يساره وشاهد الطير الثالث وقد ترك بقعاً من الدم الأسود تلطخ الجليد القاسي.

كان يعرف بأنه صوب جيداً وأطلق النار على هذا الطائر المسكين ، وعلى بعد من يمين المركب .. كانت ضربة مزدوجة .. نفذها بفن خارق وحسبما تقضي القواعد المرعية لمثل هذا النوع من الصيد .. بينما احتفظ بقيادة المركب جيداً .. وعندما كان يحشو بندقيته من جديد .. أحس بسرور عارم يملأ أعماقه ..

– يا هو .. صرخ الربان .. لا تصوب ناحية المركب .

يا له من انسان وقح ومتعجرف .. يسيئني تصرفه ، قال الصياد في نفسه .. وسأرد له الصاع صاعين .. الآن ..

– ألم تنتهي من طعمك بعد ؟ صرخ يسأل الربان .. تدبر أمرك .. وسوف

لا أطلق النار ما لم تنتبه أنت .. يا بليد .. اللهم من فوق رأسك فقط ..

تململ الرجل في مركبه واندفع يردد كلمات مبهمة ..

قد لا يخصني شيء من ذلك ، ردد الصياد في ذاتـــه انه يعرف اللعبة .. ويعرف تماماً بأنني أخذت نصيبي من الطعام لا بل أكثر ، ونحن في طريقنا إلى هنا .. لم اقتل كنارياً واحداً في حياتي ، بدقة متناهية وثقة في النفس كما فعلت اليوم .. ولكن ، أيـــة ذبابة قرصته يا ترى ؟ عرضت عليه ان يحتفظ بطعمه معه .. وليذهب إلى الجحيم .. توغل المركب الآن إلى جهة اليمين واستمر الربان يحطم الجليد بمجذافه وينثر الطعم الخشبي من حوله ، فيأكله الحسد والغضب وتم عنهما كل حركة من حركاته .

لا تترك كل شيء يبور ، قال الصياد في نفسه . كما ان الفرص لا تؤاتيك دائماً وتسمح لك باستغلالها مع الجليد ، إذ قد يسطع نور الشمس ويذوب كل شيء .. قد لا تحصد سوى عصافير غثـــة وتمني رحلتك هذه بالفشل الذريع .. ولهذا الا تدعه يبدد سرورك ويفسده . ويعلم الله فقط ، كم تستطيع ذلك من جديد فلا تتخاذل إذن .. وامضي قدماً ..

تطلع إلى السماء وقد بدأت الغيوم تتلبد فيها .. وبدأت الجبـــال الشاهقة تغطيها الثلوج الناصعة .. كان في مركز لا يسمح له بتأمل كل شيء على مهل . وباتت القمم المرتفعة وكأنها تخرج من قلب السهول ومنبسطاتهـا .. وبينما كان يتأمل هذه المناظر الخلابة ، هبت نسمة رياح باردة أكدت له انها متأتية .. من هناك .. وهكذا تدفع بالعصافير إلى الأرض وتطردها من أعشاشها .

انتهى الربان الآن من نثر طعمه .

كان هناك قسمين منها : واحد أمامه بالضبط ، والآخر إلى يمين الصياد .

ـ ألا تظن انه يجب كسر المزيد من الجليد عنـــد الضفاف ؟ حالاً صرخ الصياد ، من بعيد ، يسأل الربان .. ولا أظن هذه المساحة كافية لجلبها .

لم يجب الربان واستمر يضرب جوانب الجليد بجذافه المسطح .. كان عملاً لا يرجى منه فائدة .. ويعرف الربان هذا نفسه .. ولكن الصياد يجهله ولذلك فكر في ذاته : بت لا أفهم شيئاً ولا أدرك تماماً مــــا يرمي اليه هذا الانسان الغــامض .. ولكنني لا أوده أن يفسد سروري . يجب ألا ألمسه وألا أسمح لنفسي مطلقاً أن تقوم به .. على كل طلقة تصوبها الآن تكون الآخيرة .

هدىء من روعك يا صغيري .. ولا تندفع وراء الأعمــال المنكرة . أنت تحتاج لسرورك ورونقه .. فاحتفظ به وإياك أن تفرط به .

ولكنه لم يكن فتى .. يبلغ الخمسين من عمره . كان ضابط مدفعية في الجيش الاميركي ، وقبل أن يخضع لفحص طبي قاس ، وعشية سفره إلى فينيسيا ومن أجل هذه الرحلة بالضبط ، شرب كمية كبيرة من الترينيتين . لم يعرف بالضبط لماذا قام بكل هذا .

بدأ الميجور متشائماً جداً. ونقل كل ملاحظاته عن هذه الزيارة إلى الكثيرين ممن سألوه عنها وعن الأحاديث التي دارت فيها .

ـ أنت تعرف، يا ويك ، قال.. لم يرد ذلك مطلقاً.. ولعله كذلك بالذات..

لا أفهم شيئاً من كل هذا الذي تقوله .. أجاب الصياد ، الذي لم يكن بعد صياداً ، بل ضابط مدفعية في الجيش الاميركي ، وبعد أن كان مسؤولاً عن عدة كتائب من الجنود .

ـ أعرفك منذ زمن بعيد يا سيدي الكولونيل .. أو على الأقل يبدو لي هذا الضابط .. قال الميجور .

ـ أجل .. ومنذ مدة لا بأس بها .

ـ نبدو وكأننا نعمل في فرقة موسيقية واحدة .. ونعزف على نفس الآلة .. ونفس النغم .. انما انبهك إلى الاصطدامات . وعند ذلك تجبر على استعمالك كتراكتور لشحن القاطرات المصابة .

ـ ألم يكن تخطيط قلبي جيداً ؟ سأل الكولونيل .

ـ كان رائعاً يا سيدي الكولونيل .. وظنه البعض لفتى لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره بعد .. ولربما أقل .. لابن تسعة عشر عاماً مثلاً ..

ـ ماذا تخبرني إذن ؟ عاد الكولونيل يسأله .

سارع بالتمدد والاسترخاء وابتلع حبة غادنال .. ماذا انتظر لا عد تقريري عن التلامذة الضباط ؟ هذا ما ردده في نفسه .. لماذا لا اضع نفسي تحت تصرف

القضاة وحلمهم ؟ انك لست بالشخص الذي يقوم بعمل كهذا .. ولقد حاولت دائماً اظهار براءتك .

– كم مرة اصبت في رأسك ؟ سأله الطبيب .

– ان تعرف بالضبط كم . قال الكولونيل . انه مدون في ملفي .

– كم ضربة تلقيت في رأسك ؟

– اوه .. يا الهي .. ثم اضاف :

هل تسألني كما يحدث في الجيش أم إنك تسألني بصفتك كطبيب ؟

– كما يعالجك طبيبك .. أم تظنني أقوم بدور لا يتلاءم ومهنتي ؟

– لا . ماذا تريدني ان أعرف بالضبط ؟

– التلبكات الدماغية .

– الحقيقيات ؟

– كل المرات التي بقيت فيها فوق الاخشاب .. هل تذكر ؟

– عشرة ، قال الكولونيل ..

– حسناً ، يا صاح ، قال الطبيب .. حسناً يا كولونيلي ، اضاف ..

– أيمكنني ان أذهب الان ؟ سأله الكولونيل .

– أجل ، يا سيدي ، قال الميجور .. انك في وضع ممتاز ..

– شكراً .. الا يعني الذهاب إلى صيد البط ، الا يعني لك شيئاً ؟ .. أنه عمل خاص يقوم بـه زمرة من الايطاليين المحترفين .. وقد التقيتهم مؤخراً في كورتينا .

– اليس هذا المكان الذي يصطادون فيه الفولك ؟

– لا .. انما هناك أنواع ممتازة من البط الدسم .. حتى الصيادين انفسهم ، يتمتعون بالروح الطيبة .. وهكذا تستمر الحالة ، كما كنا في الماضي .. ويوم كنا لا نزال اطفالاً ..

– اعتبر أعوام طفولتي جميلة جداً .. وخاصة عامي الثامن والتاسع والعشرين ..

– إنها المرة الأولى ، التي أسمع بها أقوالا كهذه .. ومنذ أن عرفتك .

– لم يكن هذا قصدي مطلقاً .. أود أن أقول شيئاً واحداً فقط .. وهو انني لا زلت أذكر تلك الايام تماماً .. ضف إلى ذلك أنني ابن المدينة ولا دخل لي في الريف قاطبة .

– انه الشيء الوحيد الذي يفصل بيننا .. ولا نتفق عليه .. لم أشاهد بعد انساناً من الريف ، مثلك ، يصلح لشيء ..

– الا تفكر في الذي تقوله يا سيدي الكولونيل ؟

– بالطبع ، لا .

– انك في وضع ممتاز يا سيدي ، قال الميجور .. ويؤسفني ألا أرافقك في رحلة الصيد هذه .. كما انني لا أعرف كيف أطلق النار بعد .

– مجرد كلام ، قال الكولونيل .. ولا أهمية قصوى في ذلك .. وكأن بالآخرين يعرفون اطلاق الرصاص .. لا أظنهم يفقهون شيئاً .. كان يسرني جداً أن تكون برفقتنا .

– أود أن أعطيك شيئاً ، يقوي فيك العزم على المضي في الرحلات .

– لماذا ؟ أهناك شيء يؤثر على مزاجك ؟

– لا أظن . ولا يمنع ان استمر في رحلتي ..

– دعها تعمل .. قال الكولونيل ..

– وهذا ما ادعوه بالاطراء والمديح ، يا سعادة الكولونيل ..

– اذهب وقم بذلك بنفسك .. هل أنت أكيد من انك لا تود المجيء أو قد لا تستطيعه ؟

عندما احتاج للبط ، اذهب إلى لونشان ، في جادة ماديسن ، أجاب الميجور .. ان الجو هناك مكيف صيفاً وشتاء . ولا أحتاج إلى النهوض باكراً وارتداء السراويل الحمر الدافئة .

– حسناً ، يا أولاد المدن .. وسوف لا تفهمون شيئاً مطلقاً .

– شكراً ، أجاب الكولونيل ، وخرج .

حدث ذلك عشية البارحة .. وفي المساء بالذات انتقل بالسيارة من تريست إلى فينيسا ، وبواسطة الطريق القديمة التي تجمع بين مولفالكون ولاتيزانا ، ومروراً بالحقول الواسعة والمنبسطة.. كان سائقاً ماهراً، يجلس في مقعد السيارة الامامي .. كان يتمدد ويتطلع إلى المناظر المحيطة به أو يسترجع الايام الحلوة التي عاشها .

ان المنظر ليس هو نفسه . والفرق شاسع بين الاثنين وليس هناك من طريقة تمكننا من الجمع بينهما .. ولعل ذلك يعود إلى التغير الناجم عن الفرق الكبير الذي يفصل بين المسافات .. يصغر كل شيء وبقدر ما نتقدم من الهدف .. كما ان كل شيء يتبدل إذا ما علمنا ان الشيخوخة تبدل نظرتنا إلى الأمور .. أصبحت الطرقات أحسن مما كانت عليه في الماضي ، مرصوصة بالاسفلت ولا تثير الغبار مطلقاً . افترض ان ما كنت ابحث عنه في الماضي هي الزوايا المظلمة من الغابات والآبار المهجورة في المزارع البعيدة .. حتى الحفر .. كنت أهواها وأفضلها .. وكم بحثت عنها وتمددت فيها أيام القيظ .

انحدروا في طريق ضيق وعبروا تاغليامنتو فوق جسر خشبي مؤقت .. كانت الضفاف خضراء وانتشر فوقها الصيادون يبحثون عن الاسماك في قعر الماء .. لقد تهدم الجسر القديم ولكنهم انصرفوا إلى بنائه من جديد نظراً للقيمة التاريخية الكامنة في اثاره ..

— أنظر هذا ، قال السائق .. لا يمكننا أن نجد في هذه البلاد جسوراً كهذه إلا ويحيط بها ، على بعد ثمانية أمتار تقريباً ، غابة رائعة كالتي نرى .

— ينص التاريخ ، إذا لم تخني الذاكرة ، ينص على بناء المنازل بعيدة عن

الكنيسة وعلى مسافة لا تقل عن الثمانمائة متر .. كما انــه لا يجوز لك استدعاء نحات أو فنان وتطلب اليه شيئاً يتعدى هذه القواعد التاريخية .

– كنت أقول دائماً بأن هناك دروساً قيمة يجب استخلاصها من التاريخ يا سيدي الكولونيل ، قال السائق .

عبروا الفيلا المحطمة المهدمة واندفعوا في طريق طويل مستقيم تكتنفه أشجار الحور التي تنبت في الحفر العميقة وتزيد من رهبة المنظر . وعلى بعد أمتار منها انتشرت حقول التوت المثقلة بالأثمار الشهية .. مر بجانبها رجـــل صغير يمتطي دراجة ، يسير الهوينا ويقرأ صحيفة .. يمسك بها بيديه الاثنتين ..

– لو كان هناك هجوم عنيف ، لقــال التاريخ ألف وستماية متر بدل الثمانماية متر ..

قال السائق .. ما رأيك يا سيدي الكولونيل ؟

– وإذا كانت صواريخ موجهة ، قال الكولونيل ، وجب أن نقول اربعماية كيلومتر عندئذ .. ويجب أن تنبه هذا الرجل كي يبتعد عن طريقنا .

نفـــذ السائق الحركة وللحال سار الرجل فوق الرصيف ، مبتعداً دون أن يلتفت اليهما أو يزيح ناظريه عـــن صحيفته .. ولم يلمس المقود أبداً .. حاول الكولونيل أن يقرأ عنوان الصحيفة التي كانت في يد الفتى .. بعد أن مرا به وابتعد عنه بضعة خطوات .. ولكنه لم يفلح .. كانت الصحيفة مطوية والعنوان في الداخل .

– اعتقد تماماً ، انه من الأفضل ألا نبني شيئاً في وقتنا الحاضر .. لا منازل جميلة ولا كنائس . حتى الرسم الزيتي يجب الغاءه والاقلاع عنه نهائياً ..

– جيوتو ، قـــال : ويعقل أن يكون ذلك الشخص ، يعقل أن يكون بيارو دي لافرانشيسكا ، مانتاغنا ، أو ميشال انجلو .

– هل تلم بفن النحت يا سيدي الكولونيل ، سأله السائق ..

استطالت الطريق أمامهم ، مستقيمة ، وراحت الأشياء تتوالى أمـــامهم وتندمج الواحدة في الأخرى ، حتى أصبح من المستحيل أن تتبين الشيء الذي

يأتي باتجاهك .. ويمر بك بسرعة البرق ولا تتبين أثره مطلقاً .. لست أكيداً ، بعـــد ، من انني أحب السرعة أم لا .. قال الكولونيل في نفسه .. أظن ان بروغهيل كان ليخدم فنه جيداً لو انه مر وتأمل الريف وعاش فيه ..

– الرسام ؟ قال يرد على السائق .. لا أعرف شيئاً كثيراً عن اللوحات الجميلة يا برنهام .

– انني أدعى جاكسون ، سيدي الكولونيل . أما برنهام فهو الآن في مركز الاستراحة ، في كورثينا .. انه مكان جميل ورائع جداً . مكان مشرف ، يا سيدي الكولونيل .. بشرفي .

– بدأت اغار ، قال الكولونيل .. اعذرني يا جاكسون .. أجل . انـه مكان رائع .. والحساء فيه لذيذ جداً .. مكان تستريح فيـه وليس هناك من يقلقك أو يثيرك ..

– أجل ، يا سيدي الكولونيل ، قال جاكسون يهز رأسه . وإذا طرحت هذا السؤال ، الخاص بالرسامين ، فذلك عائد إلى كثرة اللوحـات التي بت أشاهدها في كل مكان .. ولهذا قلت في نفسي انه يجب علينا الا تفوتنا الفرصة .. بل نذهب ونمتع الطرف بكل ما هو فن وجميل .. وهذا ما دعاني إلى استنباط تلك الحيلة في فلورنسا .

– الاوفزي ؟ البيتي ؟

– لا اذكر ما يدعونه .. انه كبيرهم على كل حـال .. وطالما تأملت هذه اللوحات التي بدأت تحدق بها .. كما انك تعرف يا سيدي ، ما هو موقف انسان يشاهد مثـــل هذه الأعمال الرائعة الهائلة ، وللمرة الأولى .. تعرف أي شعور نفساني يعتريـه .. ان لي نظرتي الخاصة في الموضوع . كما ان مبدئي واضح ولا يتزعزع .. هل تدرك ما هو ؟ لا أعرف اولئك الذين تتحدث عنهم .. ولذلك لا أدخلهم في حيز تفكيري .. آه لو فقهت كل ما أريد أن اقوله .. أو علك استنتجت من حديثي شيئاً ؟

– ليس سوى انهم كانوا في حيز المواضيع الدينية وحسب .

– أجل ، يا سيدي الكولونيل . فهل تظن ان هناك شيئاً حقيقياً في فكرتي؟
– طبعاً ، ولكنه ، مع ذلك ، يبدو معقداً تماماً ..
– شيء طبيعي يا سيد الكولونيل .. وليست هي فكرتي التمهيدية ..
– هل لديك آراء أخرى حول الفن ، يا جاكسون ؟
– لا ، سيدي الكولونيل .. ولم استطع ، حتى اليوم ، ان أذهب إلى أبعد من مبدئي وفكرتي الواضحة حول البانبيني.. والشيء الآخر الذي أهواه هو أن أشاهد رسامين بارعين يزودوننا باللوحات الرائعة عن القمم والهضاب .. في كورتينا .
– تتيان مثلا . جاءنا من الأعالي .. قال الكولونيل .. هكذا يقولون .. نزلت إلى الوادي وشاهدت المنزل الذي يدعون جازمين بأنه ولد فيه .
– هل كان رائعاً ، ذلك البيت ، يا سيدي ؟
– ليس كثيراً ..
– ان ما أستطيع قوله فقط ، هو ان هذا الرجل صور لنا أعالي الجبال وقممها .. وأعطى الصخور الملساء لوناً .. هو أشبه بلون أشعة الشمس وقد شارفت على المغيب .. حتى الصنوبر والثلج يغطيه ، بدا رائعاً جداً ..
– لوحات ريفية ، قال الكولونيل .. كتلك التي عرفناها عند سيفيا .. وهذا يعني اجراساً وحسب .
– ومن المعقول دائماً ، انه لو رسم اللوحات الرائعة والمناظر البديعة ، يتحفنا بها دائماً ، لكنت أنا اول من ساهم على بيعها وتشجيع الفنان .
– رسم نساء فاتنات ، قال الكولونيل ..
– لو كنت أمتلك حانة صغيرة ، على جانب الطريق أو في أي مكان شعبي آخر ، لجعلت منه معرضاً لرسومه ولوحاته .. قال السائق .. أما إذا حملت أحدها معي إلى المنزل لاغتاظت امرأتي العجوز واجبرتني على السير ، مشياً على الأقدام، من راوينز إلى بوفالو .. وسأسر جداً . هذا اذا ما استطعت الوصول إلى بوفالو سالماً .

– يمكنك أن تضعها في المتحف القائم في تلك الزاوية .

– إن كل ما يحتويه متحفنا الآن ، لا يتعدى كونه عبارة عن مجموعة من رؤوس الحراب ، وازياء الحرب ، والسكاكين القديمة والفراعات .. كما هناك العديد من الأسماك المتحجرة ورسوماً مختلفة لجونستون الجاحد الايمان والمعرفة .. وجلد شقي ، لم أعد أذكر اسمه .. شنق اللص واستطاع أحد الاطباء « سلخه » وتحنيط جلده .. فهل يليق مكان كهذا برسم امرأة فاتنة ؟

– هل تشاهد ذلك الكوخ في آخر السهل ؟ قال الكولونيل .. سأريك مكاناً تعاركنا فيه يوم كنا صبية أشقياء ..

– كأنك تعاركت هنا يا سيدي الكولونيل ؟

– أجل ، أجاب .

– من كان يحكم تريست في تلك الحرب ؟

– البوشوز .. أعني النمساويون .

– هل استعادوها ؟

– ليس قبل النهاية .. وبعد أن انتهى كل شيء .

– وفلورنسا ؟ وروما ؟ من كان يحكمها ؟

– نحن .

– حسناً ، اظنكم كنتم تجيدون حسن التخلص في تلك الفترة .

– سيدي الكولونيل .. قال الكولونيل على مهل .

– أستبيحك عفواً .. سيدي الكولونيل ، قال السائق بارتباك .. كنت في الكتيبة السادسة والثلاثين يا سيدي .

– رأيت الشارة .

– فكرت في القطار السريع .. سيدي الكولونيل .. لم أقصد الوقاحة في كلامي .. أو أن أقلل من الاحترام .

– أعرف هذا جيداً ، قال الكولونيل .. انك تفكر فقط وهذا يكفي .. وأظن بأن جميع رفاقك ، الذين خدموا في الجندية ، كما خدمت انت ، مروا في فترة كهذه .

– مرة واحدة تكفيني يا سيدي ..

اجتازت العربة مدينة سان بيافي الجميلة . اذ انها شيدت من جديد، ولكنها لا تقل بشاعة عن اية مدينة أخرى في الغرب الأوسط . وتضاهيها من حيث التقدم والازدهار .

عبر مدينة فوسالتا منذ أسابيع خلت وبحث عن الزاوية التي سبق بها وانتحى فيها مدة طويلة .. بعد أن أصيب بجراح بليغة .. فوق الضفة . لم يجد صعوبة بالتعرف اليها . فقد ارتاح مدة طويلة ونصب مدفعه الثقيل فوق أرضها .. وها هو العشب الأخضر يغطي صفحتها الواسعة .. حتى الخراف والماعز لم توفر شيئاً من الحشائش الناعمة .. وبدا ازرق ، ينساب بقوة بين أشجار القصب المنسقة المائلة .

تطلع الكولونيل من حوله ولم يشاهد احداً .. فخلع سترته وجلس القرفصاء يتطلع إلى الضفة الأخرى .. كانت الاعشاب تغمره وتكاد تحجب كل شيء من حوله .. يقارن بين هذه الجلسة الهادئة ويوم انطرح يعفر التراب بوجهه والدم ينزف من جراحه الثخينة ..

– ليس هذا شيئاً ممتازاً ، قال يخاطب النهر والاحراج بصوت عال ، غابة شاسعة يثقلها مطر الخريف الغزير ..

وقف من جديد ، يتطلع ويتساءل .. ومرة ثانية لم يكن هناك من أحد مطلقاً .. سوى عربته البيضاء القابعة فوق حافة الطريق .. فوق الاعشاب الندية .. امام آخر بيت في مدينة فوسالتا الحزينة .

– فلننهي التحفة الآن ، قال يخاطب الأموات هذه المرة .

حفر في الارض وتطلع من حوله للمرة الأخيرة .. ثم قال :

– لا يزال لدي كمية من الدراهم .. يجب أن اتخلص من « قذارتها » في الحال .. الدراهم .. تأمل قليلاً كيف ينمو العشب .. ثم هناك الحديد الصدىء .. عندما يتوفر السماد والمال والدم يتأكد وجود الوطن . وتتركز قواعده .. ينقصنا القليل من الفحم .. وعلينا أن نجد بالبحث عنه .

تطلع من جديد إلى البيت الابيض الذي أعيد بناؤه فوق الضفة الأخرى . وفي الخراب الذي استمر مدة هناك . ثم بصق في الماء .. بصقة كبيرة وعن جدارة .

– لم أستطع أن أبصق تلك الليلة ، ولا بعدها أبداً ، قال يخاطب نفسه .. أما اليوم فقد تبدل كل شيء وتحسن الوضع بالنسبة لفتى لا يندفع وراء الرذيلة مطلقاً .

عاد على مهل الى عربته ..

وجد السائق ممدّداً في المقعد الخلفي ، يغط في نوم عميق .

– قف يا ولدي ، قال .. استدر نصف دائرة وسر بنا في طريق ترفيز .

انك لا تحتاج إلى الخريطة .. سأرشدك الى جميع المنعطفات التي تطالعك.. وكيف تتفاداها .

بينما كانت سيارة البويك الفخمة تذهب سان دون وتعبر الجسر العريض فوق نهر بياف متجهة إلى البندقية ، كان الكولونيل يحـاول تهدئة أعصابه ويتحرق شوقاً ليكون هناك في الحال ودون أن يفكر بالمكان الذي يقصده.

عبرا الجسر وأصبحا الآن في الضفـة الايطالية .. واستغرق الكولونيل في تأمل الطريق القديمة المحفرة .. كانت ناعمة الملمس ومبتذلة كما عرفهـا منذ زمن بعيد ، يوم مر فوقها باتجاه النهر .. تعرّف الآن إلى المواضع القديمة ..

أجال الكولونيل طرفه في جميع الجهات يميز بين الأعشاب النضرة ويتذكر إذا كانت الخضرة الآن أكثر مما كانت عليه منذ القدم .. ولكنه لم يلحظ تغيراً غير اعتيادي .. كانت المناظر هي هي ، لم تتغير أو تتبدل .

شيء واحد لفت نظره فقط : هو ازدياد أسراب الاوز والبط تروح وتجيء في الأقنية المائية .. بينما انتشر الصيادون على ضفتي النهر بحثاً عن الطرائد السمينة.

علهم نبشوا القبور ونقلوا الجثث إلى أمكنة أخرى .. أظنهم نقلوهـا إلى مدفن آخر ، قرب ترفيزا .. قال الكولونيل في نفسه .

ـ تعاركوا هنا، عندما كنت لا أزال صبياً، قال الكولونيل يخاطب السائق.

ـ مكان مسطح ويصلح للعراك ، أجاب الآخر، هل كان النهر تحت حمايتكم ؟

ـ أجل ، خسروها ، وعادوا فاسترجعوها من جديد .

ـ لا أرى أخاديد من الأرض أمامنا ..

ـ كان هذا مصدر الازعاج .. قال الكولونيل .. يجب استعمال الأخـاديد الصغيرة ... وللأسف لم تكن هذه لتبدو أمامنا نظراً لصغرها .. فمنهـا الحفر والبيوت وضفاف القنال ، والسياج الشوكي المحيط بها جميعـاً .. كان ذلك يشبه

النورماندي .. إنما يفوقه انخفاضاً واتساعاً .. أتخيل وكأن رحى الحرب كانت تدور في هولندا .. وليس في هذه السهول الشاسعة الأطراف .

ــ لا يملك هذا النهر شيئاً من الانحدار والسرعة الفعلية ..

ــ ولكنه يبقى ، رغم كل ذلك ، نهراً جيداً ، قال الكولونيل .

كانت المياه غزيرة في تلك الأيام أكثر منها اليوم .. حتى الرمال كانت كثيرة وملساء .. تدعو إلى التأمل . وامتلأت صفحة النهر بالحصى المختلفة الأشكال تنزلق المياه من فوقها بخفة ورشاقة .. كما هناك مكان يعرفه الكولونيل جيداً .. انه الغاف دي بابادوبولي .. ولعله المكان الأكثر خطورة في ذلك النهر .

كان يعرف كم تبدو أخبار الحرب مضخمة أحياناً ، ويعرف كذلك كم هي تسيء وتزعج الآخرين .. ولذلك ابتسم وقرر الصمت .. حتى الرجال ، فهم لا ينظرون إلى الأشياء إلا من الناحية الشخصية ، قال يردد في نفسه ان هذا لا يفيد أحداً ، أللهمّ إلا الجنود أحياناً .. ولا يتوفى العديد منهم دائماً .. يربونهم ويعدونهم .. ويقتلوا المختارين منهم في الحروب الشرسة .. أما بالنسبة للآخرين ، الكسالى منهم ، فهم أصحاب مزاج ملح . يطلبون المزيد دائماً ومن كل ما تلمسهم أيديهم أو تقع عليه أعينهم .. ليس لديهم الوقت كي يسمعوا أو يروا .. يفكرون دائماً بالذي سبق لهم وشاهدوه وبينما نتحدث اليهم ، يفكرون هم بما سيقولون .. أو بماذا سيجنون من كلامنا والاستفادة التي قد يخلصون إلى انتزاعها منا .

كان ضرباً من الحماقة أن تحلق ذقن ذلك الجندي وتنزع جميع الشمارات العسكرية منه وتجرده من كل ما له علاقة بالجندية .. إنما كان فتى أُجبر على الخدمة واختيرت له الملابس التي لا تتناسب وذوقه الرفيع في حسن الاختيار والاقتناء .. والذي فضل البقاء في مسلك الجندية لأن هذا يسمح له بتدبر أموره .

ــ ماذا كنت تعمل يوم كنت مدنياً يا جاكسون ؟ سأله ..

ــ كنت شريك أخي .. نملك كاراجاً في راولينس ، وفي مقاطعة ويمنغ ، يا سيدي الكولونيل .

ــ هل تنوي العودة اليها ؟

– قتل أخي في الباسفيك وآلت إدارة العمل إلى شخص عديم الكفاءة لا يصلح لشيء البتة ، قال السائق . وهكذا خسرنا كل ما ادخرناه وصرفناه لتقوية العمل .

– شيء مؤسف ، أجاب الكولونيل .

– يا إلهي ! بإمكانك أن تجزم بأنه كان شيئاً مؤسفاً ... ثم أضاف : يا سيدي الكولونيل .

.. لم يجب هذا الأخير بشيء بل استمر ينظر إلى الطريق الممتدة أمامهما .

كان يعرف أنهما لو استمرا هكذا ، مسرعين ، لوصلا إلى التقاطع الذي يرميان اليه .. ولكن الأمل لا يتحمل المماطلة .. إنما يتساءل البعض عن بعض أمور عديدة ، ويلح الآخر بالنسبة للوضع الذي هو يعاني من شأنه . ولهذا رأينا الإلحاح يعتبر من أشد الأدوية المسكنة ..

– إفتح عينيك جيداً وتلبه إلى كل ما يقال .

– هل بالإمكان اجتياز ذلك المنعطف الخطير ؟ قال يسأل السائق .

– هل تظن انه من الامكان السير في طرقات كهذه، وفي عربة ضخمة كهذه، يا سيدي الكولونيل ؟

– هذا ما سنراه ، أجاب الكولونيل .. تبارك الله .. ان المطر لم ينقطع منذ ثلاثة أسابيع ..

– أتخوف وأشك من طرقاتهم في هذه المناطق الوعرة .

– إذا « علقت » في مكان ما .. سأعمد إلى استئجار الثيران كي تنقذك .

– كنت أفكر بالعربة فقط يا سيدي .

– إذن فكر فيم قلت لك وخذ طريق اليسار .. هذا اذا كانت صالحة للسير طبعاً .

– يقولون ان هناك منعطفاً خطراً فوق ، خلف السياج ، قال السائق.

– ليس من أحد في الوراء ..توقف قبل التقاطع .. سأترجل لألقي نظرة ..
ترجل من العربة وعبر الطريق العريض كي يتعرف الى الممر الترابي أيضاً ..

تحيطه الاقنية والاعشاب النضرة الخضراء .. شاهد ، من وراء السياج مزرعة قابعة في السهل الواسع المنخفض ومن حولها أقبية لتربية الدواجن وكان الممر جافا .. وليس فيه أي اثر العشب الأخضر .. فعاد في الحال وصعد إلى عربته ..

– انها جادة ، قال .. كف عن المراوغة ..

– حسناً ، يا سيدي الكولونيل .. انها عربتك طبعاً ولا دخل لي فيها ..

– أدرك تماماً ما تعني .. قال الكولونيل .. ولم انته من تسديد اقساطها بعد .. قل لي يا جاكسون ، هل تتشكى ولنقل تتذمر عندما يطلب اليك أن تترك طريقاً عريضاً .. وتسير في ممر ضيق ؟

– لا ، يا سيدي الكولونيل .. انما هناك فرق شاسع بين عربة جيب وعربة حديثة كهذه .. هل تعلم شيئاً عن أمور ميكانيك السيارات ؟

– لدي رفش في المؤخرة ، وعدد من السلاسل الحديدية . انتظر حتى ترى أين نسير ، عندما نغادر البندقية ..

– سنقطع كل هذه المسافة في هذه العربة ؟

– لا أعرف . سنرى فيما بعد ..

– فكر بالاجنحة .. يا سيدي الكولونيل .

– سنقصها .. هكذا يفعل هنود أو كولاما .. إن بالامكان ان نشتري غيرها .. فهي متوفرة لدى بائعي قطع غيار السيارات التي هي من طراز سيارتنا هذه. باستثناء المحرك. أنه قاس وقوي بالفعل يا جاكسون .تبلغ قوته مائة وخمسين حصاناً ..

– صحيح ، يا سيدي الكولونيل .. ويسرني أن أقود عربة كبيرة وفخمة كهذه في طرقات ممتازة .. ولهذا السبب أردت ألا يحل بالعربة أي مكروه ..

– عمل ممتاز يا سيد جاكسون ، وتستحق الشكر الجزيل عليه .. أما الان ، فعليك أن تكف عن التألم والعذاب ..

– لا اتألم ، يا سيدي الكولونيل .

– حسناً .. أجاب الكولونيل .

حتى هو نفسه ، لم يكن يتعذب ابداً .. لانه رأى ، فيما وراء الخط المشدود

والاشجار السمراء الباسقة المنتصبة أمامهم ،شاهد ملاءة تتحرك .. ملاءة كبيرة وحمراء ، تنحني إلى الوراء ، وتنتقل على مهل خلف الاشجار الوارفة .

لا نعرف بعـــد لماذا يتملكنا التأثر وتأخذنا الدهشة عندما نشاهـــد امرأة ترتدي ملاءة وتنتقل بين الاشجار وفي الحقول ؟ قال الكولونيل يتحدث الى نفسه ويتساءل . ما الذي يقلقني اذن، عندما أشاهد الثيران الضخمة الشاحبة والبطيئة ؟ انها طلعتها البهية ومظهرها الخارجي دون شك .. اكثر ممـــا يثيرنا تصرفها وقامتها ولونها ..

تثيرني كذلك البغلة أو الجيـــاد يستعملونها في حفلات صراع الثيران .. وقل نفس الشيء عن الذئب أو الضبع أو أي حيوان مفترس آخر ..

– ألم تشاهد ذئاباً حول راولينز يا جاكسون ؟

– لا ، يا سيدي الكولونيل .. لقد اختفت منذ زمن بعيد .. قضوا عليها بالسم .. أما الضباع فحدث عنها ولا تسل .. إنها كثيرة في هذه الأيام ، تلقاها كيفما تنقلت في الغابات ..

– هل تحب الضباع ؟

– أحب أن أستمع إلى أصواتها ، أحياناً في الليل .

– وأنا كذلك .. وليس هناك أجمل من مركب محملي يتنقل بين الحقول .

– هناك واحد يتسلى ، يا سيدي الكولونيل .

– في قنال سيل ، قال الكولونيل.. انها بارجة شراعية تنزل فوق البندقية تسير بسرعة لأن الرياح تهب عاتية من الجبال في هذه الأيام .. ومن المعقول أن تنخفض درجة الحرارة هذه الليلة اذا مـــا استمرت الرياح قوية كما هي الآن .. وهذا يعني أن كمية لا بأس بها من الاوز ستختفي من صفحة القنال قاطبـــة .. استدر إلى الشمال ، إذ سنسير الآن بمحاذاة القنال.. إنها طريق جيدة وصالحة.

– لم يكونوا يحسنون اصطياد البط في بلدي .. أما في نبراسكا ، فان الصيد قائم على قدم وساق ..

– هل تعني انك ستصطاد هناك، حيث نذهب ؟

– بشرفي ، لا ، يا سيدي الكولونيل .. إنني لا أحسن التصويب وأفضل البقاء في مركزي .. إنه يوم أحد .. كما تعلم .

– اعرف تماماً ، قال الكولونيل .. ويمكنك أن تبقى حيث تشاء حتى الظهر ، إذا أردت ..

– كما انني احتطت ضد البعوض .. إذ يتوجب عليّ أن أنام وأرتاح ..

– ربما لا تحتاجها مطلقاً .. قال الكولونيل .. هل حملت معك مؤونة من نوع « ك » أو من « عشرة على واحد » ؟ إنك تعلم جيداً انها تقوي من لذة المطبخ الايطالي ؟

– أخذت بعض المعلبات ، كي أوزعها فقط .

– حسناً ، قال الكولونيل .. وهز برأسه موافقاً .

كان يتطلع رأساً إلى الامام ، يتفحص المكان حيث تتجمع الطريق المحاذية للقنال ، وتتصل بالطريق العام .. ومن هناك كان يتعرف إلى ما سيحدث .. وكيف سيرى كل شيء !!

وفي الطرف الآخر من البحيرة ، التي يشبه لونها الأسمر ويعيد إلى الأذهان ألوان مستنقعات بيلوت تاون في الشتاء ، وفي مصب الميسيسيبي حيث ينحني القصب وقد انهكته الرياح الشمالية القارصة وتغلبت عليه ، هنا فقط شاهد برج الكنيسة المربع .. كنيسة تورسيلو وقد امتدت من ورائها مزارع بيرانو.. تطلع إلى البحر يعد المراكب الشراعية المتجهة نحو البندقية.. كان عددها ، كما يذكر ، اثنتي عشر مركباً .. تمخر المياه الراكدة وتدفعها الرياح بقوة .

يجب ان ننتظر حتى تعبر لاديز كي يتسنى لنا مشاهدتها عن كثب ، قال في نفسه .. ومن الغرابة ان يفكر البعض بأنهم هزموا في هذا القنال ، في ذلك الشتاء .. عندما كانوا يدافعون عنها ودون ان يسبق لهم وشاهدوها .. رأيته من الجهة الثانية .. وكان ذلك في يوم صاف وبارد كهذا اليوم .. عندما ارتفعت إلى ما فوق نوغيرا .. حاربت من أجله يوم كنت شاباً .. انما لم ادخلها مطلقاً.. انها مدينتي.. لانني دافعت عنها في عنفوان شبابي.. وها أنا اليوم ،بعد

ان عشت نصف قرن مــــن الزمن ، أذكر تلك الاحداث بدقة .. ولعل ما يعزيني أنهم جميعاً ، لا زالوا يذكرون ، ما أذكره أنا ... يعرفون انني حاربت من أجلها .. ولذلك يغدقون عليّ العطاء ويحترمونني جداً .

اتظن انهم يعاملونك جيداً من أجل هذا ؟ قال يسائل نفسه . « ربما » ردد في ذاته . أو لانني كنت كولونيلا جيداً .. أقف دائماً في صفوف المنتصرين .. ومع ذلك لا أظن هذا أو اؤمن به .. كما آمل ، على الأقل ، ألا يكون هذا البتة . انها ليست فرنسا ، هنا ، قال في نفسه .

فعندما يقتتلون هنــاك من أجل مدينة يحبونها جداً ، تراهم يلتبهون جيداً إلى شيئين هامين .. كأن لا يعودوا أبداً إلى المدينة المحتلة . خشية ان يقعوا على محارب .. لا يسامح مطلقاً عملاً قاموا بــه ليحتلوا المدينة .. لتحيا فرنسا والبطاطا المقلية .. لتحيا الحرية والجسارة .. والحماقة . ويا للوضوح الشامل .. وضوح الفكرة الفرنسية .. ! لم يوفقوا إلى مفكرين حربيين منذ بيك .. هو كذلك كان كولونيلا قذراً .. « مانجين » ، « ماجينو » و « غاملان » .. اختاروا ما يحلو لكم يا سادة .. « ثلاث مدارس » .. الأولى : أظنني احببت هـــدفهم ، والثانية : انني اختبيء وراء هــذه الحيلة التي لا تغطي شيئاً من اضلاعي ، أما الثالثة : انني أغرز رأسي في الرمال كالنعامة .. وكلّي ثقة بقوة فرنسا الحربية .. وهذا ما يسمح لي بالاسترسال .

يعتبر الاسترسال في الحديث عادة موفقة ومحببة في المتحدث .. أجل ، ان اختصار النهاية وعدم الاستطالة هو أمر ضروري .. قال يحدث نفسه .. تذكر كل أولئك الفتيان الشجعان في المقــاومة .. تذكر فوش ، الذي عرف كيف يخطط ويقاتل ، وتذكر أخيراً شجاعــة جميع هؤلاء القوم . تذكر أصدقاءك الأوفياء ، كما تذكر أمواتك .. تذكر أشياء عديدة .. تذكر أصدقاءك الخلص مرة ثانية والفتيان الشجعان منهم والذين عرفتهم عن كثب ، أكثر من غيرهم ، لا تكن جافاً أو أحمقاً .. ثم ما دخل هذا في المهنة العسكرية؟ لا تفكر به بعد. قال في نفسه .. انك في رحلة نقاهة واستراحة .

– هل أنت مسرور يا جاكسون ؟

– أجل ، يا سيدي الكولونيل .

– حسناً ، سنصل عما قريب إلى مكان أودّك أن تراه وتتأمل فيه جيداً .. نظرة واحدة .. أظنها تكفي لذلك . وبكلمة مختصرة ، سيتم كل شيء دون أن تنزعج أو تتألم .

أتساءل ما الذي يدفعه إلى التحدث عن كل ذلك ، قال السائق في نفسه .. يظن نفسه يعرف كل شيء .. إذ سبق له وعمل كجنرال .. لو كان جنرالاً ممتازاً هكذا فلماذا تراه ترك الخدمة وأقلع عنها ؟

– ها هو المنظر يا جاكسون ، توقف قليلاً عند حافة الطريق ودعنا نلقي فوقه نظرة شاملة .

عبرا الطريق ، من جهة البندقية ، وتطلعا إلى ما وراء المستنقع المائي الذي تتلاعب الرياح الباردة المنبعثة من أعالي الجبال ، تتلاعب بصفحة مائه الجليدية ..

– هنا ، وأمامك بالضبط ، أنه تورسيلو ، قال الكولونيل .. وهناك لجأ القوم الذين طردوا من أرضهم عندما اجتاحها الفيزغوتز .. وهم الذين شيدوا هذه الكنيسة وبرجها العالي المربع الشكل وحرصوا على تصاميمه الهندسية الرائعة .. كانوا ثلاثين الف انسان .. فشيدوا هذه الكنيسة ليعبدوا الخالق .. وما أن انتهوا من بنائها حتى فاض مصب نهر سيل ، أو لعله ارتفع أكثر من المعدل .. وبدت الحقول التي عبرناها منذ لحظات ، بدت مغمورة بالمياه والوحول ... مما سبب كثرة البعوض وانتشار مرض الملاريا .. وراح الناس يموتون الواحد تلو الآخر .. عندئذ قرروا الهجرة إلى مكان آخر اكثر اماناً وحيث يمكنهم أن يقاوموا المد اذا ما استعانوا عليه بالمراكب الشراعية..وحيث لا تصل اليهم قراصنة الفيزغوتز العصابات المنتشرة في المنطقة . كان فتيان تورسيلو بحارة ممتازين . وحملوا حجارة منازلهم في زوارق شراعية كالتي

شاهدناها منذ لحظات ونحن في طريقنا الى هنا ، وهكذا أسسوا مدينة البندقية وشيدوها في مدة وجيزة جداً ..

توقف عن الكلام .

– هل أزعجك يا جاكسون ؟

– لا ، يا سيدي الكولونيل . لم يكن لديّ اية فكرة عن الذين بنوا مدينة البندقية .

– انهم فتيان تورسيلو .. قساة ، شجعان ، يتقنون فن البناء .. اتوا من مدينة صغيرة على الضفة الآخرى .. من مدينة كاورل . وجلبوا معهم كل سكان بقية المدن عندما اجتاحها الفيزغوتز .. كان أحدهم يتعاطى أعمال التهريب بين تورسيلو والأسكندرية .. وهناك اكتشف جسد سان مارك ، فأحضره معه سراً ، بين لحوم الخنازير الطازجة كي لا يمسه الوثنيون .. عاد ذلك الفتى بجدث سان مارك ومنذ ذلك الحين أصبح هذا القديس شفيعاً للمدينة .. وبنوا له كاتدرائية كبيرة تحمل اليوم اسمه : كاتدرائية سان مارك .. لم يتوقفوا عند هذا الحد ، بل دفعوا تجارتهم إلى الامام .. حتى عمت جميع بلدان الشرق .. ونقلوا الى العالم فنهم البيزنطي الرائع .. لم يضعوا شيئاً رائعاً يضاهي روعة بنائهم لمدينة تورسيلو .. أنه هناك .. تورسيللو .

وبالفعل كان هناك !!

– أليست ساحة سان مارك هي التي تكثر فيها طيور الحمام وتشبه كاتدرائيتها قصراً للسينما ؟

– انها بالذات ، يا جاكسون .. نعم .. هي التي تقول .. نراها من هنا ، على كل حال .. تطلع الآن إلى ما وراء تورسيلو .. فتشاهد مزارع بيراتو الجميلة ، وليست بيراتو هذه سوى مدينة صغيرة حيث يمضي رجالها كل أوقاتهم ، تقريباً ، في مغازلة النساء ومضاجعتهن .. يخرجون إلى الصيد تحت ستار الظلام .. فوق ذلك المستنقع الممتد أمامك هناك .. وتسمع طلقاتهم طيلة النهار .

وتوقف عن الحديث مرة ثانية .

– لقد عبرنا مورانو .. أما المدينة التي تراها هناك ، فهي البندقية .. أنها مدينتي . يمكنني أن أريك أشياء كثيرة بعد اذا شئت .. ولكن أظن انه من المفضل أن نكمل طريقنا . الق نظرة أخرى . من هنا يمكننا أن نعرف كيف حدث كل شيء .. انما لم يفكر أحد مطلقاً ان يتطلع إلى ذلك .

– انه منظر رائع جداً .. شكراً ، سيدي الكولونيل ..

– حسناً ، أجاب هذا الأخير .. يكفي ، وهيا بنا الآن نكمل المسير .

استمر الكولونيل يتطلع إلى المنظر .. اذ بدا له الآن جميلا ومثيراً أكثر من قبل ، عندما تعرف اليه وشاهده وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من عمره بعد . ولم يفهم منه شيئاً.. إنما كان جميلا وحسب. كان الشتاءقارساً تلك السنة. والجبال الشاهقة مغطاةبالثلوج الناصعةحتى سفوحها والتقائها بالسهولالخصبة الخضراء. . لم يستطع النمساويون اختراق الزاوية حيث يكون «سيل» والمجرى القديم لنهر بياف ، يكونان الخطوط الدفاعية الوحيدة. يمكننا أن ننهزم دائماً فوق سيل اذا ما اجتيز الخط الدفاعي الأول .. لم يكن في الجهة الثانية ما يثير الحفيظة الا السهول الكامنة فيما وراء سيل، سهول عارية قحطاء تشبه عري الذئب. ويجانبها تمتد الطرقات الجيدة في السهول الواقعة ما بين فينيسي ولومباردي .. هجم النمساويون بشجاعة، وعاودوا الكرة طيلة الشتاء كي يتسنى لهو الوصول إلى هذه الطريق الممتازة حيث يسير الكولونيل وسائقه ، متجهين إلى البندقية .. كان الكولونيل آنذاك لا يزال ضابطاً ، انما في جيش أجنبي .. وهذا ما جعله يشك في الأمور دائماً وحتى عندما عاد إلى الانخراط في جيش بلاده .. كما أنه أصيب ببحة في صوته رافقته طيلة ذلك الشتاء القاسي ... ويعود سبب مرضه هذا إلى أنه كان يمضي أكثر أوقاته يسبح في المياه الصافية .

كانت الهجمات النمساوية مستمرة وشديدة ، انما ينقصها التناسق والتقارب، تبدأ بقصف شامل وتضعك خارج المعركة أحياناً ، وعندما تهدأ وتخف يصبح بالامكان احصاء المواقع وعدد القتلى والجرحى وما تبقى من الجنود . . . ولكن ليس لديهم الوقت الكافي للاهتمام بالجرحى . لأنهم يعرفون جيداً أن الهجوم بات وشيكا .. عندئذ يقتلون من كان يغوص في المستنقعات ولا أمل في شفائه ،

يتمنطقون ببنادقهم ويندفعون للبحث عنهم .. تغمرهم المياه حتى أعناقهم .

أما إذا استمر القصف اثناء الهجوم ، فكر الكولونيل نفسه – يوم كان ضابطاً وحسب – عندئذ لا يمكنني ان أعرف ماذا سيفعلون.. وأظنهم سيطيلون الجدال ويستمر تبادل اطلاق النار إلى حين ..

كانوا يلجأون إلى مثـل هذه الطريقة ، أي استمرار تبادل اطلاق النار ، عندما يخسرون بياف المقدس ، ويستبسلون في الدفاع أمام الخط الثاني والثالث.. وعلى الرغم من صعوبة الاحتفاظ بمثل هذه الخطوط ، بدل ان يتقدموا بمدفعيتهم الثقيلة ، أثناء الهجوم ، حتى أقرب نقطة من مراكز العدو ويبيدونه . ولكن ، شكراً لله ، يوجد دائماً مدبر أحمق وراء هذه العمليات، قال الكولونيل في نفسه.

لقد قتل الكثير من هؤلاء الرجال رغم القنابل التي كانوا يخفونها في اكمامهم ورغم البحة التي أصيب بها والتي كانت تحد من نشاطه وتمنعه من الصراخ إذا وقع في كمين واضطر إلى طلب النجدة .

ولكنه لم يكرههم أبداً .. لم يكن يبدي أي شعور بالنقص أو الكراهية تجاههم .. يقود رجاله بنشاط وحزم ويعرف كيف يوقفهم عن المسير.. كان يطلق رصاصة واحدة من بندقيته فتكفي لتسمير الجميع في أماكنهم الاستراتيجية.. وكم من المرات حارب العدو بالسلاح الذي كان يخلفه هذا الأخير وراءه بعد أن يمنى بالهزيمة فيركن إلى الفرار ..علم رجاله كيف يجيدون اطلاق النار واصابة الهدف.. علمهم كيف ينظرون إلى العدو وجهاً لوجه عندما يصـل .. وهكذا باتوا من المحاربين الاشداء .. يقاتلون بشجاعة ومهارة .

يجب ان نعد دائماً وبسرعة ، بعد كل قصف ، لنعرف كم تبقى لنا من الرماة.

جرح الكولونيل ، في ذلك الشتاء ، جرح ثلاث مرات .. لم تكن جراحه ثخينة .. بل هي عبارة عن خدوش بسيطة في اللحم ولم تنفذ إلى العظم أبداً.. فظن نفـسه انساناً خالداً .. سيعيش إلى الأبد .. إذ كان يعرف بأنه كان ليقتل اثناء الهجمات التي تسبق عادة عمليات القصف الشامل .. ولكنه أصيب أخيراً بجراح بالغة وخطيرة للغاية .. وليس بين هذه وتلك من تباين أو نسبة .. أعتقد

انها حدثت لتنبهني فقط إلى انني مائت يوماً مـــا ، قال في نفسه وعلى كل فهي خسارة كبيرة ولا تعوض .

كان يعز عليه ذلك البلد كثيراً .. يحبه ويود العيش فيه دائماً .. حتى انه لم يفض بهـذا السر إلى أي انسان كان .. أحس بالسرور يغمر نفسه وهو جالس الآن في عربته الفخمة وانه ، بعد نصف ساعـة ، سيكون في مدينة البندقية .

ابتلع قرصين من الترينيتين وقال يسأل جاكسون :

– كيف حالك يا جاكسون ؟

– حسناً والحمد لله ، يا سيدي الكولونيل .

– انعطف إلى الجهة اليسرى عندمـا نقترب من تقاطع الطريق المؤدي إلى ميستر ، وهكذا تتسنى لنا رؤية المراكب تمخر القنال .. ونتفادى عرقلة السير.

– حسناً ، سيدي الكولونيل . هل تتفضل وترشدني إلى الطريق عندمـا نقترب من التقاطع ؟

– طبعاً ، أجاب الكولونيل .

اقتربا بسرعة من مدينة ميستر فبدت وكأنها نيويورك ، تصل اليها وفجأة تبهرك الأنوار الساطعة واللافتات المضيئة الخلابة . أجل ، لقـــد شعرت بهذه القريحة الشعرية تنتابني ، قال في نفسه .. سنصل إلى مدينتي ، قال في نفسه .. يا إلهي ! كم هي رائعة هذه المدينة .

استدارا إلى اليسار وسارا بمحاذاة القنال حيث تتجمع مراكب صيد الأسماك . تطلع الكولونيل اليها وغمره السرور العارم من جديـــد . سرته رؤيا الشباك السمراء وخطوطها البيضاء الجميلة .. ليس لأنها جميلة وحسب .. فإلى جهنم وبئس المصير .. انه منظر خلاب وهذا كل شيء ..

تجاوزا صف المراكب الطويل الممتد في القنال الذي تجري فيه ميـاه برينتا الهادئة والبطيئة .. فأعادت إلى ذاكرته الحدائق الغناء التي تحيط بتلك المدينة وتزيد من جمالها وروعتها ..

أحب ان يدفنوني هنا ، قال في نفسه ..

اني أعرف هذه الفسحة جيداً .. ولا أظن بالامكان ان يتم ذلك .. أو لربما حدث ذلك فيما بعد . كما انني أعلم ان هنـاك أناس كثيرون يقبلون بأن أدفن في أرضهم .. سأطلب ذلك إلى ألبيرتو .. إنمـا هناك شيء واحد فقط أتخوف منه وهو ان يظن ان في الأمر سوءاً .

كان يحلم منذ زمن طويل بالمكان الذي سيدفن فيه وفي أية تربة يود أن يمزج ترابه . فالتعفن والتقيح لا يستمران طويلاً .. وحتى العظام ، فهي تصلح لشيء ما دون شك . أحب أن يدفنوني في الجانب الآخر من الساحة العامة .. أمـام المنازل الفخمة وتحت ظلال الأشجار الباسقة الوارفـــة .. ولا أظن ان ذلك سيزعجهم كثيراً . سأمزج بهذه الأرض التي يلعب فوقها الأولاد الأبرياء ، وربما كان ذلك في المساء أو في الصباح .. تحت سنابك الخيول .

ها هم الآن في الطريق الممتد من ميستر إلى البندقيـة ، ومن أمامهم مصانع بريدا المخيفة .. وعلها تشبه مصانع هاموند ، في أنديانا .

– ماذا يصنعون هناك يا سيدي الكولونيل ؟ سأل جاكسون .

– انها شركة تصنع القاطرات في ميلانو ، أجاب الكولونيل .. يصنعون كل شيء هناك ، وكل ما له علاقة بالمعادن .

كان منظر البندقية من تلك الجهة مرعباً ومقرفاً ... وطالما كره الكولونيل تلك الطريق وتحاشاها .. إلا في المناسبات التي كانت تجبره على ذلك ولا يجـد منها مهرباً .

– إنها مدينة تعيش من مواردهـــا الخاصة ، قال يتحدث إلى جاكسون . كانت سيدة البحار .. ولا يخاف سكانها الموت أو يرهبونه ... يفوقون الجميـع شجاعة وإقداماً ... عندما نتعرف اليهـا جيداً نقول بأن مدينة شيان ما هي سوى ملعب للأطفال وجوقات المنشدين في الكنائس . ضف الى ذلك التهذيب الرفيع الذي يتحلى به جميع سكانها ..

– شخصياً ، لا أقول بأن شيان هي مدينة قاسية ، يا سيدي الكولونيل . على كل ، فهي مدينة أقسى من كاسبر ، مثلاً .

– أتدعو ذلك ، مدينة قاسية يا سيدي الكولونيل ؟

– إنها مدينة بترولية .. مدينة جميلة جداً .

– ولكنني لا أجد أثراً للقساوة فيها ، يا سيدي الكولونيل .. أو انها كانته يوماً ما .

– حسناً .. يا جاكسون .. علنّا لا ننظر إلى الأمور نفس النظرة .. أو أننا نقيمها ، كلٌ على طريقته .. وهـــذا لا يمنع أن تكون مدينة البندقية ، حيث السكان المهذبون ، لا يمنع أن تكون كمدينة كوك سيتي في المونتانا ..

– إن فكرتي عن المدن تستمر وتستمر .. إنها ممفيس .

– ليست شيئاً إذا ما قارناها بشيكاغو يا جاكسون .. ولا أظن ممفيس أقسى وأشد بأساً إلا بالنسبة للعبيد فقط .. أما شيكاغو ، فلا .. فهي قاسية ويلعنهـا الجميع .. ولا أثر للأخلاقية فيها قاطبة . بينما يختلف الأمر بالنسبة لهنا ، اذهب الى بولون مثلاً ..

– لم أرها أبداً .

– حسناً ، هو ذا مرآب الفيات . حيث سنترك العربة .. قال الكولونيل .. وبإمكاننا أن نسلم المفاتيح إلى المسؤول في المكتب .. والناس لا يسرقون شيئـاً هنا . سأذهب إلى البار بينما تدخل العربة أنت . لا تهتم بالأمتعة .. إذ هناك من يهتم بها .

– أليس من خطر في ترك بندقيتك وحاجيات الصيد في الحقيبة يا سيدي؟

– لا . ليس هنا من لصوص .. هذا ما قلته لك .

– ولكن يجب أن نحتاط للأمور ، نظراً لقيمة الأشياء التي تحتويها حقائبك ..

– إنك تنضح بالعواطف المهترئة ، وتثير اشمئزازي أحياناً عديدة يا جاكسون ، أجابه الكولونيل بامتعاض ..

إستمع إلي ولا تجادل عندما أقول لك شيئاً ..

– سمعاً وطاعة يا سيدي الكولونيل ، أجاب جاكسون .

تأمله الكولونيل جيداً وعادت القساوة التي عرف بها قبلاً تشع من ناظريه وتعقد ما بين حاجبيه .. يا له من وقح متعجرف ، قال جاكسون في نفسه، ويود أن يتظاهر بطيبة القلب .. لم يسبق أن رأيت من هو أقذر منه .

– أخرج كيسي وكيسك .. ثم أوقف العربة فوق والق نظرة على زيت السيارة .. تفحص البنزين والدواليب ، قال الكولونيل آمراً ثم اتجه الى البار ليسير فوق الرصيف المبلط حيث لا زالت آثار العجلات وسخة قاتمة .

دخل الكولونيل الى البار وشاهد ثريا أيطاليا ، من ميلانو ، مربع القامة يتدلى كرشه أمامه ، يجلس على طاولة منفردة ومعه خليلته .. رائعة وشهية في آن واحد .. يشربان النيغروني .. وهو عبارة عن مزيج من الكحول وماء السيلتز .. تساءل الكولونيل في نفسه عما يكلف مثل هذا الشراب وكم يقبل عليه العديدون من الطبقة العاملة الكادحة . رغم ارتفاع سعره .. تطلع اليه الزوجين وتفحصاه بدقة لا تخلو من الكراهية والأشمئزاز .. حياهما باقتضاب وقال يتحدث اليهما بالايطالية :

– اعذراني اذا ارتديت هذا الزي .. فهو ليس زياً بالمعنى الحقيقي .. كما أنه ليس قناعاً كذلك .

قال هذا وأدار لهما ظهره دون أن ينتظر ماذا سيتركه قوله فيهما من ردود فعل .. ثم اتجه إلى البار .. ومن هناك يستطيع أن يراقب حقائبه كما كان يفعل اغنياء الحرب ويراقبون حاجياتهم بأنفسم .

عله قائداً كبيراً ، قال في نفسه .. أما هي ، فحدث عن جمالها ولا تسل . فقد أسال منظرها لعاب الكولونيل .. وأذكى شهوته الحيوانية .. انها جميلة حقاً . اسأل نفسي ماذا كان سيحدث لو حظيت بها واغدقت عليها العطاء كما يفعل هـــذا الموسر وقد غطاها بالفراء والجواهر ؟ يكفيني الذي أنا فيه .. وليذهبوا إلى الجحيم ، جميعاً .

حياه البارمان وشد على يده يصافحه بحرارة .. كان هذا الاخير فوضوياً ، ولم يزعجه كون الكولونيل كولونيلا .. بل العكس هو الصحيح .. فقد سرته رؤيته ويفاخر بها جداً .. كان يعبد هذا .. وكأن الفوضويين كان لهم

كولونيلا .. كما أن صداقتهما حديثة العهد .. ومنذ أشهر تقريباً .. كان يظن بأنه هو الذي اكتشف الكولونيل وقدمـــه الى الجميع ، يعرف عنه .. يعتبر نفسه كذلك كبان لكنيسة تورسيلو القديمة ..

سمع البارمان حديث الكولونيل وتعليماته وهو يدخل .. وخاصة التصريح المقتضب الذي أدلى به .. فزاده ذلك ارتياحاً وطمأنينة ..

– كيف الحال في تريست ؟

– كما تودها وتفكر بها ..

– ان لهذا الشراب أثره القوي وعلني لا اصل حيث أقصد ..

– لا تتعب نفسك أبداً ، قال الكولونيل .. وسوف لا تصاب بالالتهابات .

– لا فرق عندي اذا كنت كولونيلا ..

– وانا كذلك ..

– أليس لديك من جديد في الجمبة ؟ قال الخادم .

– إياك أن تتحدث بشيء إلى الشريف باكياردي .. قال الكولونيل .

كان هذا الحوار نوعاً من المزاح المستحب بينهما .. وكان باكياردي الذي عنياه في حديثهما ، كان وزيراً للدفاع في الجمهورية الايطالية .. كان له عمر الكولونيل نفسه ، وقاتل بشجاعة اثناء الحرب العالمية الأولى ، كما عمل في اسبانيــا وقاتل كقائد فيلق .. وهناك تعرف اليه الكولونيل . عندما كان يعمل كمراقب فقط .

كانت الجدية التي يضفيها باكياردي على منصبه كوزير للدفاع الوطني لبلد مستقل كايطاليا ، كانت تضفي على علاقاتهما صبغة الاحترام والتبادل .. كما انها وطدت العلاقات بين البارمن والكولونيل نفسه .

كان الاثنان واقعين تماماً ، كما ان فكرة الشريف باكياردي القاضية بالدفاع عن الجمهورية الايطالية ، كانت تدغدغ روحهما .

– لو نظرنا إلى الحالة من فوق ، لوجدناها مسلية ، قال الكولونيل ..وهذا لا يزعجني شخصياً ..

– يجب ان نقدم للوزير هدية ثمينة ، ما رأيك لو قدمنا له قنبلة ذرية مثلا ؟

– لديّ ثلاثة منها في صندوق العربة .. آخر ما توصل اليه الفن في هـــذه الصناعة .. يمكنك أن تعتبرها جاهزة للانفجار .. ولكن لا يمكننا أن نترك هذا الانسان بدون دفاع ..

– يعول الشريف باكياري علينا ، ويجب ألا نخونه مطلقاً ، قال البارمن . مِن المفضل ان نعيش يوماً واحداً كأسد ، بدل ان نعيش مائة يوم كحمل .

– ومن المفضل كذلك الموت وقوفـــاً بدل ان نعيش خاضعين .. قال الكولونيل ..

– لا أظن ان هناك مسائل واقتراحات معادية يا سيدي الكولونيل ..

– سنخنقهم بأيدينا العارية ، قال الكولونيل .. وسيهب مليون رجل دفعة واحدة في ليلة واحدة .. إذا اقتضى الأمر .

– أي سلاح ؟ قال البارمن يسأل .

– سترتب هذه القضية في الوقت المناسب ، قال الكولونيل .. وهي ليست سوى مرحلة كبيرة وحتمية في نهاية الحوار .

في هذه الأثناء دخل السائق .. اذ غاب عن ذهن الكولونيل وهو يتسلى مع البارمن ، غاب عنه أن يراقب الباب .. قلق لهذا الإهمال ، اذ لم يتعود التساهل مع الفوضى أو التغاضي عن الإهمال .

– لقد تأخرت يا جاكسون بما فيه الكفاية .. اشرب كأساً على عجل .

– لا ، شكراً ، يا سيدي الكولونيل .

لا تقم بأعمال مشينة يا وغد ، قال الكولونيل في نفسه .. انما علّني جرحت شعوره ، ردد في ذاته ثانية ..

– سنذهب بعد دقيقة ، قال الكولونيل .. وسأجرب أن أتعلم الايطالية مع صديقي القديم .

استدار ثانية ليتطلع إلى الموسرين الميلانيين ، ولكنهما كانا قد غادرا المكان .. أصبحت أشعر بالتباطؤ والملل يجتاحني .. عل هناك من يخفف عني الوطأة .. ولربما كان باكياردي نفسه ، قال في ذاته .

– كم يجب أن أدفع لك ؟ قال يسأل البارمن بجفاء .

لفظ البارمن المبلغ المطلوب وتطلع إلى الكولونيل بعصبية .. وقد فارقت الابتسامة شفتيه .. اظن أن كل شيء يسير على خير ما يرام بالنسبة له ، قال البارمن في نفسه – لا يهم ، أكان هو أم أي شخص آخر – شرط ألا يمسه سوء ..

– وداعاً ، يا سيدي الكولونيل ، قال .

– وداعاً ، أجاب الكولونيل .. سنأخذ هذه الطريق الآن يا جاكسون ، ونسير في المنحدر الاخر حتى نبلغ تلك الاشارات الحمراء التي تبدو وكأنها طليت حديثاً ..

– حسناً يا سيدي الكولونيل ، أجاب جاكسون ..

غادرا المكان وافترقا دون أن ينظر الواحد إلى الاخر ..

تقدم الكولونيل حيث تقف المراكب وبحث عن ربان اعتاد الذهاب معه .. فنقد الحمال علاوة عن اجره واستمر يبحث .. لم يتعرف اليه من الوهلة الاولى .. واذا بربان المركب يتقدم منه ويقول :

– صباح الخير يا سيدي الكولونيل ، انا الأول .

– كم تريد إلى غريتي ؟

– انك تعرف هذا اكثر مني يا سيدي .. لسنا لنضع أسعاراً جديدة الان .. فالسعر محدود ومتفق عليه .

– ما هو السعر اذن ؟

– ثلاثة الاف وخمسة ليرات ..

– ستين في المركب البخاري ..

استأجره اذن .. أجاب الربان الكهل ، بهدوء .. فهو لا يصل إلى غريتي .. ستتوقف في هارفس ومن هناك تتصل هاتفياً كي يأتوا ويحملوا امتعتك ..

وماذا تودني أن اشتري بمبلغ الثلاثة الاف وخمسماية ليرة ؟

– هل تريدني أن استدعي العجوز القابع هناك ؟

اشار الكهل إلى عجوز آخر ، كمداً ، يتلاعب بأطراف سرواله ، وعلى

استعداد تام لمد يد المساعدة لكل من يناديه .. يساعد الجميع بكل سرور .. لا يغضب أبداً ولا تفارق الابتسامة ثغره ..

– سيقودك في المركب البخاري ، إنتظر عشرين دقيقة فقط ، حتى يعود أول مركب ، قال الربان ..

– بئس الانتظار .. قال الكولونيل ، أنقلنا إلى غريتي ..

– كما يحلو لك ، قال الربان .

نزل الكولونيل وجاكسون إلى المركب الذي كان يشبه سيارات السباق إلى حد بعيد .. كان مطلياً لتوه ، يحافظ عليه صاحبه بدقة وعناية .. اشترى له محركاً صغيراً وخرطه ، محركاً من نوع « فيات » استحصل عليه من أحد الاطباء في القرى المجاورة .

– هل يعمل محركك ؟ سأله الكولونيل ..

سمعه يصر كعربات النقل الثقيلة ،نظرا للضعف فيه والنقص الواضح فيالقوة.

– هيك وهيك ، أجاب الربان ..

ثم حرك يديه ومدهما إلى الأمام بشكل متواز .

– عليك أن تحصل على النوع الذي تنتجه معامل « يونيفرسال » انه صغير وقوي في آن واحد .. ويصلح للأسفار البعيدة..وهو أحسنالأنواعالتيعرفتها..

– أجل ، اجاب الربان ، اذ هناك أشياء كثيرة أخرى يجب ان أحصل عليها ..

– وقد يلزمك سنة كاملة لتحقيق هذه الرغبات ..

– أجل .. ومن المحتمل جداً أن تسير الأمور جيداً هذه السنة .. اذ هناك عدد كبير من أغنياء الحروب يتوافدون على الليدو كل عـــام وفي هذه الفترة بالذات ..انما من تراه يرغب بركوب هذه الآلة أكثر من مرتين ؟إنهمركبرائع ولا شك .. حسن الصنـع وجميل .. ليس كاليخت طبعاً .. ولكنه يحتاج إلى محرك جديد ..

ـ يمكنني أن أبحث لك عن محرك سيارة جيب .. فتصلحه وتعيده إلى حالته الطبيعية .

ـ لا تقل اشياء كهذه، قال الربان .. أن مثل هذه الأمور لا تحصل أبداً.. حتى أنني لا افكر بها مطلقاً .

ـ يمكنك أن تفكر بها ، قال الكولونيل ، ولست بمازح أبداً .

ـ حقاً ؟

ـ طبعاً ... انما لا اؤكد شيئاً .. سأرى ماذا استطيع أن أفعل .. كم عدد أولادك ؟

ـ ستة . صبيان وأربعة فتيات .

ـ أظنك لا تؤمن بتحديد النسل .. انك اب لستة اطفال فقط ؟

ـ لا اؤمن بتحديد النسل .

ـ لا تتعب نفسك إكراماً لي ، قال الكولونيل .. كاد أن يكون هذا طبيعياً لو انك آمنت بما اقترحته عليك .. هل تظنني احاسب الناس على افعالهم بعد أن انتهت الحرب وربحنا ؟

كانوا يسيرون الان في القسم الحزين من القنال والذي يمتد من بيزال روما حتى كافوسكاري على الرغم من انه ليس هناك ما يحزن في هذه المسافة ، قال الكولونيل في نفسه .

لا نحتاج الى كنائس وقصور أينما كان .. لا ، لا يمكننا ان نجزم بأن هذا القسم مظلم بالفعل .. تطلع الى اليمين ثم قال في ذاته : لا بأس ها انا أسير على صفحة المياه الرقراقة .. كان هناك منزلا جميلا ، في الضفة الأخرى ، تحيط به الحدائق الغناء ..

هنا يجب ان أعيش .. فأتدبر أمري بما سأناله من معاش بعد أن أحال الى التقاعد .. افضل هنا على القصر في غريتي .. غرفة في هذا المنزل، عندما يعلو الموج ويهبط وتروح المراكب وتجيء، تكفي للراحة النفسية .. أقرأ في الصباح ثم اقوم بنزهة في المدينة قبل الغداء .. كما يمكنني أن أقوم بزيارة يومية إلى الاكاديمية..

ثم اتناول طعامي في احدى تلك الحانات العديدة والمنتشرة في جميع اطراف المدينة ..

والأفضل هو أن اتناول طعامي في الخارج وأقوم ببعض التمارين الرياضية . يا إلهي ! كم أحبها واتعشق الحياة فيها ! ألم أقاتل من أجلها ؟ ويوم كنت صغيراً لا أعرف للحروب من معنى ؟

ألم نقم بأجمل السهرات في ذلك البار القابع هناك ، تحت الجبل ؟

كم أسر لو طلب الينا ان نعيد الكرة ونقوم بالهيصة ذاتهـــا ؟ قال يسائل نفسـه .. بعد ان عرفت اشياء عديدة الآن ونظراً لتوفر كل ما يلزمنا لانجاح الحفلات الصاخبـة . ويمتلك الآخرون نفس الشيء .. وتبقى القضية الأســاسية هي هي ، باستثناء مسألة التسلط على الهواء .

لم يرفع نظره ، طيلة الرحلة ، عن مقدمة المركب الجميلة ، يتأملها تمخر المياه مسرعة لا تأبه بشيء .. فقد شاهد كيف تكون عرقلة السير في المدن ومـا هو الأثر الذي تتركه في نفس المشاهد !!

مروا تحت الجسر الأبيض والجسر الآخر الذي لم يتم بناؤه بعد .. ثم تركوا الجسر الأحمر جانباً وانعطفوا باتجاه أول جسر أبيض عال ومنحدر وصلوا الآن إلى الجسر الحديدي الذي يصل بين مدينة « النهر الجديد » والضفة الأخرى من القنال .. وسارا بمحاذاة مركبـين عائدين من غريتي ، ربطـا إلى بعض بسلسلة حديدية .. ودون ان يتلامسا .

استمروا هكذا ، على مهل ، حتى الضوء الكبير ،عند مدخل القنال الكبير حيث ابتـــدأ ضجيج المحرك يخف وأصبح شبيهاً بحشرجة الأفعى ، مما زاد في سرعته نوعاً ما .

ثم مروا تحت جسر الأكاديمية بين الأعمدة الرخامية وكادوا ان يصطدموا بمركب آخر محمل بالأخشاب ، معدة للأفران .. وهي في طريقها إلى « مدينـة البحر » .

ــ انه خشب شوح ، أليس كذلك ؟ سأل الكولونيل الربان .

– من الشربين ومن نوع آخر لست اتذكر اسمه الآن .

– يعتبر الشوح من أجود الأنواع للأفران .. كما يعتبر « الناريت » للحمام والمواقد .. من أين يأتي هذا ؟

– لست من سكان الجبال .. انما أظنه يأتي من باسانو . من الجهة الأخرى من غرابو .. ذهبت إلى هناك لأعرف أين دفن أخي .. كانت نزهة رائعة .. اعددنا لها العدة منذ مدة واستمرت من باسانو ، حتى غران أوسيار .. ولكننا عدنا بطريق فالتر .. عرفت انه بلد حرجي .. بينما كنت أنزلق إلى الوادي .. اتبعنا الطريق الستراتيجي ، كما تعلم ، حيث كانوا يشحنون كميات هائلة من هذا النوع من الخشب .

– في أي عام قتل أخوك في غرابو ؟

– عام ١٩١٨ .. كان وطنياً ، مناضلاً ، يتعشق خطب أنونزيو وانخرط في سلك الجندية والتدريب قبل أن يصار إلى طلبه رسمياً .. لم نتعرف اليه جيداً ، لأنه غادر المنزل يوم كنا لا نزال صغاراً .

– كم كان عددكم ؟

– ستة .. خسرنا اثنين في جهة ايزونو ، واحد في بانسيزا وآخر في غارسو .. ثم جاء دور هذا الأخ الذي حدثتك عنه قبلا وقد لاقى حتفه في غرابو .. وهكذا بقيت وحيداً .

– سأتدبر نفسي كي أجد لك محرك الجيب الذي وعدتك به ، قال الكولونيل .. يكفينا الآن عودة إلى الذكريات الأليمة .. دعنا نتذكر الأمكنة التي يعيش فيها اصدقاؤنا حالياً .

صعدوا الان في القنال الكبير وبات سهلاً مراقبة بيوت اصدقائه ..

– هذا هو منزل الكونتيسا داندولو ، قال الكولونيل . لم يقل انها عجوز ، فكر في نفسه ، وقد تخطت الثمانين من عمرها ، وانها مسرورة جداً يضاهي سرورها سرور الفتاة المغناج .. لا تخاف الموت مطلقاً .. تحتفظ بشعرها أحمر فهو يناسبها تماماً .. انها امرأة رائعة .. حلوة المعشر .

كان قصرها جميل المنظر ،ويبعد عن القنال مسافة قصيرة ، تحيط بهالحدائق الغناء والبحيرات الجميلة .. بينما تمر اليخوت في القنال الاخر المحاذي له ، والذي يصل بين قنال وآخر .. يتوافد عليهـا اصدقاء كثر .. فتحسن وفادتهم وتتحدث اليهم في كل شيء وعن كل شيء .

وهكذا ، بينما كانوا يصعدون في مجرى القنال ، كانت الريح العاتية تهب من فوق رؤوس الجبال الشامخة تلفح وجوههم وكأنهم في أيام الشتاء القارسة .. ومن حيث يتسنى لهم مراقبة المدينة والتعرف الى جمالها اكثر فأكثر . كانت هذه الصفات منفصلة ولا شأن لهـا بالأشخاص الذين عرفهم الكولونيل ويعيشون في هذا القصر حالياً ..

هنا تقطن والدة البرتو ، قال مفكراً ، ولم ينطق بإسمها .

لا تقيم في قصرها مدة طويلة ، بل تمضي أغلب أوقاتها في منزلهـا الريفي ، قرب ترفيز .. حيث تكثر الأشجار .. لقد تعبت من القحط وتاقت إلى رؤية الاشجار في البندقية .. خسرت زوجاً ممتازاً ولم تعد تهتم بشيء على الاطـلاق الان ..

أجرت العائلة البيت إلى جورج غوردن ، المعروف باللورد بيرون ، وليس هناك من ينام في سرير بـيرون الان .. ولا في السرير الاخر الموجود في قلب اليخت قرب القصر العامر .. انهـا لا تعتبر هذه السرائر كتحف أو أشياء مقدسة .. بل تعتبرها سرائر نجـدة لم تعد تستعمل منذ زمن بعيد ولاسباب عديدة . أو كأحترام لذكرى المرحوم اللورد بيرون ، الذي كان محبوباً جداً في المدينة ، رغم كل الأخطاء التي اقترفها .. يجب ان تكون قاسياً كي يحبوك في هذه المدينة ، قال الكولونيل في نفسه .. كان الناس يسخرون كثيراً من برونتغ والمدام وكلبها ... كانوا بندقيين ، وحتى لو كتب أشياء جميلة عن المدينة .. وما هو الرجـل القاسي ؟ قال يسائل نفسه .. يمكنك ان تستخدم هذه الكلمة وتتحدث عنها كيفما شئت حتى تستهدي الى تحديد تام لها .. يجب ان يكون رجلا يعرف كيف يقوم بواجبه ويلعبه حتى النهاية .. وليس بالامكان ان نجد

مثل هذا الانسان في المسرح ، ومهما كان نوع المسرح الذي نؤمه .

كانت الفيلا محاطة بالأشجار من كل حدب وصوب .. لم يكن مكاناً جميلا .. تحب السكن فيه .. ومع ذلك فهناك عاش اللورد وترعرع .

أحبوه لحسن تصرفه وسيئاتـــه وشجاعته .. اكتسح البلاد بحسن مزاياه ورومانسيته الحلوة .. كان شخصاً ممتازاً يتمتع بالرجولة الحقة .. كبقية الكثير من الرجال .. احسن استعمال السلاح وتمرن على كل نوع منه .. ينقله من يد إلى أخرى ، كما ينتقل من ذراع امرأة إلى أخرى .

لم تكن الأسلحة التي استعملها دانونزيو تخلو من الجمال والرفاهة ، كما ان المهنة كانت سريعة وسهلة التنفيذ ، كلها وباستثناء المدفعية.. يتذكر جيداً كيف فقد دانونزيو احدى عينيه في حادث طائرة ، أثناء رحلة طيران استكشافيـة فوق تريست أو دي بولا ، وكيف ، فيما بعد ، حمل هذا الضماد فوق عينيه مـدة طويلة ، وحتى الناس الذين لم يعتقدوا بعد في هذا أو يؤمنوا به . لم يكن هناك بعد من يعرف بالضبط كيف تتم الأمور ، أو يعرف كيف جرح ..

كان دانونزيو يكتفي فقط بتقليد حركات الأبطال حيث يقوم ويمر .. عمل غابريال ، بنفسه ، في الطيران ولكنه لم يكن طياراً .. كان في المدفعية ولم يكن « مدفعجياً » ، وهكذا ، لم يكونوا ابداً ، واينما حلوا ، سوى متصنعين .

تذكر الكولونيل ذات يوم ما حدث له عندما كان على رأس مجموعـــة من الجنود يقود هجوماً عنيفاً ، تحت الأمطار الغزيرة ، وذات شتاء قاس وقارس كهذا الذي نعاني منه الآن .. توقف فجأة وصرخ في جنوده يقول : ان الموت لا يكفي .. كان الكولونيل ضابطاً آنذاك فقال في نفسه : يا إلهي !! مـا تراهم يحتاجون بعد كل ما قدمت لهم ؟

ولكنه تابع الخطاب ، وفي النهاية ، عندما أعلن الكولونيل دانينزيو دقيقة صمت حداداً على الشهداء ..وقف وتهيأ ليؤدي التحية ، شاحب اللون كالحوت.. أما فرقتـــه فلم تسمع شيئاً لافتقارهم إلى مكبرات الصوت آنذاك .. ولكنها صرخت بصوت واحد : « ليحيا دانزيو » !

– ان هذه الفيلا الجميلة ، كانت لأنونزيو الكاتب الشهير يا جاكسون ، قال الكولونيل يخاطب سائقه .

– أجل ، يا سيدي الكولونيل ، قال جاكسون .. اشكرك على هذه المعلومات القيمة .. ولم اسمع به من قبل أبداً ..

– سأعطيك لائحة بجميع الكتب التي كتبها إذا أردت يوماً ان تقرأ شيئاً .. قال الكولونيل .. كما هناك ترجمات رائعة في الانجليزية ..

– شكراً يا سيدي الكولونيل ، قال جاكسون .. يسرني كثيراً ان اقرأ كتاباً منها وعندما تسمح لي المناسبة بذلك .. ولا تبدو هيأة المنزل قاتمة كما يظنها البعض .. ما هو اسمه ؟ لقد نسيته ..

– دانونزيو ، قال الكولونيل .. كاتب .

ثم أضاف في نفسه وعلى عدة مرات يكمل بقية الصفات : كاتب ، شاعر ، مناضل وطني ، مخترع الانشاء السهل ، طيار ، قائد ، وكل ما هنالك من صفات ومزايا .. انه مؤلف « نوتورنو » ونحترمه جداً .. ويمكنك اعتباره ، بالاضافة إلى كل هذا ، قذراً ومراوغاً ..

– هناك سنقيم يا جاكسون ، في ذلك الفندق ..

أشار الكولونيل إلى المنزل الحلو الجميل والمؤلف من طبقتين، في آخر القنال .. كان يتعلق بالفندق الكبير منذ زمن بعيد ، أما الان فقد انفصل عنه وأصبح نزلا مستقلا لا علاقة لأحد به وفريد من نوعه في المنطقة بأسرها .

– يسرني جداً ويروق لي هذا ، يا سيدي الكولونيل ، قال جاكسون ..

– حسناً .. رائع ، أجاب الكولونيل ..

– اننا على الرصيف يا سيدي .. قال جاكسون ..

– أين تريدنا ان نكون اذن يا فتى ؟ أخرج من هناك بينما انصرف أنا إلى تهيئة الثياب الرياضية ..

التفت الكولونيل إلى ربان المركب وقال :

– ثلاثة آلاف وخمسماية قلت ؟

ـ أجل ، يا سيدي الكولونيل . . .

ـ سوف لا أنسى محرك الجيب القديم .. خـــذ ، هذا ما يكفي لتشتري شعيراً لحصانك ..

سمع الحمال ، عندما كان يتناول البضائع من جاكسون ، سمع الكولونيـل فضحك عالياً وأجاب :

ـ لم يستطع أحد من الناس بعد أن يكفي حصان الربان هذا القدر الذي يلزمه من الشعير والعلف .

ـ انه يمشي ، قال الربان .

ـ ولكنه لا يستطيع كسب رهان السباق ! قال الحمال .. كيف حالك يا سيدي الكولونيل ؟

ـ حسناً ، والحمد لله ، قال الكولونيل .. وكيف حال أعضاء الرابطة ؟

ـ انهم في صحة جيدة ..

ـ رائع ، قال الكولونيل .. سأمر على المعلم الكبير .. وأحييه .

ـ انه بانتظارك يا سيدي الكولونيل .

ـ وعلينا ألا ندعه ينتظر ، يا جاكسون ، قال الكولونيـل . يمكنك أن تلحق بهذا السيد وتسجلني في سجل الفندق .. حـاول ان تجد غرفـة ممتازة للسيرجنت .. اننا ننزل هنا ليلة واحدة ..

ـ مر البارون الفاريتو وسألنا إذا وصلتَ أم لا ..

ـ سأجتمع به في هاريس ..

ـ حسناً ، يا سيدي الكولونيل .

ـ أين المدير المسؤول ؟

ـ سأبحث لك عنه ..

ـ قل له ، انني في البار .

كان البار مقابل قاعة غريتي الكبرى ، ولكن كلمة قاعة لم تكن لتعطي المعنى الحقيقي للمكان .. قال الكولونيل في نفسه عندما حاول وصفها وهو يدخلها .. ألم يكن جيوتو نفسه ، الشخص الذي حاول وصف الدائرة ؟ تساءل الكولونيل مرة ثانية .. لا .. كان ذلك في عالم الرياضيات .

إن النكتة التي يتذكرها الآن ويفضلها عن كل ما يعرف من نكات ، كانت تدور حول هذا الرسام بالذات .. كانت هذه العبارة التي قالها جيوتو وهو يرسم الدائرة التامة : « هذا شيء سهل » . ولكن من حدثه بها ورواها له ؟ وأين ؟

— مساء الخير أيها المستشار الخاص ، قال يخاطب البارمان ، الذي لم يكن من أعضاء الرابطة بعد ، إنما لم يرد الكولونيل أن يجرح شعوره .

— ما هي الخدمة التي يمكنني أن أسديها اليكَ ؟

— أن تشرب كأساً ، يا سيدي الكولونيل .

جلس الكولونيل الى طاولة صغيرة يتطلع من الباب والنوافذ المشرعة ،يتطلع الى مياه القنال الكبير .. شاهد الوتد الضخم وقد شدت اليه حبال اليخوت .. كما لاحظ الشمس الباهتة تنير صفحة المياه وقد اكتسحتها الرياح الباردة تمشطها وتتلاعب بها ، بعد ظهر هذا اليوم الجميل والنادر في شتاء قارس ومثلج .. كما

شاهد القصر القديم في الضفة الأخرى وبارجة خشبية مربعة وسوداء تعبر القنال وتكاد الرياح العاتية أن تمزق شراعها ..

– مارتيني ، قال الكولونيل ، مضاعف ..

في هذه اللحظة بالذات دخل مدير الفندق الى القاعة يرحب بالكولونيل .. كان يرتدي الزي الخاص بأمثاله من الموظفين .. جميل الطلعة ، حسن الهندام ، يتمتع بالروح الخفيفة والذكاء الخارق .. يضحك من أعماق قلبه ولا يحقد على أحد . جميل الوجه ، مستطيل الأنف ومن سكان منطقة فينيسي ، ينم السرور من عينيه ويشع الفرح منها .. أبيض الشعر وهذا ما يتناسب تماماً مع عمره .. ويكبر الكولونيل بسنتين فقط .

يسير مبتسماً ويحنو ، يوحي منظره بأنه يبيت شراً مـا .. كانت الأسرار بينهما مشتركة وكثيرة .. مد يده القوية يصافح الكولونيل ووقف هذا الأخير يرد التحية ويصافحه بحرارة وإيناس .. لم يشد كثيراً على يد المعلم نظراً لإصابة يده بثقبين أيام الحرب مما شوهها قليلاً ..

استمرت أيديهما متشابكة مدة طويلة ليعبرا عن الشوق الزائد والاحترام المتبادل بينهما .. ثم قال مدير الفندق :

– سيدي الكولونيل .

وقال الكولونيل مجيباً :

– سيدي ، المايسترو .

بعدها دعا المايسترو إلى شرب نخب صداقتهما معاً ، ولكن الأخير أجاب بأنه لا يستطيع الشرب الآن لأنه في الخدمة .. عمل مستحيل بقدر ما هو ممنوع .

– لا تهمني اللياقات والقوانين ، أجاب الكولونيل عابساً .

– طبعاً ، أجاب المايسترو ، إنما يتوجب على كل منـا أن ينطوي على عمله وينفذه بصدق وأمانة .. ان القواعد الممنوعة هنا ، قد يسمح بها في مكان آخر وعلينا جميعاً ان ننقاد لها ، خاصة أنا ، فهي قضية مبدأ ومثال .

– ولا أظنك أصبحت في هذه المكانة وتبوأت هذا المركز عبثاً !

– سأكتفي بجرعة واحدة ، قال المايسترو يخاطب البارمان ..

اخترق المايسترو حرمة القانون وشرب نخب الكولونيل على عجلة من أمره.

– لنتحدث الآن عن أمور الرابطة وشؤونها ، قال الكولونيل . هل نحن في الغرفة السرية ؟

– تماماً .. قال المايسترو الكبير ، وهكذا اسميها أنا .

– أكمل .. قال الكولونيل .

كانت الرابطة عبارة عن تجمع خيالي ، ولدت بعد محادثات طويلة استمرت مدة من الوقت بين المايسترو الكبير والكولونيل ..

كانا يتحدثان بالاسبانية إذ انها اللغة المفضلة لديهما ويجيدانها تماماً ..

– ما هي أخبار « رئيسنا الجليل » قال الكولونيل يسأل المايسترو الكبير؟

– ليس لديّ منها شيء .. صمت تام ، وخاصة في الأيام الأخيرة..

– انه يفكر إذن .

– دون أدنى شك .

– عله يفكر في أمور مخجلة وأكثر تعقلاً من الأولى ..

– إنما يمكننا أن نثق به .

– حتى مماته ، قال المايسترو الكبير .. وبعد ذلك لتكن جهنم مأواه .. ونحتفل دائماً بذكراه ..

– جيورجيو .. قدم للمايسترو كأساً أخرى ..

– إذا كان ما تطلبه أمراً فلا أجد أنا بداً من الامتثال .. قال المايسترو .. وشربا النخب مرة ثانية ..

– جاكسون ، نادى الكولونيل.. أنت في إجازة الآن. إنما أودك حاضراً عند العشاء .. لا ..أرغب أن أراك عند الحادية عشرة ، غداً، تدخل القاعة .. اللهم إذا لم تصاب بسوء . لا سمح الله . . هل لديك دراهم ؟

– أجل .. سيدي الكولونيل ، أجاب جاكسون .. ثم قال في نفسه :

« لا شك انه حيوان متيقظ أكثر من اللزوم ، إنما كان بإمكانه أن يناديني على مهل ، بدل أن يصرخ هكذا ... كالمجنون تماماً » .

– اذهب ، اغرب من أمامي ، قال الكولونيل يأمره ..

كان جاكسون يقف أمامهوعلى أهبة الاستعداد لتلبيةأي نداء أو أية اشارة تصدر عن سيده الكولونيل .

– يكفيني ما أبديته من حماقة حتى الان .. انك لا تعرف كيف تتسلى .. حاول ان تروح عن نفسك قليلاً ..

– أجل ، يا سيدي الكولونيل ..

– هل فهمت ما أعني .

– أجل ، يا سيدي الكولونيل ..

– أعد .

– رونالد جاكسون ، القطار الخامس ، رقم ١٠٠٦٧٨ ، يتقدم على مهـل ويدخل الى القاعة الكبرى في فندق غريتي ، وفي تمـام الساعة الحادية عشرة صباحاً .. لا أعرف التاريخ تماماً ، يا سيدي الكولونيل .

اختفى من أمام الكولونيل يدمدم ويبتسم ..

– آسف ، يا جاكسون ، قال الكولونيل .. ولست سوى إنساناً قذراً ..

– هل يسمح لي سيدي الكولونيل ألا أؤيد أفكاره وأعمل بها ؟ طبعـاً في هذه الحالة ..

– شكراً يا جاكسون ، أجابه الكولونيل .. ولعل ما تقوله لا صحة له .. وآمل ، مع ذلك .. أن تكون محقاً فيما ارتأيت .. انصرف الآن .. لديـك غرفة هنا ويمكنك أن تنصرف وتتهيأ للعشاء .. حاول أن تتسلى دائماً .. وعندما غادر جاكسون الغرفة قال المايسترو :

– من هو هذا الفتى ؟ هل هو « مسطرة » أخرى من أمريكا الحزينة ؟

– أجل ، قال الكولونيل .. والله يعـلم كم هو عدد « المساطر » لدينا .. تعساء ، يدعون العفة والفضيلة ، متخمون وبدون تدريب أو أي نشاط آخر .

– هل تعتقد بأنهم اشتركوا في معارك غرابو ، بازوبيو وبيافا السفلى؟

– الصالحون منهم.. وربما أكثر منا.. ولكنك تعلم جداً أن الرمي بالرصاص ممنوع في جيشنا ، حتى ولو رفض الجنود الانصياع للأوامر .

– يا إلهي ، قال المايسترو الكبير .

تذكر الاثنان الرجال الذين رفضوا الموت بعد قرار صارم دون أن يفكروا بأن الذي ينجو يوم الخميس سيموت يوم الجمعة دون محالة .. كيف يستطيع الجندي القابع وراء الأكياس الرملية أن يهب لنجدة صديقه دون أن يترك أثراً فوق الرمال ... كيف يستطيع النيل منه ويقتله إن لم تنفذ الرصاصة القاتلة إلى العظام وتحطمها ؟ عرفا هذا جيداً ، وعلهما أنشآ الرابطة كتحد ومنعاً للمزيد من هذه الأمور المضلية .

كانوا يعرفون مدى الاحترام والتقدير اللذين يكنهما هذان الرجلان بعضهما لبعض .

تعاركوا جداً ، وفي البداية ، مباشرة بعد نشوب المعارك في ايزونزو وغارسو .. ولكنهم كانوا يتخوفون من الذين أمروا ببدء الحرب ويخجلون منهم جداً . تذكر الكولونيل، كيف يتوجب عليه أن يعمل، من الناحية التقنية.. كما ذكر إحدى الطرق المثمرة التي تؤدي إلى العمل المجدي .. وهكذا أسسوا رابطة بروزاديلي ، رابطة شرف حربية ودينية .. والتي لا يتعدى عدد أعضائها الخمسة .

– ماذا من جديد في قلب الرابطة ؟ قال الكولونيل يسأل ، ثانية ، المايسترو الكبير .

– رقينا الطباخ في الماغنيفيك إلى رتبة كوماندور .. أظهر براعة وشجاعة فائقة .. وبرهن على انه رجل حقاً . ثلاث مرات على التوالي .. وخاصة يوم عيد ميلاده الخمسين . صدقته وآمنت به دون أن أتأكد من ذلك .. كان صادقاً بالفعل .. ولم يكذب ..

ـ لا . لم يكذب أبداً .. إنما هي طريقة يجب أن نتحفظ دائماً قبل أن نثق بالآخرين ونوليهم ثقتنا .

ـ آمنت به .. يتراءى لي ، وكأنه يموت ..

ـ لا زلت أراه فتى يافعاً .. يتصرف بدون مسؤولية .. كان قاسي الملامح ويدعونه « المرير » .

ـ وكذلك أنا .

ـ هل لديك مشاريع جديدة وواضحة بالنسبة للرابطة ، هذا الشتاء ؟

ـ لا . أيها القائد الأعلى .

ـ هل تظن انه يتوجب علينا أن نؤدي التحية للشريف باكياردي ؟

ـ حسبما تريد ..

ـ سنناقش هذه القضية فيما بعد ..

صمت برهة وطلب إلى البارمن أن يأتيه بكأس مارتيني آخر .

ـ هل تعتقد انه بالامكان ترتيب احتفال تكريمي في ساحة دينية .. كساحة سان ماك مثلاً .. في ساحة كنيسة تورسيلو القديمة ، احتفال رائع نحييه تكريماً للرئيس الكبير بروزاديلي ؟

ـ أشك بأن تسمح لنا السلطات الدينية بهذا وفي مناسبة كهذه ..

ـ فلنتخلى عن التظاهرات الجماهيرية اطلاقاً ، هذا الشتاء . ولنعمل في حدود معقولة تعود على الرابطة بالفائدة .

ـ أظن انها طريقة ممتازة وأكثر تعقلاً من الأولى ، قال المايسترو الكبير .. كما علينا أن نوحد الصفوف ونقربها إلى بعض .

ـ وأنت ، كيف حالك ؟

ـ سيء جداً ، قال المايسترو .. مصاب بالقرحة ومثقل بالديون ..

ـ هل أنت سعيد ؟

– دائماً ، أجاب المايسترو . أحب عملي كثيراً .. أتعرّف كل يوم إلى شخصيات ممتازة ورائعة .. أكثرهم من البلجيكيين .. انهم منتشرون بيننا كالجراد ، هذه السنة .. كما كان الألمان في السابق .. أليس القيصر هو القائل « والأكثر شجاعة من الجميع ، هم البلجيكيون إنما تنقصهم المهارة والاناقة .. » .. ألست من رأيه ؟

– رأيتهم ، عكس ما تقول ، في بروكسل ، أجاب الكولونيل .. انها عاصمة فرحة وغنية .. تربح وتخسر والعكس بالعكس .. لم أشاهدهم يقتتلون مطلقاً .. مع أن الكثيرين يقولون العكس .

– يؤسفني بأننا لم نحارب في الفلاندر ، قديماً .

– لم نكن قد ولدنا بعد ، قال الكولونيل .. ولهذا كان ما نتمناه مستحيلاً بطبيعته ..

– وددت أن أخوض الحرب ، أنا كجندي وأنت كقائد تصدر إلي الأوامر فأنفذها في الحال ودون تلكؤ .

– يلزم لذلك احتلال بعض المدن كي نفرض احترامنا وهيبتنا على الجنود والسكان ..

– وكنا نحن لنقضي عليهم ، اذا ما أبدوا مقاومة ، قال المايسترو .. أي المدن كنت تود اقتحامها والسيطرة عليها ؟

– ليس هذه ، قال الكولونيل .. احتل فيسنس ، بيرغام وفيرون .. إنما لا ضرورة لاتباع مثل هذا التسلسل ..

– يلزمنا مدينتين أكثر .

– أعرف ذلك .. ، قال الكولونيل .. لنترك بريسا .. أظنها ستسقط تلقائياً ..

– وأنت كيف حالك أيها القائد الأكبر ؟ قال المايسترو يسأل بدوره لأن الانتصارات على كل هذه المدن كانت لتوهن قواه ..

كان يقيم في منزله الصغير في مدينـــة تريفيز القريبة من النهر السريـع الذي ينحدر بقرب السفوح القديمة .. تتماوج الأعشاب في مجرى النهر وتختبىء الأسماك بينهـا هرباً من شباك الصيادين ، وتقفز من وقت لآخر .. لالتقاط حشرة أو ذبابة ... يعيش بهدوء وتتوفر له جميع أسباب الراحة ... طعام جيـد وخدم وحشم .

وعندما أصبح الكولونيل في مرتبة رفيعة كهذه ، ولم يسبق له أن حلم بها ، لم يعد المايسترو ليقيم في منزله وأصيبت علاقتها بالفتور وسيطر عليهـا جو من البرود والتناقض . وتمنى أن يعود الكولونيل إلى الأشياء التي عرفاها سوية... عندما كان الأول سيرجنت والثاني ضابطاً ..

– ماذا ستفعل بمانتون ؟ قال الكولونيل ..

– لا أعرف بعد يا سيدي الكولونيل .. لا أعرف العدو الذي تقاتل ضده، إذ أجهل قواه وقواك أنت بالذات ...

– أظنك قلت العكس منذ لحظات ..

– سيدي الكولونيل ، قـــال المايسترو ، ودون أن يحط ذلك من حماسه بشيء ، إنني أجهل أغلبية الأمور التي تحدثنا عنها قبـــلا .. حتى أنني لم أكن أجيد القتال آنذاك بعـــد .. إنما قلت بأنني وددت العمل تحت رايتك وحسب .

– لقد انتهى ذلك العهد ، قال الكولونيل .. ولم يعد للجهال من مكان ..

يا للسخرية ، لم يكن هناك شيء من الجمـــال بالفعل ، قال الكولونيل في نفسه .. أغلق فمك ، ردد في ذاتـــه ، تخطيت الخمسين يا أخي .. وعليك ان تتسم بشيء من الانسانية ..

– خذ كأساً أخرى ، قال يخاطب المايسترو الكبير .

– اسمح لي ان ارفضها، يا سيدي الكولونيل.. فأنا مصاب بقرحة معوية

– طبعاً ، طبعاً . انت يا فتى ، ما اسمك ؟ جيورجيو تقول ؟ هات كأساً ثالثة من المارتيني الجاف .. ولتكن مضاعفة ..

ليس القضاء على الجمال ، مهنتي ، قال في نفسه ، ان مهنتي قتـــل الرجال بالسلاح .. ويجب على الجمال ان يأتيني مدججـــاً بالسلاح كي ابارزه ، وأقضي عليه .. ولكننا قتلنا أناساً كثيرين وهم عزل .. عمل جيد ! ، أودك أن تتراجع عن أقوالك هذه ..

– سيدي المايسترو ، قال ، ستبقى على ما أنت عليه .. وتكف عن التحدث عن الماضي ..

– ذهب ولن يعود ..

– بالضبط ، قال الكولونيل ..

.. ولكن الجمال تبدد إلى الأبد .

– أود أن أراك عند العشاء . قال الكولونيل .. ما هي لائحة طعام اليوم؟

– كل ما تشتهيه .. وسأرسل بطلب كل ما ترغبه ولا يكون متوفراً لدينا .

– هل لديك هليون طازج ؟

– انك تعلم تماماً انه لا يتوفر في هذا الفصل .. إنما تأتينا بوفرة في نيسان ، ومن مدينة بوسانو .

– حسناً ، ستستمر رائحة بولي كما هي عليه ، قال الكولونيل .. هيأ لي ما تريده .. وسآكله بشهية ..

– كم عددكم ؟

– اثنان ، قال الكولونيل .. متى تقفل غرفة الطعام .؟

– يمكنك أن تتعشى ساعة تشاء ، يا سيدي الكولونيل ..

– سأحاول أن أكون هناك في الوقت المحدد ، قال الكولونيل ، وداعــاً ، سيدي المايسترو ، ومد اليه يده المشوهة ، يصافحه .

– إلى اللقاء . أيها القائد الأعلى ، قال المايسترو .. وقـد عادت اليه بهجته تماماً ..

فكر الكولونيل في نفسه وقال: لماذا يجب أن أكون دائماً نفس القذر ولماذا لا أتمكن أن أتناسى لحظة واحدة هـذه المهنة الحربية ، فأمسي رجلاً محبوباً وصالحاً ، ذلك الرجل الذي طالما حلمت أن أكونه ؟

أحاول دائماً أن أكون عادلاً ، ولكنني جاف وحاد ، ولا يعود هـذا إلى تربيتي العسكرية ولا إلى الدور الذي ألعبه مع رؤسائي ومرؤوسي.. يتحتم عليّ أن أكون أفضل من هـذا .. ويجب أن أحاول تنفيذ هذه الخطة ، هذا المساء بالذات.. أين ؟ ومع من ؟ ساعدني يا إلهي على إيجاد الحل ولا تجعل الأمور تزداد قساوة وتعاسة .

– جورجيو ، قال يخاطب البارمن صاحب الوجه الأبيض .. المجعد والمملوء بالتجعدات وآثار الجراح ..

لم يكن هذا الأخير يحب الكولونيل كثيراً أو يستلطفه .. إما لكونه آت من بيومنت أو لكونه يهزأ من الناس دائماً .. وهذا عمل ممقوت في نظر القوم الذين يأتون من الريف ويعملون في المدينة ..

– جورجيو ، قال ، أضف الحساب إلى قائمتي .. إذا أردت ..

غادر البار ،يسير كعادته ثابت الخطىوان لم يكنهناك ما يدعو إلى ذلك.. أميناً على العهد الذي قطعه على نفسه .

– لست أرى الفـارس الرسمي يسيطر على هذه الأمكنة ؟ قال يسأل ، يا صديقي ؟

– ليس هنا .. قال مساعد المدير ..

– بلغه تحياتي ، قال الكولونيل .. وأرسل لي شخصاً يدلني إلى غرفتي ..

– انها نفس الغرفة يا سيدي .. التي اعتدت ان تنزل فيها .. كلما جئتنا .. فهي تروق لك دائماً ..

ـ أجل . هل اهتممت بأمر السيرجنت ؟

ـ أنه في أيد أمينة .

ـ حسناً ، أجاب الكولونيل .

صعد الكولونيل إلى غرفته ، يرافقه صياد يحمل له الكيس ..

ـ من هنا يا سيدي الكولونيل ، قال الصياد ، عندمـــا توقف المصعد في الدور الأخير .

ـ ألا تزعجك هذه الآلة المقيتة ؟ قال الكولونيل يسأل ..

ـ لا ، يا سيدي الكولونيل ، قال الخادم .. علّ العطل الذي حصل الآن عائد إلى انخفاض في التيار الكهربائي .

لم يقل الكولونيل شيئاً ، وسار في الممشى أمام الصياد ..

كان الممشى فسيحاً وطويلاً ويتفرع أمام كل غرفة إلى فسحة تطل على القنال الكبير . تماماً كما كانت القصور القديمة .. إذ تتمتع كل غرفة بمركز وتشرف على مناظر خلابة .. باستثناء تلك التي خصصها المهندسون للخدم .

وجد الكولونيل الطريق طويلاً رغم انه كان قصيراً جداً .. وعندما طالعهم الخادم الأسمر الصغير القامة والمسؤول عن تأمين خدمة هذا الدور ، عندئذ تمنى الكولونيل ان يفتح باب الغرفة بسرعة ..

– اسرع وافتح حالا ، قال ..

– أجل .. حاضر يا سيدي الكولونيل قال الخادم .. ولكنك تعرف هذه الآليات جيداً ..

أجل ، قال الكولونيل في نفسه ، أعرفها تماماً .. ومع ذلك أود أن تفتح الباب بسرعة ..

– كيف حال عائلتك ؟ قال يسأل الخادم بعد ان نجح هذا بفتح الباب الكبير ..

كانت الغرفة جيدة ومريحة تطل على القنال وما يحيط به من مناظر خلابة

يسر بها الكولونيل دائماً .. أضاء النور وأجال الطرف في أرجاء الشقة ثم قال يخاطب الخادم .

– افتح النوافد ، يا ارنالدو .

– ان الرياح تصفر بسرعة وهواء الغرفة رطب وبارد نظراً للخلل الذي طرأ على التيار الكهربائي ..

– هذا يعود الى نقص في الشتاء ، قال الكولونيل .. افتح جميع النوافذ .

– كما ترغب يا سيدي الكولونيل .

فتح الخادم جميع النوافذ وصفرت الرياح الشمالية الباردة في جميع ارجاء الغرفة .

– اتصل بالاستعلامات واطلب اليهم ، أرجوك ، أن يصلوني بهذا الرقم ..

كتب الخادم الرقم وطلبه ، بينما كان الكولونيل يستحم .

– ليست الكونتيسه في منزلها ، سيدي الكولونيل ، قال .. قد تجدها في هارفس .

– نجد كل شيء في هارفس .

– حقاً ، يا سيدي الكولونيل .. باستثناء السعادة ..

– اؤكد لك ، بل اراهنك ، بأنني على استعداد تام لأجد السعادة هناك اذا ما بحثت عنها .. اذ ان السعادة ، كما تعرف ، لا تتعدى كونها عيداً متنقلاً..

– لقد اقتنعت.. احضرت معي زجاجة كامباري وزجاجة جين غوردون .. هل تود ان تأخذ لك كأساً ؟

– انك لفتى شجاع .. قال الكولونيل .. أين وجدت هذا ؟ في البار ؟

– لا .. فتشت عنها اثناء غيابك .. كي لا تصرف مبالغ طائلة في البار .. فأسعاره باهظة وخيالية .

– اتفقنا .. انما يجب ألا تستعمل دراهمك في أشياء شبيهة .

– مجرد مغـــامرة صبيانية .. ولسنا على نفس المستوى من الغنى .. سعر الجبن الحقيقي ثلاثة الاف لير .. اما الكامباري فيقل عنه بكثير، ثمانمائة فقط .

– انك فتى ممتاز ، قال الكولونيل.. وطيور البط؟ هل ما زالت صالحة حتى الآن ؟

– لا تزال امرأتي تتحدث عنها .. لم نأكل بطاً برياً ابداً .. بالنسبة لارتفاع سعره .. انما دعانا بعض الاصدقاء إلى العشاء ذات يوم وقدموا لنا منه مـا فيه الكفاية .. كان لحماً شهياً يسيل في الفم . لطراوته ، كاللعاب .

– هذا رأيي انا كذلك .. ولا اظن ان هناك أشهى من هـذا اللحم الذي تتحدث عنه .

– ان الصيد كالرياضة تماماً ، ولا افهم منه شيئاً ، قال خادم الغرفة .. كنا فقراء جداً .

– ولكن هناك اناس كثيرون فقراء ، ويصطادون دائماً في فينيسي .

– أجل .. صحيح .. ولذلك نسمع طلقاتهـم طيلة الليل .. ولكننا كنا فقراء اكثر منهم واكثر مما تتصور انت ... معدمين ، يا سيدي الكولونيل .

– أظن انه بإمكاني تصور ذلك .

– ربما ، قال خادم الغرفة .. وضعت زوجتي الريش جانباً وكلفتني ان أشكرك بالنيابة عنها .

– قد يحالفنا الحظ ونوفق غداً ، بعد الظهر ، إلى صيد سمين .. طيور ضخمة ، خضراء الرؤوس ..قل لزوجتك انه لربما عدنا ومعنا الطيور السمينة ، كالخنزير المعلوف ..

– ما رأيك بالروس ، بكل صراحة ، يا سيدي الكولونيل ؟

– انهم أقوى أعداء لنا .. وبصفتي جندياً ، فأنا على استعداد اذن لأن أقاتل ضدهم .. ولكنني أحبهم جداً ولم يسبق لي ان شاهدت أناساً لطفاء وخفيفي الظل ، أمثالهم .

– لم يسعدني الحظ ويسمح لي بالتعرف اليهم .

– سيأتي ذلك اليوم يا صغيري ،سيأتي .. هذا إذا لم يوقفهم الوزير باكياردي عند نهر بياف والذي بات دون مـــاء الآن .. إذ تم ضخها لتوليد الطاقة الكهربائية .. وربما اختار الشريف باكياردي ، اختار ان تكون ساحة القتال عند تلك الضفاف .. ولكنني لا أعتقده سيقاتل لمدة طويلة .

– لا أعرف الشريف باكياردي .

– أنا أعرفه ، قال الكولونيل . أما الآن ، حاول الاتصال بهارفس واسأل إذا كانت الكونتيسا هناك . وإذا لم تجدها ، فاطلبها ثانية في قصرها .

تناول الكولونيل الكأس من يـــد ارنالدو . لم يكن ليحتاج إلى مزيد من الشراب .. وان هذا سيضر به .

ولكنه تناولها ،كرجل عازب لم يتردد ابداً عن الهجوم والاقدام ، ثم تطلع إلى القنال الكبير والمياه الصافيـة الرقراقة تنساب فيه .. وكأن الرسام ديفز اختار لها أجمل ما لديه من الوان زاهية .

– شكراً جزيلا ، على الكوكتيل ، قال الكولونيل .

كان ارنالدو يتحدث بالهاتف .. فهز رأسه وابتسم ..

يؤسفني انه أصيب بعينه واستبدلها بواحدة زجاجية ، قال الكولونيل يتحدث إلى نفسه .

وكان الآخرون شجعاناً ، قاتلوا بضراوة وحازوا على ثقتنا واعجابنـــا .. عرفناهم لطفاء ، مهذبين ..

ينعصر قلبي وأتخاذل أمام المشوهين ، قال يخاطب ذاتـــه ، وهو يشرب الكوكتيل الغير مرغوب ..

أجل ، قال صوت آخر في أعماقه ، ان الصالح .. انك تحبهم كثيراً ..

فضلت الا أحب انساناً ، قال الكولونيل مفكراً .. انمـا أحب التسلي والترويح عن النفس .

انما لا تستطيع إلى ذلك سبيلاً ما لم تحب يا أخي ، أجابه صوت من داخله..
اتفقنا .. انني أحب أكثر من أي انسان في هذه الحياة العاهرة ، قال الكولونيل في ذاته .. ثم عاد يردد بصوت عال ويسأل :

– ماذا حل بشأن المخابرة ، يا أرنالدو ؟

– لم يصل كابريني بعد يا سيدي ، قال الخادم .. ولا زلت على اتصال دائم بانتظار قدومه .

– طريقة تكلف غالياً .. قال الكولونيل .. اسأل من يكون هناك الآن، ولا تضيع الوقت سدى .. أود ان أعرف بالضبط من هناك ؟

همس ارنالدو شيئاً في الهاتف .. ثم غطاه بيده وعاد يقول :

– معي ايتور على الطرف الآخر .. ويقول ان البارون الفاريتو ليس هناك في الوقت الحاضر .. بل هناك الكونت أندريا ، ويعاني من حالة سكر شديد على حد أقوال ايتور نفسه .. وهذا ما يلزمك كي تتسلى وتمضي أوقاتاً ممتعة . يقول كذلك ان شلة من العوانس تتردد على المكان كل يوم بعد الظهر .. كما هناك أميرة يونانية ، يقول ايتور انك تعرفها جيداً .. وهناك مجموعة من القناصل الاميركيين ومساعديهم ، لم يبرحوا المكان منذ البارحة صباحاً .

– أخبره أن يتصل بنا ، حالما يبرح هؤلاء السكارى المكان .

تحدث ارنالدو قليلاً في الهاتف ، ثم عاد يتطلع إلى الكولونيل الذي كان يتأمل قبة كنيسة دوغانا .

– يقول ايتور بأنه سيحاول صرفهم ، ولكنه يتخوف ان يستاء سيبرياني..

– قل له أن يتركهم في أمان .. ليس لديهم ما يعملون بعد الظهر ، ولا داعي لأن يحرمهم من الترفيه عن النفس كبقية الناس .. انما لا أرغب برؤيتهم.. هذا كل شيء ..

– يقول ايتور انه سيستدعينا ثانية . كما طلب إلي ان أبلغك بأن الحالة ستنتهيا من ذاتها ..

– اشكره مسبقاً ، قال الكولونيل .

عاد الكولونيل يتطلع إلى القنال ويتأمل اليخت الفخم يسير فيه..واستغرق في تفكير عميق : لا يمكنني ان أنخرط مع هؤلاء القوم .. ادرك تصرفاتهم الحمقى تماماً .. اعرف انهم يتقاضون أجراً بخساً .. واعلم كذلك غلاء المعيشة وخاصة وسائل التدفئة ..

– لا أود ان استقبل أو أشاهد نائب القنصل الاول أو الثاني أو الثالث .. الخ .. يا ارنالدو .

– انما هناك اللطفاء بينهم ..

– أجل ، قال الكولونيل ، تعرفت إلى أحدهم عام ١٩١٨ .. كان الجميع يحبونه .. انتظر .. انني احاول أن اتذكر اسمه .

– انك تعود كثيراً إلى الماضي يا سيدي الكولونيل .

– وبطريقة تدعو إلى الضحك والأستهزاء ..

– وهل لا زلت تذكر جيداً تلك الحقبة ؟

– كل شيء ، قال الكولونيل .. أجل ، تذكرت الآن ... كانوا يسمونه كارول ..

– هذا يعني اشياء كثيرة ، بالنسبة ..

– لم تكن قد ولدت بعد .

– هل تظن أن ذلك ضروري كي تتذكر كل ما حدث في هذه المدينة ، يا سيدي الكولونيل ؟

– انك محق تماماً .. قل لي هل يحيط الناس علماً ، هنا ، بكل ما حدث ويحدث في هذه المدينة ؟

– ليس جميعاً ، انما القسم الاكبر منهم ،أجاب الخادم .. فالجوخ هو جوخ ، لذلك يتوجب على البعض ان يبدلها وعلى البعض الاخر أن يغسلها .. طبعاً ، لا أتحدث عن شراشف الفندق هنا .

– دفعت قسماً كبيراً من حياتي .. لأتعرف إلى كل هذا ..

– طبعاً .

– ثم هناك الكهنة .. اذ يستحيل على أي راهب ان يبوح بسر الاعتراف.. انما يتحدثون به فيما بينهم .

– ربما ...

– حتى محظياتهم .. يتحدثن به .

– من حقهن ..

– ثم الخدم ، قال ارنالدو .. يتحدث الناس إلى المائدة وبحضور الخدم .. وكأن هؤلاء صم لا يسمعون أو يفقهون شيئاً ... كان ينسحب البعض ، ولكن الأغلبية تبقى وتسترق السمع . طبعاً ، كما نتحدث نحن بعضنا إلى بعض.. ليس في فندق كهذا ، بالتأكيد .. ويمكنني ان أستمر طويلاً هكذا .

– معقول .

– دون ان تعد الحلاقين وصالونات الحلاقة النسائية ..

– عما يتحدثون في هذه الاثناء ، في ريالتو ؟

– ستعرف كل شيء في هارفس ، باستثناء ما يتعلق بك شخصياً ..

– ألأنني سأحصل على نصيبي من الحلوى ؟

– كل الناس يعرفون ما يحدث هناك ..

– على كل ، فهي قصة صعبة ومفيدة في آن واحد ..

– هناك الكثيرون لا يدركون ماذا يحدث في تورسيلو بالضبط .

– سأشنق نفسي لو استطعت ان افهم أنا شخصياً كل الذي تتحدث عنه .

– كم عمرك يا سيدي الكولونيل ؟

– احدى وخمسون سنة .. لماذا لم تسأل البواب ؟ ألم تشاهد البطاقة في سجل الاستعلامات ؟

– أردت ان اسمع ذلك منك شخصياً كي يتسنى لي ان أهنئك ..

– لا استطيع تقبل التهاني ..

– انك محبوب جداً في هذه المدينة يا سيدي الكولونيل .

– شكراً .. انه شرف كبير لي ..

في هذه الاثناء ، رن جرس الهاتف ..

– دعني أرى من يكون ، قال الكولونيل ، وسمع صوت ايتور يسأل من الطرف الثاني :

– من المتحدث ؟

– الكولونيل كانتويل ..

– اندحرت الجبهة يا سيدي ..

– من أين ذهبوا ؟

– باتجاه بياتزا ..

– حسناً .. ها أنا قادم في الحال .

– هل احجز لك طاولة ؟

– في الزاوية ، قال الكولونيل وأقفل الخط ..

– سأذهب إلى هارفس ..

– صيد موفق .

– سأذهب إلى صيد البط بعد ظهر الغد .. في المستنقعات .

– الطقس بارد جداً ..

– طبعاً ، قال الكولونيل .. وارتدى معطفه وقبعته ووقف أمام المرآة يسوي من هندامه .

– هل شاهدت إنساناً أقبح مني ؟

– أجل ، أجاب أرنالدو .. أنا .. وخاصة عندما أحلق ذقني في الصباح .

– علينا أن نحلق في الظلمة ، قال الكولونيل ، وخرج .

غادر الكولونيل كانتويل قاعة غريتي الكبرى، ووجد نفسه يسير في الشارع العريض تدفئه أشعة الشمس وقد قاربت على المغيب .

كانت الشمس لا تزال تضيء القسم الآخر من الجبل الكبير .. بينما ابتدأت اليخوت تأوي إلى المرفأ القريب على طول رصيف مدينة غريتي ، هرباً من الرياح الشمالية القارسة .

وبعد أن تأمل الكولونيل هذا المنظر الرائع ، سار إلى اليمين فوق الرصيف المعبّد الذي ينعطف بذات الاتجاه.. وفي زاوية الشارع ، وقف يتطلع إلى كنيسة سانتا ماريا دل جيفيلو .

يا له من بنـــاء جميل ، مرصوص ، ومع ذلك أراه قابلاً للتهدم والتطاير في الفضاء ، قال في نفسه .. لم ألاحظ أبداً ان مثل هذه الكنيسة القديمة يمكن أن تشبه عربة ب / ٤٧ .. كما يجب ألا يغيب عن بالنا أن نبحث عمن بناها ومتى .. كم أحب ، يا الهي ، أن أمضي حياتي أتجول في هـــذه المدينة .. أجل ، كل حيـــاتي .. دعني أضحك ملء قلبي .. دعني أموت من شدة الضحك .. هيا يا عزيزي ، قال في نفسه .. ليس هناك من حصان « رعديـــد » سبق له وربح السباق ..

وبينما كان يسير فوق بلاط الجسر ، سمع همسات متأتية من الجانب الآخر .. تطلع ، وإذا به يفاجأ بفتاتين جميلتين .. كانتا غاية في الرقة والقوام الرشيق ،

حاسرات الرأس ترتديان ثياباً قديمة .. ولكنها نظيفة وأنيقة .. تتحدثان بسرعة فيا بينهن . تسيران على مهل بينما يتلاعب الهواء البارد بشعرهن الأسود الناعم ويزيد وجنتاهما توردا .. يجب أن أنتقل إلى الشارع الآخر واتبع الطريق العام حتى أصل إلى هارفس .

بعد قليل ، كان يدفع باب هارفس ويدخل .. لقد ربح الجولة مرة ثانية .. وها هو يشعر وكأنه في منزله من جديد .

استقبله في البار رجل طويل القامة عريض المنكبين .. هش له وهو يعبر الباب . وما أن اصبح على خطوات منه حتى تقدم ناحيته وقال مرحباً :

ـ يا للكولونيل الوقح !

ـ ويا لأندريا القذر !

تعانقا بحرارة وشعر الكولونيل بسماكة الثياب التي يرتديها أندريا بينما كان يشد على ذراعه بقوة .. انه يرتديها منذ عشرين سنة ، وبدون مبالغة ..

ـ انك صاحب مزاج حلو اليوم يا أندريا ، قال الكولونيل .

كانت مجرد اكذوبة .. والاثنان يعرفان ذلك .

ـ أجل ، أجاب أندريا ، يعيد الكذبة إلى صديقه .. يجب أن أقول بأنني لم أشعر بارتياح عام يوماً ما ، بقدر ما أشعر به اليوم .. وأنت كذلك ، لا تقل عني طلعة وحلاوة مزاج ، يا سيدي الكولونيل .

ـ شكراً يا أندريا .. وسيرثنا القذرون في هذا العالم ، عندما نموت .

ـ فكرة ممتازة .. ويجب ألا أدع ما يرثه أي قذر منهم .. سوى ...

ـ ينقصك التفكير يا سيدي .. وستربح منهم شيئاً قد تحتاجه فيا بعد .

ـ سبعة وتسعون .. يا للرقم المشؤوم .. دائماً عبداً للحياة الحربية .

ـ ليس كثيراً ، ليس كثيراً ، قال الكولونيل .. جئت اصطاد في سان ريخو ..

ـ أعرف .. ولكنها ليست ساعة ملائمة للتسلية والمزاح بالاسبانية . إن الفاريتو يبحث عنك .. وكلفني ان أقول لك بأنه سيعود بعد قليل .

– حسناً .. وامرأتك الجميلة ؟ والأولاد ؟ أكلهم يتمتعون بصحة جيدة ؟

– على خير ما يرام .. وطلبوا إلي أن اذكرهم أمـامك .. انهم يحبونك ، جميعاً . انهم الآن في روما .. مدينتك الجميلة .. أو احداها .. ها هي جميلتك، وقد أتت .. أو لربما كانت واحدة منهن ..

كانت قامت أندريا تبلغ المترين ، ولذلك استطاع أن يشاهد الفتاة الحلوة تعبر الشارع وتدخل إلى البار ..

– سلها أن تأتي الينا وتشرب كأساً معنا ، قبل أن تنفرد بها إلى طاولتك ، في الزاوية .. انها جميلة جداً .. أليس كذلك ؟

– حتماً ..

دخلت إلى القاعة مشرقة الوجه تفيض شبابـــاً وجمالاً ، تتلاعب الريح بشعرها الطويل وتضفي عليها اناقة ورونقاً .. كانت شاحبة السحنة احياناً .. منظر يفطر القلوب .. حتى قلبك القاسي .. حتى ان شعرها الأسود استطال واستطال وكاد ان يغطي منكبيها ويصل إلى نصف ظهرها ..

– صباح الخير ، يا جميلتي ، قال الكولونيل ..

– اوه .. اوه .. صباح الخير ، أجابت .. أخشى ان اكون قد تأخرت .. وهذا ما يزعجني ويثير أعصابي .

كان صوتها ناعماً ومنخفضاً .. تتحدث الانجليزية بلكنة .

– وداعاً يا اندريا ، قالت . كيف حال اميلي والأولاد ؟

– على ما يرام ، دون شك .. ألم تطرحي عليّ هذا السؤال عند الظهر؟

– انني مرتبكة كما قلت . وتوردت وجنتاها .. اعصابي مرهقة فالرجاء ان تعذرني . وماذا تريدني ان أقول ؟ هل امضيت أمسية هادئة هنا ؟

– أجل .. قال اندريا .. بصحبة اعز الاصدقاء واشهر النقاد الادبيين ..

– الويسكي ممزوجاً بالماء .؟

– أظن انه يرغب ان يهزأ مني ، قالت تخاطب الكولونيل .. أما انت ، فلا . أليس كذلك ؟

– خذيه إلى تلك الطاولة المنعزلة في الزاوية وأخبريه بجميع قصصك .. يكفي انني شاهدتكما سوية ..

– لم اشاهدك انا بعد ما فيه الكفاية ، قال له الكولونيل .. ولكنها ، مع ذلك ، فكرة جيدة. .ما رأيك بكأس على انفراد إلى تلك الطاولة ، يا ريناتا ؟

– لا اطلب اكثر من هذا ، شرط الا تغضب ريناتا .

– لا ازعل ابداً .

– الا تشرب معنا شيئاً يا اندريا ؟

– لا ، قال اندريا، انصرفا إلى طاولتكما. .يسئمني جداً الا أراها مشغولة .

– إلى االقاء ياعزيزي . شكراً على الكأس التي شربناها سوية .

– إلى االلقاء يا ريكاردو ، قال اندريا .. ولم يضف شيئاً آخر .

ادار لهما ظهره العالي والجميل ، ثم تطلع في المرآة الموجودة وراء مقصف البار .. وهي تستعمل فقط لتدلل على درجة السكر الذي يبلغه الشارب كلما تطلع اليها وسألها .. نفر من هذا المنظر واقلع عنه ، متمتماً ..

– ايتور ، أضف هذه الحسابات إلى قائمتي ، أرجوك ..

ارتدى معطفه ونقد الخادم علاوة لا بأس بها .. وما ان وصلا إلى الطاولة حتى قالت ريناتا :

– هل تعتقد اننا جرحنا شعوره ؟

– لا . انه يعبدك .. ويحبني كثيراً .

– ان اندريا شخص لطيف جداً .. وانت كذلك ..

– غارسون ، نادى الكولونيل .. هل تريدين مارتيني جاف ، مثلي ؟

– أجل .. قالت .. هذا ما اوده ..

– ائتنا بكأس مارتيني ، قال الكولونيل .. ماركة مونتغمري .. خمسة عشر مقابل واحدٍ .

ابتسم الخادم وانصرف واستدار الكولونيل إلى ريناتا يقول :

– انك رائعة يا عزيزتي ، قال .. جميلة ، حلوة . اعبدك ، أحبك .

– كم عمرك الآن ؟
– تسعة عشر عاماً ، لماذا ؟
– ولا تدركين بعد ما معنى هذا ؟
– لا . ولماذا تريدني ان أعرفه ؟ هذا ما يقوله الاميركيون قبل ان يغادروا أي مكان ينزلون فيه .. يقول البعض ان هذا واجب ويجب تنفيذه ..
ولكنني أحبك كثيراً ، أنا كذلك ، ومهما كان للقول السابق من معنى .
– لنتسلى الآن ولا نفكر بشيء أبداً ..
– هذا ما أوده فعلا ..
– ها هو الخادم يعود والكؤوس في يده ، قال الكولونيل .. لا تقولي : تشن – تشن .
– لا انسى أبداً .. ومنذ المرة السابقة ..
– سنكتفي برفع الكؤوس ويجرع كل منا السائل على مهل ..
– هذا ما أريده ، حقاً .
كان المارتيني مثلجاً ومن النوع الذي طلبه الكولونيل بالذات.. كما انه أحس بالارتياح واللذة تجتاحان جسده وكذلك جسد رفيقته الشهية القابعة إلى جانبه وتكاد أن تلتصق به .
– ماذا فعلت طيلة أوقاتك ؟ قال الكولونيل يسألها ..
– لا شيء . أنتظر دائماً أن أسافر لاتمام دراستي .
– أين ؟
– الله وحده يعرف ..لا فرق . وحيث يمكنني ان اتعلم الانجليزية جيداً..
– أديري وجهك وارفعي ذقنك قليلا ، مرة واحدة فقط ، اكراماً لي ..
– اتسخر مني ؟
– لا . انني جاد ، فعلا ..
ادارت رأسها ورفعت ذقنها ، كما طلب اليها ،دون تعجرف أو دلع ، وأحس الكولونيل بان قلبه يكاد أن ينخلع من صدره ، وكأنه حيوان نائم ..

ـ آه منك .. ألا تحبين ان اقبلك بملكة السموات ..
ـ سيكون هذا ضرباً من السخرية .
ـ أجل ، أجاب .. انك محقة .. وها أنا أعود عن فكرتي ..
ـ ريشار ، قالت ، لا يمكنني أن أقوله ..
ـ قوليه .
ـ لا .

فكر الكولونيل في نفسه : سأجبرها على ان تقوله : ثم قالت بصوت عال:
ـ أرجوك .. لا تنظر إلي هكذا .
ـ عفواً ، قال الكولونيل .. لم أقصده أبداً .. انها قضية مهنية .
ـ وإذا كنا قد تزوجنا ، هل كنت لتتذرع دائماً بمثل هذه الهفوات المهنية؟
ـ لا .. أقسم لك .. لم يحصل شيء من هذا .. أبداً ..
ـ ولا مع أي شخص ؟
ـ من جنسك طبعاً ..
ـ لا أحب هذه الكلمة « من جنسك » .. انها مطابقة لكلمة « هفوة مهنية » .
ـ ازاول مهنتي فوق القنال الكبير وعبر تلك النافذة المشؤومة ..
ـ هناك ، قالت .. أرأيت كيف تقع في الفخ حالاً ؟
ـ تماماً ، أجابها .. أحبك وتستطيع المهنة أن تتركني الآن وتذهب في نزهة طويلة .
ـ دعني ألمس يدك .. لا بأس .. ضعها فوق الطاولة .
ـ شكراً ، أجاب الكولونيل .
ـ أرجوك ، لا ، قالت .. أود أن ألمسها .. لأنني أمضيت الاسبوع الفائت ، أحلم بها كل ليلة .. أحلم بها وكأنني أضمها إلى صدري .. حلمت انها يد السيد المسيح ..
ـ حلم مزعج .. ولا يمكنك أن تحلمي بأشياء كهذه .

– أعرف .. انما حلمت هكذا ..
– أمتأكدة من ذلك ؟
– لا أدرك مـاذا تنوي أن تقول .. وأرجوك ألا تسخر مني عندما أقص عليك أشياء حقيقية وواقعية .. حلمت بالضبط ما قلته لك ..
– وماذا كانت تعمل تلك اليد ؟
– لا شيء .. أو انها ليست الحقيقة بعينها .. فهي مجرد يد وحسب ..
– كهذه ، قال الكولونيل يسأل ثم تطلع إلى يده المشوهة .. وعاد يتذكر الحالات التي أسفرت عن مثل هذا التشويه القبيح ..
– ليست « كهذه » ، إنما هي نفسها بالذات .. هي اليد التي حلمت بها .. هل أستطيع لمس أصابعها دون أن تشعر بالألم ؟ سأنتبه جداً ..
– انها لا تؤلمني .. إنما يؤلمني ساقي .. ورأسي .. ولا أؤمن بنذر يسير من الحساسية في الأصابع .
– انك على خطأ يا ريشارد .. فهي تنبض بالحساسية دائماً ..
– لا أحب أن أنظر اليها دائماً .. أليس من الأفضل أن نتطرق إلى حديث آخر ؟
– طبعاً ، ولكنها ألا تعاودك في الحلم ؟
– لا . سأحلم بأشياء أخرى .
– أجل . . هذا ما أتخيله دون عناء .. أما أنا فسأحلم بها دائمـاً .. يكفي الآن .. لقد لمستها ويمكننا أن ننتقل إلى أشياء أخرى ..
– لننظر إلى الناس ونتحول عنهم ..
– فكرة رائعة .. قالت .. إنما دون شراسة . بطيبة قلب فقط .. قلبي وقلبك .. وهذا يكفي ..
– موافق ، قال الكولونيل . ثم نادى الخادم وطلب اليه أن يعد لهما كأسي مرتيني آخرين .
كانا يجلسـان إلى طاولة صغيرة في زاوية القاعـــة الفسيحة ، وجلست إلى

جانبوبا ، إلى طاولة أخرى ، سيدتان ... تتشح إحداهن بالحداد .. وهذا ما ذكر الكولونيل بدياتا مانزر التي قامت بدور المتدينة في فيلم « الاعجوبة ».. من اخراج ماكس رينهارت .. جميلة الوجه .

وفي الجهة المقابلة جلست امرأة أخرى عجوز، شعرها ابيض فاقع.. تعجب الكولونيل من منظرها وقال في نفسه : ان منظراً كهذا بات غير مسموح بـه حالياً .. كان وجهها جميلا ومشرقاً ، تتحدث إلى ثلاث نساء أخريات ، جلسن إلى طاولة ثالثة على بعد امتار من طاولتها .

ــ هل هن عوانس ؟ قال الكولونيل يسأل الفتاة الشابة .

ــ لا أعرف ، قالت الفتاة.. انهن يتمتعن بصحة جيدة، كما ترى، وأحوالهن المادية لا بأس بها ..

ــ انهن عوانس في رأيي..علهن اصدقاء فقط..وربما كن الاحتمالين سوية .. لا يهمني هذا في شيء .. انما هو مجرد سؤال ..

ــ انك لطيف جداً عندما تكون هادئاً .. ولين العريكة ..

ــ هل تظنين ان كلمة «جنتلمن» مشتقة من هناك؟ أم أنها تجمع كلمة «لطيف» إلى كلمة رجل .. وبمرور الزمن أصبحت : رجلا لطيفاً .

ــ لا أعرف تماماً ، قالت الفتاة الشابة .. وراحت تمر بيدها فوق يـد الكولونيل المشوهة بآثار الجراح البليغة .. واضافت : انما أحبك عندما تكون لطيفاً ..

ــ سأسعى دائماً إلى ذلك ، قال الكولونيل..ومن تكون تلك« المتوحشة » الجالسة وراء الطاولة الأخرى ؟

ــ لا يمكن ان تبقى لطيفاً مدة طويلة .. قالت الفتاة ..

ــ تعاليْ نسأل ايتور .

ــ تطلعا إلى الرجل الجالس إلى الطاولة الثالثة .. كبير الرأس مستديره ، يشبه البطيخة أو ثمرة اليقطين الابيض ، ينم وجهه الشاحب عن تخاذل ويأس في النفس .

ومن تراه يكون ذلك الشخص الغريب؟ يشبه شخصية اميركية كاريكاتورية عملت بها ساطورة اللحام واشبعتها جرداً .. ثم نقعت في الزيت حتى درجة الغليان .. لستُ بلطيف ابداً ، قال في نفسه .

اقترب ايتور منها ضاحكاً..هكذا هو دائماً مرح النكتة..سريع الخاطر..

– من هو ذاك الشخص الهام ؟

هز ايتور رأسه ولم يجب بشيء .

كان الرجل صغيراً ، أسمر البنية ، أسود الشعر ، املسه .. يتناسب ووجهه الغريب .. يبدو وكأنه نسي ان يبدل شعره المستعار ، قال الكولونيل في نفسه ، ويا للجمجمة المدهشة المتفاوتة القياسات !! يذكرني ببعض التلال حول فردان.. لا اظنه غوبلز .. وقد آلت به الأحوال إلى درجة كهذه ..

– الا ترغبين بسندويتش « سوسرتود » يا آنسة ريناتا ؟

– لا أظن ، قالت الفتاة الشابة .. على الرغم من انني اعبد باخ وان بإمكان سيبرياني أن يعد لنا هذا على طريقته الشهية ..

– لم أسيء إلى باخ عندما تحدثت ، قال الكولونيل ..

– أعرف ذلك تماماً ..

– باسم الله العظيم ، قال الكولونيل .. لم يكن باخ سوى مؤيداً لغوبلز ، مثلك تماماً ، أضاف يقول ثانية ..

– لا أجد ضرورة في أن تتحدث عني هكذا .. و ..

– متى تفهمي يا فتاتي؟ إذا تحدثت عنك وسخرت منك فهذا يعني انني أحبك.

– واضح ، قالت الفتاة .. الآن فهمت ما ترمي اليه .. انما يجب الا يكون المزاح قاسياً وعنيفاً ، وإن قصد به الاصلاح والتقويم .

– حسناً .. فهمت هذه المرة .. قال الكولونيل .. ثم تساءل :

– هل تفكرين بي دائماً ..؟

– طيلة الأسبوع ..

– لا .. قولي الحقيقة .

– كل الوقت .. أقول الحق .

– ... حسناً ..

– هل تظن ان كل الناس كذلك ؟

– لا أعرف ماذا أقول.. أجاب الكولونيل.. انه سؤال تصعب الاجابة عليه.

– آمل الا يكون هكذا بالنسبة لكل الناس .. ولا اتصوره ان يكون قد بلغ درجة كهذه .

– حسناً ، وها أنت الآن تدركينه تماماً ..

– أجل ، قالت الفتاة الشابة .. أعرفه الآن بالضبط .. دائماً وإلى الأبد .. أهكذا قالوا ولا يزالون ؟

– أعرف الآن ، وهذا يكفي ، قال الكولونيل .. ثم نادى ايتور يسأله :

– هل يعيش هذا الانسان الغامض في غربتي ؟

– لا . قال ايتور .. بل يقطن على مقربة من هنا .

– حسناً ، قال الكولونيل.. ويسرني جداً ان أراه عندما أشعر بالامتعاض والملل.. والمخلوقة الأخرى التي تجلس معه ، من تراها تكون؟ امرأته ؟امه؟ابنته؟

– انك تسألني كثيراً ، قال ايتور . وقلما يعيره أهالي البندقية اهتمامهم . لم يثر في نفوسهم الحب أو الكراهية ، كما لا يثير التردي أو الخوف وعدم الثقة به. إذا كنت بالفعل تصر على التعرف اليه والاستعلام عنه تفصيلياً .. فباستطاعتي ان اكلف سيبرياني ليطلعك على كل شيء.

– دعنا من ذلك ، أهكذا تقول ؟

– أجل .. قال الكولونيل .

– ليس امامنا متسع من الوقت ، يا ريشار .. أعد تقصي أخبار ذلك الرجل إضاعة للوقت .

– سأتأمله كلوحة لغويا ..والوجوه ، بحد ذاتها ، تعتبر لوحات فائقة التعبير .

– انظر إلى وجهي .. وسأنظر إلى وجهك .. أرجوك ، دعنا من ذلك الرجل .. لم يأت إلى هنا ليسيء إلى أحد .

– دعيني انظر إلى وجهك ، وحذار ان تنظري أنت إلى وجهي .
– لا ، قالت .. ليس ذلك عدلا .. عليّ أن اتذكره طيلة أسبوع ..
– وماذا أصنع أنا ؟ سألها الكولونيل .
عاد ايتور ، وفي جعبته المعلومات الكافية حول هوية الشخص الغريب :
– يقول زميل لي ، يعمل في فندق آخر ، يقول ان « صاحبنا » يدخل إلى باره ويشرب أربعة كؤوس من الويسكي دفعة واحدة وينصرف إلى الكتابة .. ويبقى يكتب حتى ساعة متأخرة من الليل .
– يجب أن يعطي أعمالاً ادبية رائعة ..
– طبعاً ، قال ايتور .. ولكنه لا يشبه طريقة دانتي ابداً .
– لم يكن دانتي سوى قذراً آخر ، قال الكولونيل .. اود ان اقول : الرجل وليس الكاتب .
– اتفقنا ، قال ايتور . ولا تجد من يؤيد فكرتك سوى الفلورنسيين الذين درسوا حياة الرجل وقيّموا اعماله الأدبية الخالدة ..
– لا أهتم بفلورنسا والفلورنسيين قاطبة .. قال الكولونيل ..
– انه عمل صعب ، قال ايتور.. أجروا التجارب الكثيرة ، وقلما نجحوا.. لماذا لا تحب فلورنسا ، يا سيدي الكولونيل ؟
– يصعب تفسيره .. ولكنه كان مستودعاً ، كما كانوا يدعونه .. في كتيبتي ، ويوم كنت شاباً آنذاك ..
– لقد فهمت . ولدي ما يبرر كرهي له .. هل تعرف مدينة صالحة ؟
– أجل ، أجاب الكولونيل ، هذه طرف ميلانو ، بولون ، وبرغام ..
– أعد سبريانو ذخيرة من الفودكا والويسكي .. استعداداً لتسلية الروس اذا ما حدث ونزلوا بيننا ..
– سيحضرون الفودكا معهم ، لأنهم لا يدفعون ضريبة في الجمرك .
– وهذا لا يمنع سبريانو من أخذ الاحتياطات اللازمة .
– اظنه الوحيد اذن ، قال الكولونيل . قـــل له لا يقبل شيكات مجيرة

ومسحوبة على بنك أوديسا والف شكر للمعلومات القيمة عن « الرجل الغريب ».. سوف لا ازعجك بعد كل هذا .

تركها ايتور وذهب يلبي طلبات الزبائن، وهنا التفتت الفتاة إلى الكولونيل، تمعن النظر في نظراته الفولاذية وتضع يديها فوق يده المشوهة ، ثم قالت :

ــ كنت لطيفاً جداً ..

ــ وانت جميلة جداً .. واحبك .

ــ شيء يلذ سماعه ..

ــ ماذا سنفعل ونعد للعشاء ؟

ــ يتوجب علي ان اتصل هاتفياً بمنزلي وأسألهم اذا ما كان يسمح لي بالخروج هذا المساء .

ــ لماذا تبدلت ملامحك في الحال وعلتك سحابة حزن ؟

ــ أأبدو حزينة الآن ؟

ــ أجل .

ــ ولكن لا .. اقسم لك .. انني سعيدة اكثر من أي وقت مضى .. أقول لك الحق .. أرجوك .. ان تصدقني يا ريشار .. ولكن ماذا كنت لتقول لو انك كنت فتاة في التاسعة عشرة من عمرها وتهيم برجل عجوز ، تجاوز الخمسين من عمره وهو على عتبة الموت المحتم ؟

ــ انك تبالغين في هذا التصور ، قال الكولونيل . ولكنك جميلة عندما تقصين هذا .

ــ لا أبكي أبداً ، قالت الفتاة الشابة .. أبداً .. لقد رسمت لنفسي قاعدة وسوف لا أحيدَ عنها .. انما بامكاني ان أبكي بمرارة الآن ..

ــ لا تبكي ، قال الكولونيل .. انني لطيف الآن ، ولا تهتمي بالباقي ..

ــ قل لي ثانية انك تحبني ..

ــ أحبك ، وأحبك ، واحبك .

ــ وستعمل ما في وسعك كي لا تموت ؟

ـ أجل ..
ـ ماذا قال الطبيب ؟
ـ هيك وهيك ..
ـ ليس من خطر ؟
ـ لا ، قال كاذباً ..
ـ لنشرب كأساً آخر ، قالت الفتاة .. هل تعلم انني لم اتذوق المارتيني قبل ان اتعرف اليك ؟
ـ أعلم .. ولكنك تعرفين كيف تتخلصين من اية ورطة تقعين فيها .
ـ الا يتوجب عليك ان تأخذ الدواء الان ؟
ـ بلى ، قال الكولونيل .. هذا ما يجب ان افعله الآن ..
ـ هل يمكنني تقديمه لك ؟
ـ أجل ، أجابها ، بأمكانك أن تقومي بهذا العمل .

استمرا جالسين إلى طاولتهما في الزاوية .. كان البعض يخرج والبعض الآخر يدخل ، اما هما فلم يعيرا اهتماماً لكل ما يدور حولهما .. أصيب الكولونيل بدوار خفيف ، سببته قوة الدواء وفعاليته .. وانتظر برهة حتى يستعيد قدرته على الكلام وصفاء سريرته .. كان يصاب دائماً بهذا الدوار . وكلما شرب من الدواء القوي ..

شاهد الفتاة تتأمله وتبتسم له .. ابتسامة هزيلة عمرها ما فوق الخمسين سنة ، عمره هو بالذات .. تشبه تلك الابتسامة التي عهدتها وتعرفت اليها فوق شفتي أخي .. وليكن ، فقد اعتبر رام بارع ، يفوقني جداً ..

ـ اسمعي يا فتاتي ، قال ، لا تحزني من أجلي ..
ـ ولكنني لست حزينة ابداً .. أحبك فقط .
ـ أليست مهنة هذه ؟

توقف برهة وعاد يضيف بالاسبانية .

ـ اتعتبرين حبك لي مهنة ؟
ـ أجل .. وليس عندي مهنة أخرى ..

- ألا تقرضين الشعر ؟

- لم تكن سوى خواطر فتاة صغيرة .. كاللوحات التي كنت « أرسمها » وانا لا أزال في سن العاشرة.. فكل انسان يتميز بشيء وهو لا يزال حديث السن .

متى يصبح الانسان عجوزاً في هذا البلد ؟ قال الكولونيل في نفسه .. لا يهرم الناس في هذا البلد .. انما ينضجون بسرعة فائقة .. حتى انا بالذات ، لم أنضج بعد انما هرمت ولم ابلغ السادسة والعشرين من عمري ..

- كيف حالك ؟ قال الكولونيل مستفسراً ..

- ممتازة ، ولله الحمد .. لا تستقبل أحداً .. ولا تشاهد أحداً .. بل تراها غارقة في حزنها الأبدي .

- اتظنينا نسيء اليها لو رزقنا بطفل صغير ؟

- لا أعرف ابداً .. انها ذكية جداً ، كما تعرف .. انما يتحتم علي أن أتزوج انساناً ما ، هكذا يبدو لي .. ولا يعني هذا شيئاً كثيراً بالنسبة لي ..

- بامكاننا ان نتزوج ..

- لا . قالت .. فكرت جلياً في الموضوع .. وأظنه واجباً .. انه قرار .. كالامتناع عن البكاء مثلاً ..

- علك مخطئة في قراراتك ..

- أظنك تبالغ .. ويدهشني انك قمت بهذه الأخطاء الكثيرة ..

- ليس كثيراً ، قال الكولونيل .. هذا كاف ، ثلاث مرات وحسب ، فما رأيك ؟

- أود ان تخبرني عنها تفصيلياً .

- ستسأمين ، قال الكولونيل .. أتصبب أنا عرقاً عندما اتذكر فقط .ماذا يفيد قولي شخصاً لا دخل له في القضية قاطبة ؟

- الست أنا في ضمنها ؟

ـ أجل . انك فيها .. يا حبي الغالي والحقيقي . يا آخر وأصدق حب لدي ..

ـ هل هي حديثة أم قديمة هذه القرارات يا ريشار ؟

ـ قديمة العهد .. بعضها حديث .

ـ الا تريد ان تخبرني بها ؟ كم وددت ان اشاطرك التفكير في المهنة القاسية والصعبة .

ـ لتذهب كلها إلى الشيطان ، قال الكولونيل .. انها من شؤون الماضي .. ولكنها من الحسابات التي يصعب تسديدها .

ـ هل تستطيع ان تخبرني وتشرح لي ؟

ـ لا ، قال الكولونيل ..

ولعل هذا ما سوى الموضوع بينهما .

ـ لنرفه عن النفس الآن ..

ـ لنرفه عن النفس ، قال الكولونيل .. ولندفع فقط كل ما هو ضروري لاستمرار حياتنا وحسب ..

ـ عل هناك طرق أخرى ..

ـ أظن . قال الكولونيل .. أديري رأسك إلى الناحية الأخرى ، يا جميلتي .

ـ كيف هذا ؟

ـ هكذا ، قال الكولونيل .. هكذا تماماً ..

نحن قد وصلنا إلى الجولة الأخيرة ومـــا زلت لا أدرك أين نحن بالذات .. أحببت ثلاث نساء وخسرتهن دفعة واحدة .

يمكننا ان نخسر المرأة كما نخسر جنود الفيلق . قد تكون الأحكام مجحفة والشروط قاسية ، وطالما رافقتها ، جميعها ، أعمال العنف والتسلط الأثيم .

خسرت في حياتي ثلاثة فيالق وثلاث نساء .. وها هي المرأة الرابعة تمثل أمامي .. تفوقهن جمالاً واناقة .. انما الى اين سيقودنا هذا يا إلهي ؟

قل لي يا سيدي الجنرال ، وعلى حدة ، ما زلنا الآن نناقش الحالة بوضوح وصراحة دون أن نسيء إلى أي كان ، كأن نتساءل مثلا ونبغي إيضاحاً صريحاً. أين مشاتك أيها الجنرال ؟

هذا ما كنت أفكر به فعلا ، قال الكولونيل في نفسه .. لا يعرف القائد العام أين فرقة المشاة والفرقة نفسها لا تعرف موضعها ولا في أي اتجاه تسير .. أو ما هي المهمة الملقاة على عاتقها .. فتجبر أخيراً على الهروب والتملص من المسؤولية .

– رائع ، قال .. رائع يا أغلى من حياتي .. ازعجتك كثيراً .. وأرجوك أن تسامحيني على كل هفوة ..

– إنك لا تزعجني أبداً .. أحبك ، وأرغب فقط أن نمضي في سهرة مرحة .. وممتعة .

– هذا ما أود تأمينه لك ، قال الكولونيل ..

– يمكننا أن نسر ببعضنا .. ومن هذه المدينة عرفتك فرحاً دائماً ..

– صحيح ، قال الكولونيل مؤيداً .. هذا ما حدث لي بالفعل ..

– ألا تعتقد انه بالامكان أن نصل اليها يوماً ما ؟

– بالتأكيد . طبعاً .. لِمَ لا ؟

– هل ترى الفتى هناك ، صاحب الشعر الجعد .. هل تراه يضع شعراً مستعاراً ليبدو أكثر اناقة وجمالاً ؟

– رأيته ، قال الكولونيل ..

– انه رسام ممتاز .. إنما أسنانه الأمامية خاطئة .. تعرّض إلى هجوم صاعق في مقهى الليدو .. فنال منه بعض الأشقياء .. وحطموا أسنانه الأمامية .. في ليلة جميلة صاخبة مقمرة ..

– ما هو عمرك ؟

– سأتم التاسعة عشرة بعد أيام ..

– من أخبرك هذه القصة ؟

– ربان أحد اليخوت .. نعم . ان ذلك الفتى فنان ماهر ، ومعروف جداً .. يحسن التعبير عن الفن المعاصر .. وقلما وفقت إلى رسامين عباقرة أمثاله في العصر الحاضر .. إنما يؤسفني ما حدث لأسنانه وهو لا يزال في مقتبل العمر !

– انني أحبك ، وأنت حبي الكبير ، قال الكولونيل .

– واني كذلك أحبك وأنت حبي الكبير ، قالت .. ومهما أراد ذلك أن يعبر في لغتكم الاميركية . أحبك بالايطالية ، ضد كل أهدافي .. وآمالي ..

– يجب أن تتريثي ولا تطلبي كل شيء مرة واحدة ، قال الكولونيل .. إذ قد نتعرض لخسارة القليل إذا ما طلبنا الكثير .

– صحيح ، قالت، إنما أود أن يكون ذلك سبباً لكل ما أنوي أن أقوم به هذا المساء .

سكت الاثنان فترة .. ثم قالت الفتاة .

– أصبح ذلك الفتى شاباً الآن .. ويخرج برفقة مجموعة كبيرة من النساء . يخفي ما لديه من مزايا .. سبق له ورسمني ذات يوم .. سأعطيكه ، يوماً ما ، إذا شئت ..

– شكراً ، قال الكولونيل ، وسأسر به جداً ..

– إنه رسم إيحائي رائع .. أظهر فيه وكأنني خارجة من البحر .. عروس بحر .. شعر طويل مسترسل وقد لا تعرفني للوهلة الأولى .. كما تحب أن تفكر بي تماماً ..

– اتخيلك خارجة من البحر لتوك ..

– طبعاً .. ولكنه ليس بالمنظر البديع .. انما يسرك هذا وستسر أكثر اذا ما احتفظت بالرسم في مخيلتك .

– الا تعارض والدتك الكريمة ؟

– لا تعير مثل هذه الاشياء أدنى اهتمام .. بل أظنها ستسر لخلاصها منه .. اذ لدينا لوحات عالمية ، تفوقه فنياً ورفعة .

– أحبكما انتما الاثنين .. انت وأمك ..

– يجب ان أقول لها هذا ، قالت الفتاة ..

– هل تعتقدين بأن ذلك السكير ، هو كاتب ، حقاً ..

– أجل .. طالما أكد لنا ايتور نفسه .. يهوى المزاح ولا يكذب أبداً .. ماذا تعني بكلمة « قذر » يا ريشار .. هل تفضلت وشرحتها لي ..

– كلمة بذيئة .. وتعني كل انسان لا يقوم بمهمة كما يجب.. بل يمضي اوقاته يتبجل ويفاخر بنفسه ..

– يجب ان اتعلم المعنى الصحيح لهذه الكلمة ..

– لا تستعمليها أبداً ، قال الكولونيل ..

– متى تعطيني رسمك ؟

– هذا المساء ، اذا شئت.. سأطلب اليهم انيلفوه ويأتوك به .. اين ستعلقه؟

– في غرفتي ، في الثكنة .

– ولا تظن ان بعضهم سيأتي ليتأمله ويقول عني كلاماً سيئاً ؟

– لا .. اؤكد لك ذلك .. ثم أقول لهم ان هذا رسم ابنتي ..

– ألم ترزق بفتاة أبداً ؟

– لا .. انما أردت ذلك ولا زلت أفكر به دائماً ..

– يمكنني ان أكون ابنتك .. أنا أو اية فتاة أخرى ، تختارها ..

– سيكون هذا الشيء من الطهارة ..

– لا أظن ان ذلك سيكون شيئاً مستحيلاً وصعباً .. في مدينة كهذه ..

– اسمعي يا ابنتي ..

– رائع ، قالت .. ممتاز ، سرني ذلك جداً ..

– تماماً .. قال الكولونيل .. بصوت منخفض تخنقه العبرات ..

– أرأيت الآن لماذا أحبك ، كما لقد فكرت دائماً ألا أحبك تفادياً لمثل هذه المواقف المؤثرة ..

– قولي لي يا ابنتي .. اين تريدين ان نتعشى ؟

– حيث تشاء ..

– ما رأيك بغريتي ؟.

– طبعاً لا بأس ..

– اتصلي هاتفياً بمنزلك لتحصلي على المأذونية .

– لا .. قررت الا اطلبها .. كي نتفادى ان يأتينا بعضهم ويعكر علينا صفو جونا ..

– أصحيح أنك تفضلين غريتي ؟

– أجل .. لأنه مطعم رائع .. وبإمكانك ان تأكل فيه ما تشاء ..

– منذ متى أنت هكذا ؟

– كنته دائماً .. وسخرت من اقوال الناس .. دائماً .. دائماً .. مع انني لم أقدم على أي عمل مشين ، يفسح لهم المجال للتحدث .

– وددت لو تزوجنا ورزقنا خمسة أطفال .. قال الكولونيل .

– وانا كذلك ، قالت الفتاة .. ثم نرسلهم إلى أركان العالم الخمسة ..

– هل تظنين أن للعالم خمسة اركان ؟

– لا اعرف ، قالت .. سنؤمن بهذا عندما نراه ..أرأيت .. ماذا لو عدنا نحن إلى الترويح عن النفس مرة ثانية..

– أجل ، يا فتاتي ، قال الكولونيل ..

– قله مرة ثانية .. وبنفس الطريقة ..

– أجل ، يا فتاتي ..

– أوه ، قالت الفتاة .. هل يتوجب على الناس ان يبدوا معقدين هكذا ؟ هل يمكنني ان آخذ يدك واضغط عليها ؟ ارجوك ..

– انها رعب مقدس واكره التطلع اليها .
– ماذا تعرف عن يدك ؟
– وجهة نظر ، قال ، أقول ، شخصياً ، انك على خطأ .. يا فتاتي .
– معقول ..
– وددت ان اكون القمر أيضاً ..
– انك قمر ، قال الكولونيل .. سلي عن أي كوكب شئت ، وباستطاعتي ان ادلك إلى مكانه في السماء ..
– سأكون القمر .. ولديها ، كما أظن ، ما يكفيها من المشاكل ..
– اجل .. وفي اوقات ثابتة .. لا استطيع تحمله مطلقاً عندما يلمع فوق القنال ..
– يبدو حزيناً ، احياناً .
– هل ترغبين بكأس مارتيني آخر ؟ ماركة مونتغمري ؟
لم يكن ليعير اهتمامه الا لشيء واحد .. الا لهذا الوجه الجميل الماثل امامه .. وجه الفتاة الحلوة .. عادة كريهة .. وستكلفني غالياً يوماً ما ..
– أجل ، قال .. ولم لا ؟
– ان هذا يسرني جداً .. اشعر بأنني في وضع ممتاز .. قالت الفتاة .
– ويترك اثره في نفسي .. خاصة اذا ما اعده سيبرياني .
– ان سيبرياني ذكي جداً ..
– اكثر من ذلك ..
– سيملك البندقية يوماً ما .
– ليس كلها ، قال الكولونيل . ما عداك انت ..
– لا .. قالت .. لا هو ولا أي شخص آخر .. انت وحدك فقط .. اذا أردتني ..
– اريدك جداً ، يا صغيرتي ، انما لا استطيع أن امتلكك .

– اعرف ، قالت الفتاة .. ومن أجل هذا أزداد حباً بك .

– لننادي ايتور ونسأله ان يتصل بمنزلك هاتفياً .. يمكنك ان تتحدثي عن اللوحة ! ..

– انك على حق .. اذا أردت الرسم هذا المساء فسأطلب إلى مدير الفندق أن يلفه ويبعث به اليك .. سأتحدث إلى والدتي وأقول لها أين سنتعشى ، وإذا أردت ، سأستأذنها ..

– لا ، قال الكولونيل .. ايتور . آتنا بكأسين آخرين واطلب رقم منزل الفتاة .. أودك أن تقوم بهذا سريعاً ..

– أجل ، يا سيدي الكولونيل ..

– لنعد إلى الترفيه الآن ، يا فتاتي ..

– ما عليك سوى أن تبدأ الحديث .

كانا يسيران الآن ، جنباً إلى جنب ، في الشارع المؤدي إلى غرفتي .. تصفر الرياح في ظهرهما وتتلاعب بشعر الفتاة لتسدله فوق وجهها .. بينما تفرق شعر الكولونيل الأبيض وترخي خصلاته فوق رقبته وجبينه . سارا برهة،.. وفجأة توقفت الفتاة ، تتأمل واجهة إحدى محلات الصاغة ..

كانت هناك تحف فنية وجواهر غالية الثمن براقة ، تلمع كالشمس. سرّهما المنظر فوقفا يمعنان النظر به .

ـ هل هناك فعلاً ما تختارينه ؟ إذ بالامكان أن أمرّ وأشتريه لك غداً وسيقرضني سيبرياني الدراهم اللازمة ..

ـ لا ، قالت . لا أود شيئاً .. إنما .. لاحظت انك لا تقدم لي الهدايا مطلقاً ..

ـ انك أغنى مني .. أقدم لك بعض الأشياء الصغيرة من (بي . اكس).. كما أقدم لك الطعام والشراب ..

ـ وتقودني إلى اليخوت أو إلى زاوية حالمة في بار مظلم ..

ـ لم أفكر أبداً أنك ترغبين بأن تقدّم لكِ الحجارة الثمينة ..

ـ ليس هذا .. إنما أعني الشعور الذي تتركه الهدية في نفس الشخص .. فيحملها دائماً ويفكر بمن أهداها ..

– لقد زدتيني ثقافة .. ولا أظن ان رصيدي يكفي لشراء حجر واحد من هذه الجواهر القيمة ..

– ولكنك لا تفهمني بعد.. ورثتُ مبلغاً لا بأس به من جدتي .. ولا زالت والدتي تحتفظ به .. فهل يحسن أن أتحلى بكل هذه الجواهر ؟ ولا سيما إذا كانت متأتية من الأموات ؟

– لم أفكر بهذا مطلقاً ..

– يمكنني أن أعطيكها .. إذا كنت حقاً ترغب باقتناء الحجارة الثمينة .. إنها بالنسبة لي .. كثوب نرتديه وقد وصل من باريس .. ألا توافقني ؟

– لا .

– .. والسيف ؟ هل تحب أن تحمله ؟

– لا ..

– انك لست من ذلك النوع من الجنود الذي أعرفه .. وكذلك أنا ، اختلف تماماً عن أبناء جنسي .. أعطني ، يوماً ما ، شيئاً جميلاً .. وستراني أحتفظ به وأحمله معي إلى الأبد .. ويزيدني سروراً وبهجة كلما تطلعت اليه وعرفت انه مهدى منك ..

– فهمت ، أجاب الكولونيل .. وهذا ما سأفعله يوماً ما .

– انك تتعلم جيداً وبسرعة ما تجهله ، قالت الفتاة .. حتى قراراتك ، فهي سريعة وجيدة .. أودك أن تقتني هذه المجوهرات وتحتفظ بها لتزيدك حظاً وسعادة .. تتلمسها كلما فكرت بي .

– لا أضع يدي في جيبي عندما أشتغل .. إنما أشير إلى الاحداث بإشارة من يدي أو من قلمي الرصاصي .

– يمكنك أن تدس يدك ، من وقت لآخر ، في جيبك وتتلمسها برهة واحدة .

– لا أشعر بأنني وحيد عندما أعمل .. لدي ما يشغلني ولا يدعني أفكر بالوحدة ..

– ولكنك لا تعمل في هذه اللحظة ..

– لا . أتهيأ فقط وبقدر المستطاع ..

– سأعطيكها مهما كلف الأمر .. وأنا اكيـدة بأن والدتي ستفهم تصرفي هذا .. إنها لا تراقب أعمالي .. وان خادمة غرفتي سوف لا تخبرها بشيء ..

– لا اظنني سأقبلها ..

– أجل .. أرجوك ، وإكراماً لي ..

– لست أكيداً أن هذا عملاً مشرفاً .

– اعتبر هذا كظنك بي بأنني لست عذراء ..

– حسناً ، قال الكولونيل . سآخذها ..

– والآن ، قل لي : شكراً ، قالت الفتـــاة .. ووضعت الجواهر في جيبه بخفة اللص الحاذق ..

– كنت أحملها معي ، طيلة الأسبوع ، لأنني قررت أن أقدمها لك في أول لقاء لنا .. ان قراري حاسم ولا أتراجع عنه أبداً ..

– ظننتك فكرت بيدي فقط ؟

– لا تكن شقياً ، يا ريشار . إياك والحماقة .

.. خاصة أنت ، فهذا عمل أعتبره مشيناً بالنسبة لك .. انك ستلمسها بيدك ! أليس كذلك ؟ أو لعلك لم تفكر به قط ..

– لا . ما الذي يدفعك إلى التفكير بهذه الواجهة ؟

– ذلك العبد الأسود .. صاحب الرأس الابنوسي والملفوف بالشرائــــط الحمراء .. سأحمله كمقد .. وهذا ما كان يفعله الكثيرات في هذه المدينة .

– ستحملينه غداً صباحاً ..

– لا . ستقدمه لي اثناء الغداء ، وقبل ذهابك ..

– مفهوم ، أجاب الكولونيل..

– والآن .. هيا بنا ، وإلا تأخرنا عن موعد العشاء .

سارا من جديد ، متشابكي الأيدي وما ان عبرا الجسر حتى قرصتها الرياح الشمالية الباردة .

تذمر الكولونيل وتمتم :

– إلى جهنم وبئس المصير .

– ريشار ، قالت الفتاة ، ضع يدك في جيبك وتلمس الجواهر لتسرني . نفذ الكولونيل « الامر » المعطى له في الحال ..

– انه احساس رائع ، قال .

خلصا من الريح والبرد ودخلا من المدخل الرئيسي لقاعـة فندق غريتي .. حيث الدفء والانوار المتلألئة .

– مساء الخير يا كونتيسا ، قال البواب .. مساء الخير سيدي الكولونيل . أظن ان الطقس بارد في الخارج .

– أجل ، أجاب الكولونيل ، ولم يضف أو يتلفظ بالكلام البذيء كما هي عادته اذا ما تحدث عن الطقس أو سئل عنه .

سارا في الممر الضيق المؤدي إلى المصعد دون ان يلتفتا إلى البار ومن حوله، شاهدهما المايسترو فخرج للقائهما وتحيتهما .. تقدم منهما منحنياً وقال :

– مساء الخير . سيدتي الكونتيسا ، مساء الخير يا سيدي الكولونيل .

– المايسترو الكبير . قال الكولونيل..

ابتسم المايسترو واستمر منحنياً ، ثم أضاف :

– ستتعشى هنا ، في طرف البار الآخر .. اذ لا يؤم المكان اناس كثيرون في فصل الشتاء .. حجزت لكما طاولة هنا ، بدلاً عن قاعة الطعام ، وسأقـدم لكما اللاغوستا الشهية .. وكبداية فقط .

– هل هي حقاً طازجة ؟

– شاهدتها هذا الصباح عندما عادوا بها من السوق .. كانت لا تزال حية ،

خضراء داكنة .. يبعث منظرها الاشمئزاز في النفوس ، كالعادة .

– هل تحبين اللاغوستا ، يا ابنتي ؟

كان الكولونيل واثقاً من كلمته الأخيرة.. وكذلك المايسترو والفتاة الشابة أيضاً .. إنما تعني لكل منهم شيئاً يختلف عما تعنيه بالنسبة للآخر .

– وضعتها على حدة ، مخافة أن يأتينا ثري حرب ويلتهمها .. أظنهم يقامرون الآن في الليدو ..

– أحب هذا الطبق الشهي ، قالت الفتاة .. وخاصة إذا ما كان بارداً وممزوجاً بالمايونيز . الجيد منها طبعاً .. ألا تظنه يكلف كثيراً ؟ عادت تسأل الكولونيل بصوت مرتبك .

– آه يا فتاتي..

– تلمس الجواهر في جيبك ، أجابت مبتسمة ..

– سأحاول ألا أدعه يكلف كثيراً .. والا دفعت أنا ثمنه من مالي الخاص.. يكلفني أسبوع عمل .. فقط ، قال المايسترو .

– ادفعه بالتقسيط ، قال الكولونيل مازحاً .

– ضع يدك في جيبك وتشعر بأنك غني ، قالت الفتاة .

ظن المايسترو ان في كلامها هزاراً مستحباً .. ولذلك انحنى محيياً مرة ثانية وتركها على انفراد .. كان السعيد عندما يفكر باحترام في هذه الفتاة الجميلة ويعجب بها جداً .. كما شعر بنفس السعادة لعودة الكولونيل إلى هذا المكان .

– انني غني ، قال الكولونيل . أما إذا عدت إلى الحديث عنها – أي الجواهر – مرة ثانية ، أرى نفسي مضطراً إلى اعادتها اليك . وأمام جميع الناس .

كان يمازحها بقساوة لا تقوى أعصابها على تحملها .

– سوف لا تفعل هذا ابداً .. لأنك ابتدأت تحبها وتميل اليها .

– انني انسان يضحي بحبه ويرميه من رؤوس الجبال .. ينصرف عنه وقبل ان يراه ينفجر في الوادي السحيق .. هكذا كان ، فحذار من العودة اليها مرة أخرى ..

– ليس هذا صحيحاً ،لا ، قالت الفتاة..سوف لا ترميني من فوق المضاب..

– طبعاً لا ، أجاب الكولونيل مؤيداً .. وأرجو المعذرة عن هذا التصرف الأحمق الذي صدر عني .

– لم يكن عنيفاً حتى الدرجة التي تظن .. كما انني لم أصدق كلمة واحدة ، قالت الفتاة ..

.. ماذا تريدني ان أفعل الآن؟ هل أذهب إلى الشقة المخصصة إلى النساء والقي نظرة فاحصة وشاملة على هندامي ؟ أم أصعد إلى غرفتك في الحال ؟

– ماذا تفضلين أنت ؟

– أن أصعد إلى الغرفة ، طبعاً ، لأتعرف إلى طريقة معيشتك وكيف تتدبر أمرك فوق .

– والفندق ؟

– كل شيء يتم في البندقية .. ولكنهم يعرفون عائلتي جيداً .. كما يدركون انني فتاة عاقلة رصينة .. ثم انهم يعرفوننا منذ زمن بعيد .. ولا يزال لدينا رصيد من « المال » يمكن ان ننفق منه .

– حسناً ، قال الكولونيل .. نصعد في السلم ام في المصعد ؟

– المصعد ، قالت .. وتبين له ان صوتها تغير في الحال .. هل تنادي الخادم أم نتدبر نحن امره لوحدنا ؟

– لوحدنا ، قال الكولونيل .. فالمصاعد تعرفني منذ زمن طويل .

دخلا إلى المصعد وصعدا سوية ..

لم يكن الممشى جيداً وحسب ، بل كان مثيراً ورائعاً ..

ــ هنا ، قال الكولونيل ودفع باب الغرفة يجر الفتاة من يدها ، ما رأيك بهذه المناظر الجميلة حول القنال .. انظري ! يا لقدرة الخالق العظيم .

ــ رائعة فعلاً .. انما البرد قارس والنوافذ مشرعة ..

ــ سأقفلها في الحال ..

ــ أرجوك .. دعها هكذا اذا كنت تفضل هذه المناظر وتحبها ! ..

قبلها الكولونيل بشغف واحس بجسدها الريان يكاد ان يلتصق بجسده ويذوب فيه .. قارن بين الجسدين وللحال طرد فكرة التفاوت بين الاعمار وعاد يقبلها ويضغط عليها ..

تعانقا طويلاً وبالقرب من النافذة المفتوحـــة ترطب برودة الرياح حرارة جسديهما وتخفف من حدتها .

ــ اوه .. قالت ، اوه ..

.. لسنا مدينين لأحد .. ولو بقرش واحد .

ــ هل تودين ان تتزوجيني ونرزق بخمسة اطفال ؟

ــ أجل ، أجل ..

ــ ان السؤال هو : هل تودين ؟

ــ طبعاً .

ــ قبلني مرة ثانية وضمني اليـــك .. دع ازرار معطفك تلتصق بلحمي وتدميه . تعانقا ، من جديد ، وهما لا يزالان واقفين ..

ــ سأخيب آمالك يا ريشار .. اذا لم يخصني الله الا بهذا .

قالت هذا وكأنه شيء طبيعي بالنسبة للكولونيل.. كان كلامها كأمر صادر عن قائد الى جميع الفرق المحاربة ولا يقبل الطعن ..

– هل انت اكيدة ؟

– أجل .

– فتاتي .. يا ابنتي المسكينة .

وهنا تبين لها ان ليس في كلمته أي غموض وانها فعلاً ابنته ، بجدارة ، وبداله يفيض شوقاً اليها ورأفة بها .

– لا هم في ذلك ، قال .. سرحي شعرك جيداً ورتبي هندامك .. سنذهب في الحال إلى تناول طعام العشاء ..

– قل مرة ثانية انك تحبني وضمني إلىصدرك بقوة . دع ازرارك تلامس جسدي

– أحبك ، قال الكولونيل برفعة واثارة ..

ثم همس في اذنها كلاماً وبطريقة لطيفة لا تضاهيها لطافة ..

– لا احب سواك يا أغلى واعز حب لدي ..

– حسناً ، قالت .. ثم قبلته بشوق واحس بأسنانها تقضم شفتيه وتدميها . هذا ما احبه بالفعل ، قال في نفسه .

– سأصف شعري الآن وأضع احمر الشفاه.. عندئذ تستطيع ان تنظر الي.

– هل تودين ان اقفل النوافذ ؟

– لا ، قالت .. سنفعل كل هذا في البرد ..

– من تحبين ؟

– أنت . قالت .. انما سوء الطالع يحالفنا .. اليس كذلك ؟

– هذا ما كنتاسائل نفسي به . قال الكولونيل، اسرعي وصففيشعرك .

دخل الكولونيل إلى غرفة الحمام يغتسل قبل العشاء ..

كانت غرفة الحمام الشيء الوحيد المخيب للظن في الغرفة .. على الرغم من كون القصر رائع الهندسة انما لم يعر المشرفون على بنائه هذه المسائل أي اهتمام يذكر واعتبروها أشياء ثانوية لا تستحق التقدير .

مرت فترة وجيزة وعادت ريناتا تلتقي بريشار .. كان شعرها مصففاً بطريقة غريبة أدهشت ريشار واضحكته جداً .

– لقد أحسنت الرياح صنيعاً وهي تتلاعب بشعري ، قالت .. ألا زلت تحبني ؟

– أجل قال الكولونيل .. هل يمكنني ان اساعدك بشيء ؟

– لا . لقد قمت بهذا بمفردي طيلة حياتي ..

– احبك كثيراً ومثلما أنت دائماً .. أي كما عرفتك .. قال الكولونيل .. أو عندما عرفتك يوم كنت تجلسين برفقة أصحابي ..

– انني اتساءل لماذا لم يعلق رسمي هنا بعد ..

– يسرني جداً ان أحصل اليه .. قال الكولونيل .. ثم ظن نفسه جنرالا ودون أن يسبق له ويفكر بهذا مطلقاً .. بـــدا الآن وكأنه حصان أصيب في المعركة ويستعد فارسه للقضاء عليه في اطلاق رصاصة قاتلة في رأسه ..

– أرجوك الا تكون قاسياً ، قالت الفتاة .. ولا أجد في نفسي رغبة أو مقدرة على القساوة والارهاق .

– أحبك يا شيطاني الصغير . انك فتاتي ، أيضاً .. ولا تهمني الخسائر التي أتكبدها بمفردي .. أو نتكبدها نحن الاثنين سوية .. لأن القمر ، في نظري ، هو أب وأم لنا . هيا بنا إلى العشاء ، الآن ..

همس هذه الكلمات في اذنيها وصمت .

– أجل ، قالت الفتاة الشابة .. أجل .. ولكن قبلني جيداً ، وقبل كل شيء .. مرة واحدة ، وهذا يكفيني .. أرجوك ان تفعل هذا ..

جلسا إلى طاولتهما الخاصة في زاوية القاعة ، يرتدي الكولونيل أجمل ثيابه العسكرية ، مسترخيـاً ، يسند ظهره إلى الحـائط .. بينما انصرف المايسترو إلى خدمة فرقة كبيرة من جنود المدفعية تنتمي إلى الفيلق الأول ..

– اللاغوستا ، أعلن المايسترو .

انها تشبه جورج بلتون نوعاً مـــا ، قال الكولونيل .. ولا أظنها بكت أبداً .. لأن قوة الشعور والانفعال لم تبلغ ذروتها لديها كما بلغته الآن ..

– هل تظنين اننا سنكسر الأسنـان ؟ قال يسأل الفتـاة الشابة .. بالايطالية ..

– لا ، أجاب المايسترو الكبير ، يطمئنهما .. ينحني دائماً وطبق اللاغوستا في يده .. ليست شقية رغم انها تبدو ضخمة جداً .. كما انك تعلم ، يا كولونيل ، من أي نوع هي .

– حسناً ، قال الكولونيل .. سنجرب هذا الطبق منها .

– وماذا تريدان أن تشربا ؟

– ماذا تفضلين يا ابنتي ؟

– وأنت ؟

– الكابري الأبيض . قال الكولونيل . وليكن مثلجاً ..

– ان الزجاجة جاهزة ، قال المايسترو ..
– ان في هذا تسلية ومتعة ، قالت الفتاة .. وها هي العادة من جديد ، تعود لتصبح أكثر حلاوة وخالية من الهموم ..
– أبداً ، أجاب الكولونيل .. ولا زلت أنصحها بالتروي .
– ستكونه ، أجابته الفتاة الشابة .. ليس رائعاً الا يكون هناك أناس كاذبون ؟
– شيء رائع فعلاً .. ولكنه نادر ، قال الكولونيل.. فكرت لتوي بانسان يدعى جورجي بايتون ، ولم يسبق له أن قال الحقيقة طيلة حياته .
– هل تكذب ، أنت ، أحياناً ؟
– حدث لي هذا أربع مرات .. ودائماً في حالات الاعياء الشديد .
– كنت اكذب كثيراً يوم كنت صغيرة .. ولكنها كانت قصصاً ملفقة ، أخترعها عندما تدعو الحاجة .. ولم تعمل مرة واحدة ، لصالحي .
– بعكسي أنا .. جنيت منها فائدة ، وفي المرات الأربع بالضبط ..
– هل كنت لتصبح جنرالاً لو لم تكذب ؟
– لو سبق لي وكذبت كما فعل الآخرون لكنت اليوم جنرالاً .
– وهل كنت لتشعر بسعادة أكبر ؟
– لا . قال الكولونيل ، لا ، بالطبع .
– ضع يدك اليمنى في جيبتك ، مرة واحدة فقط ، ثم قل لي بماذا تحس ؟
فعل الكولونيل ما طلبت اليه .
– رائع ، قال .. انما يجب ان اعيدها اليك ..
– لا ، لا أرجوك ..
– لنترك هذا الموضوع جانباً الآن ..
وفي هذه الاثناء عاد المايسترو يحمل طبق اللاغوستا الشهي ..
كان طبقاً ناعماً وجميل المنظر تتوسطه سمكة ضخمة ، تفوح منها رائحة تسيل اللعاب وتبعث الشهية في النفس .

– هل هناك علاقة بين هذا النوع من الاسماك والقمر .. فاذا غاب لم يعدمها من طعم أو لذة ، قال الكولونيل يخاطب الفتاة .

– لم أكن أعرف هذا ..

– ولعل ذلك يعود إلى انها تأكل طيلة الليل ، وفي ضوء القمر ، أو لعل القمر ، وهو بدر ، يهيىء ويعد لها ما تأكله .

– يقولون انها تكثر على الشواطىء الايطالية ، اليس كذلك ؟

– أجل ، أجاب الكولونيل .. ان شطآنك تنتج اسماكاً لذيذة .. أو بالأحرى « شطآننا » .

– قلها ثانية ، بربك ، أجابت الفتاة .. لا يمكنك ان تتصور الفرح الذي يدخله كلامك هذا إلى نفسي .

– ولكنه يبدو أكثر روعة عندما نسطره فوق الأوراق .

– لا ، قالت الفتاة . لست من هـذا الرأي .. ان الورق لا يكفي إذا لم تكن الأحاسيس نابعة من الأعماق .

– وإذا لم يكن هناك من قلب .. أو كان القلب معطلا ؟

– لك قلب ، ويساوي أشياء كثيرة .. بالنسبة لي ..

سأقايضه ببيضة مسلوقة إذا ما لزم الأمر ،قال الكولونيل في نفسه ..ولست أدري ما هي القوة التي تدفعه ليخذلني دائماً ، بعكس بقية أعضاء جسمي . لم يقل الكولونيل شيئاً من هذا بصوت عال ، بل دس يـده في جيبه يتحسس الجواهر ويقول :

– انها اشياء نسر بلمسها .. أما أنت ففتاة لا يمل من النظر اليها ..

– شكراً ، قالت .. سأذكر هذا طيلة الأسبوع .

– ان المرايا تزعجني كثيراً .. ولعل الوقوف أمامها يومياً لتصفيف الشعر واستعمال الشفاه ، يعتبر من الأمور المضنية للمرأة أو الفتاة على العموم ، وخاصة إذا ما كانت مفرمة ، مثلي .

– فلنتزوج في الحال ، اذن ..

– لا . قالت .. كان علي ان اتخذ قراراً بهذا الصـــدد كما اتخذت بالنسبة لغيره .. يلزمني أسبوع بكامله لاتخذ قراراً نهائياً ..

– وهذا ما يلزمني أنا بالفعل ، أحياناً ، لابداء رأي من هذا النوع ، قال الكولونيل ..

– دعنا من هذا الآن .. ولنر ماذا سيقدم لنا المايسترو من لحوم وفواكه .. أرجوك ان تشرب كأسك .. لأنك لم تلمسه بعد .

– سأشربه الآن .. قال الكولونيل ..

كان الكأس شاحباً ، بارداً ، مملوءاً بنبيذ يشبه النبيذ اليوناني . مصنوع من العنب الصافي ، لذيذ الطعم والمذاق كجسد ريناتا نفسها ..

– يشبهك تماماً ..

– أجل ، أعرف ، ولهذا أردتك ان تتذوقه .

– وها أنا أفعل ما أردت . سأشرب منه كأساً أخرى .

– انك لطيف جداً ..

– شكراً ، قال الكولونيل .. سأذكر هذا طيلة الاسبوع. ثم صرخ ينادي المايسترو .

اقترب المايسترو مسرعاً ، بشوشاً ، رغم ما يعانيه من آلام القرحة المزمنة وبدا كمتآمر ينفذ بطاعة عمياء ما يطلب اليه .

– ماذا لديكم من لحوم طازجة ولذيذة .. تجدر بنا .

– لا أذكر بالضبط.. انما ها أنا ذاهب لأرى ماذا نملك منها .. انمواطنك يجلس إلى طاولة أخرى ويمكنه أن يستمع إلى كل شيء .. رفض أن ينصاع لأوامري عندما طلبت اليه أن ينتقل إلى الطرف الآخر .

– لا بأس ، أجاب الكولونيل ، وسنزوده بكل ما يريد أن يكتب عنه..

– يكتب كل ليلة .. وهذا ما اخبرني أحد الزملاء والذي يعمل في الفندق حيث ينزل ..

– حسناً ، قال الكولونيل .. وهذا ما يدل على انه يعمل بجدية وينظر إلى المهنة نظرة واقعية ..

– نحن نفعل نفس الشيء .. ازاء مهنتنا .

– هذا يختلف ..

– سأذهب لأرى ماذا لدينا من لحوم تليق بكما .

– انظر جيداً ..

– لا أتراجع أمام المصاعب .

– يا لك من خبيث ..

وما أن ذهب المايسترو حتى التفتت الفتاة إلى الكولونيل وقالت :

– انه رائع .. ويسرني أن أتبين الشعور الذي يكنه لك .

– اننا اصدقاء منذ زمن بعيد ، قال الكولونيل .. وآمل أن يكون لديه قطعة بفتيك جيدة تصلح لك .

– هناك قطعة واحدة فقط ، قال المايسترو وقد عاد من جديد .

– لتكن لك أنت يا ابنتي .. لديّ أنا ما يكفيني .. هل تريدينها مشوية ؟

– ومحمرة جداً .. من قطعتك ، قالت .

– أوده أحمر كالدم ، قال الكولونيل ، كما كان يقول جون إلى الخادم بالفرنسية .. نيء ، أو لنقل : أحمر ويكفي ..

– ليس بالمستطاع تحضير قطعة كهذه إلا في الحالات الاستثنائية .. قال المايسترو . ماذا تود أن اقدم لك يا سيدي الكولونيل ؟

– سكالوبين بالمارسالا ، مع قرنبيط مقلي بالسمن .. ماذا تودين كذلك يا فتاتي .

– بطاطا مسلوقة ومع قليل من السلَطة الخضراء ..

– انك على تقدم .

– أجل .. إنما يجب ألا يستمر مثل هذا التقدم ..

– اتفقنا ، قال الكولونيل .. ما رأيك بقضاء السهرة في أحد الملاهي؟

– لا وجود لها هنا .. بل هناك فندق ويقدمون الويسكي بالزجاجة ..

– نسيت ، قال الكولونيل .. هل تذكرين يوم كنا ندفع ثلاثمائة لير سعر الزجاجة الواحدة ؟

– تماماً ، قال المايسترو .. وعلّنا كنا قساة في تلك الأيام ! هـــل تذكر يا كولونيل .. وأظنك كنت اسوأ منهم جميعاً .

– أجل ، قال الكولونيل . كنا جاهلين ومتهوسين آنذاك . نرجو ان تصفحي عما يبدو منا ..

– أليس لديك صوراً عن تلك الأيام ؟

– لا ، لم يكن فن التصوير قـــد تطور بعد .. حتى داتينزيو نفسه لم يكن يعطي سوى رسوماً سيئة ..

– باستثنائنا نحن ، قـال المايسترو الكبير .. سأبحث عن البفتيك ، أينه ؟

– في جيشنا ، قال الكولونيل يتحدث إلى الفتاة ، كان الجنرالات يقتتلون بجدارة .. هذا ما كانوا يقولونه آنذاك ، انما لا أصدق هذا مطلقاً .. شيء غريب حقاً ..

– هل يقتتل الجنرالات من أجل شيء صالح ؟

– أجل .. عندما يكونون في رتبة كابتين وملازم أول .. وفي المرة الثانية عندما يحالون على التقاعد .. شيء سخيف حقاً ..

– وأنت ، هل قاتلت كثيراً ؟ أعرف انك قمت بهذا ..وأرجوك ان تخبرني كيف حدث ذلك بالتفصيل ..

– قاتلت ما فيه الكفايـــة .. وهذا ما جعل المفكرين والنقاد يعدوني في صفوف الحمقى ..

– أخبرني بالتفصيل ..

– اصطدمت بأروين رومل في منتصف الطريق بين كورتون ودي غرابا ، حيث كانت خطوط دفاعنا . كنت يومذاك كابتين أقوم بمهام كابتين انما لم أكن في الحقيقة سوى ملازم أول .

– هل عرفته .

ـ لا . لم يتم اللقاء بيننا الا بعد انتهاء الحرب ، حيث تسنى لنا ان نتحدث وندردش ساعات طوال .. كان لطيفاً بالفعل وأحببته جداً ..

ـ هل استلطفت أناساً من المانيا غير روملِ ؟

ـ أجل . انما كنت أفضل ارنست اوديت عليه ..

ـ ولكنهم كانوا جميعاً على خطأ فادح .

ـ طبعاً . ومن لم يكنه يوماً ما ؟

ـ لم استطع ان أحبهم أو اتخذ موقفاً واضحاً بالنسبة لهم ، منذ ان قتلوا أبي وأحرقوا بلدتي .. كما انني شاهدت بعض جنودهم يقتلون حمامات سان ماركو ..

ـ فهمت ، قال الكولونيل .. ولكن ارجوك يا فتاتي ، حاولي ان تفهمي موقفي .. فعندما يدمن الانسان على الاجرام يتخلى عن انسانيته ..

ـ كم قتلت في حياتك ؟

ـ مائة وعشرين .. باستثناء المفقودين ..

ـ ألم يوبخك ضميرك ؟

ـ أبداً ..

ـ ألم تراودك الأحلام المزعجة ؟

ـ السيئة ، لا ، انما حلمت بالغريب منها .. وغالباً .. أحلام معارك ، وخاصة في الليالي التي تليها .

حلمت بالامكنة حيث كانت تدور رحى المعارك ..

ـ هل تحلم معي أحياناً ؟

ـ احاول .. ولكن لم استطع حتى الآن .

ـ علّ الرسم الذي اعطيتك اياه ، سيساعدك ..

ـ آمل ذلك ، قال الكولونيل.. ارجوك، ان تنبهيني إلى إعادة الاحجار الثمينة ، فقد انساها في جيبي .

ـ لا تكن قاسياً ، أرجوك !!

– ان شرفي يقضي بذلك .. ويتوجب عليه ان يتماشى مع حبنـــا الكبير لأنه من المستحيل ان تحصلي على واحد دون الآخر .

– انما بامكانك ان تؤدي لي خدمات خاصة ..

– سبق وقدمت لك الكثيرمنها.. كما ان الحجارة موجودة في جيبي الآن..

عاد المايسترو الكبير يحمل طبق اللحوم الشهي ، ويحاول ان يبدو كأشهر واحذق من عرفتهم الفنادق الكبيرة في فن خدمـــة الزبائن . كان عضواً من الرابطة ويعول على خدماته أحياناً .. قدم لنـا الطعام وسكبه بمهارة واحترام تفوقان احترامه لنا ، كزبائن قدامى .

– كلوا الآن ، قال .. افتحوا زجاجة الشمبانيا هذه ، عاد يضيف ويتأمل الزجاجة مبتسماً .

– ماذا تعرف عن ذلك الشخص ؟ قال الكولونيل يسأله مشيراً إلى مواطنه القابع في الزاوية .. بينما كانت المرأة المرافقة له تأكل بشراهة .

– هذا ما يجب ان تحدثني عنه أنت ..

– انني أراه للمرة الأولى ، أجاب الكولونيل .. أكره ان أنظر اليه وهو يأكل ..

– يحاول ان يتحدث إلي بالايطالية ولكنه لا يجيدها .. ومع ذلك يبدي الاحترام الزائد . لا يفهم شيئاً بجودة الخمور وبالمأكولات الشهية .. أما المرأة ، رفيقته ، فهي غايـــة في اللطافة .. أظنها عمته .. انما است أكيداً بعد من ظني هذا .

– هل يتحدث عنا ؟

– سألني من تكونان ؟يعرف اسم الكونتيسا وتعرف إلى قصورها بواسطة الكتب وحسب . تأثر جداً باسمك يا سيدتي .

– هل تظنه سيتكلم عنا في كتبه ؟

– انني أكيـــد من ذلك .. وهو يسطر كل معلوماته في الكتاب الذي يعده الآن .

– ولعل أقل الأشياء هو ان نذكر في كتاب ،قال الكولونيل.. هل يسوؤك هذا يا فتاتي ؟

– طبعاً ، لا . قالت الفتاة .. انما وددت أن يكون دانتي الكاتب وليس هو ..

– ان دانتي « يتنزه » في مكان آخر ، قال الكولونيل .

– هل باستطاعتك ان تخبرني شيئاً عن الحرب ؟ سألت الفتاة . شيئاً يسمح لي أن اعرفه ..

– طبعاً ، كل شيء ..

– كيف كان ايزنهاور ؟

– سياسي بارع .. جنرال سياسي .. قوي ، وفريد من نوعه .

– والرؤساء الآخرون ؟

– سوف لا نذكرهم . يكفي ما يدونونه في مذكراتهم . لم يخذلوا أبداً ..

– كان فيهم الصالح والطالح ؟

– أجل . ولعل القسم الصالح هو الذي تفوق .. كبرادلي ، معلم المدرسة ، وغيره .. ليتنغ وجو ، اسمان لشخص واحد . واعتبره احسنهم .

– من تراه يكون ؟

– قاد الكتيبة السابعة يوم كنت انا احد مشاتها . قوي . سريع . دقيق الملاحظة .. انه رئيس اركان ، حالياً .

– ولكنني اود ان اعرف شيئاً عن القادة العظام الذين ما زلنا نسمع بهم حتى الان كمونتغومري وبيتون ؟

– انسبهم يا ابنتي .. كان مونتي بطيئاً .. لا يتحرك الا اذا ما تأكد من كل شيء .. واذا فعل لأتى فعله متأخراً ..

– كنت اعتقد دائماً بانه جنرال كبير .

– حتماً ، لا ، أجاب الكولونيل .. والسيء في الموضوع انه كان يعرف هذه

المزية القبيحة فيه .. شاهدته مرة يدخل إلى الفندق ويستبدل بزتـــه الرسمية بثياب أخرى ليثير حماس الجنود والجماهير معاً !

– هل تكرهه ؟

– لا ، اظن فقط بأنه جنرال انكليزي .. ومهما عنت الكلمة . ثم اياك ان تستعملي هذه العبارة مطلقاً .

– ولكنه تغلب على الجنرال رومل .

– أجل .. وهل تفكرين بـــأنه ليس هناك من أيد عملت وتدخلت في الموضوع ؟ ومن هو الذي لا ينتصر في معركة يحشد لها كل قواه ويكون عدوه في مركز ضعيف ؟ خسرنا مائة واربعين الف جندي تلك السنة .. ولهـذا يمكننا أن نتكلم باغتباط .

– مسألة محزنة ، قالت الفتاة . أكره تماثيل الاموات مع انني احترمهـــا جداً ..

– انا لا احبها مطلقاً والعن دائمـــاً ذلك الانسان الذي تسبب باقامة أول نصب .. هل فكرت بالاشياء من هذه الناحية ؟

– لا . انما وددت ان اعرف فقط .

– من الافضل الا نتعرف إلى هذا ، قال الكولونيل ، تناولي قطعة قبل ان تبرد .. وارجو ان تسامحي ما صدر عني .. عندما حدثتك عن مهنتي .

– اكرهه ولكنني أحبه .

– أظن بأننا نتبادل ذات الشعور ، قال الكولونيل . ولكن اود ان أعرف بماذا يفكر مواطني الجالس على بعد ثلاث طاولات مني ؟

– في كتابه القادم .

– ما رأيك بنزهة في اليخت وبعد العشاء مباشرة .

– عمل رائع .

– هل يتوجب ان نتحدث إلى المواطن عن فكرتنا ! أظنه يتحرق شوقـاً مثلنا ، إلى نزهات بحرية كهذه .. وربما كان هذا فضولاً في نفسه يود اشباعه .

– ليس نحن من سيقول له هذا ، قالب الفتاة الشابة ... ان المايسترو الكبير سيقوم بنقل هذا اليه بالنيابة عنا ...

ثم انصرفت بشهية إلى التهام قطعة اللحم ، وعادت تضيف :

– هل تظن ان الرجال يكيفون سيماءهم كما يودون بعد عامهم الخمسين .

– أعتقد ان لا ، ولا أود ان أقوم بهذا الدور ..

– اوه .. أنت ، انت ، قالت الفتاة .

– هل اللحم لذيذ ؟ سأل الكولونيل ..

– رائع . والسكالوبين؟

– طري جداً .. ما رأيك بالخضار المطبوخة ؟

– لقد تسلينا ما فيه الكفاية اثناء تناول الطعام .. اليس كذلك ؟ ماذا يضر لو أكلنا سوية دائماً ..

– قدمت اقتراحاً بهذا المعنى ..

– دعنا من هذا ..

– حسناً ، قال الكولونيل .. لقد استقر رأيي على أن اترك الجيش واسكن في هذه المدينة .

– يا لها من فكرة رائعة .. كيف تبدو وأنت ترتدي الزي المدني ؟

– لقد سبق ورأيتيني قبلاً .

– أعرف ، أعرف يا عزيزي .. قلت هذا على سبيل الضحك .. انك لا تستهضم المزاح أبداً ، في بعض الأوقات .

– كنت لأبدو أنيقاً لو انني وفقت إلى خياط ماهر .

– تجده في روما ، وليس هنا .. سنذهب سوية إلى هناك وتشتري ما توده من بذلات وملابس .

– أجل ، وسننزل في فيتري .. نتناول العشاء في مكان رائع ونعود إلى هنا في الليل .

– نتعرف إلى نجوم السينما ونتحدث اليهم .. وقد نشرب معهم كأساً أو اثنتين .

– سنشاهد الآلاف منهم .

– وهل نراهم يتزوجون للمرة الثانية أو الثالثة ويباركهم البابا ؟

– إذا كان هذا يسرك ويروق لك ..

– لا ، قالت الفتاة الشابة .. وهذا أحد الأسباب التي تحول دون زواجي منك .

– فهمت ، قال الكولونيل .. شكراً .

– ولكنني سأحبك مهما عنت عبارتي ، انما لا ندرك نحن الأثنين ما تعنيه بالضبط ، ومهما كان عمر كل منا .

– أشك بأنك قادرة على ان تحبي كثيراً .. عندما تموتين .. قال الكولونيل.

قال هذا وراح يأكل ثمرة « الأرضي شوكي » ورقة ورقة ، يغمسها بالمرق الحامض أمامه ..

– ولا أنت كذلك ، أجابت الفتاة .. انما سأحاول .. ألا ترى انه من الأفضل ان يشعر الانسان بأنه غير محبوب ؟

– أجل ، أجاب الكولونيل .. يشعرني هذا التفكير بأنني أقف فوق تلة عالية ، عارياً ، فوق صخرة ملساء ..

– يجب ان تقص هذا على كاتبنا ، صاحب الأفكار الواسعة ، حتى يكتبها هذه الليلة .

– سأقولها لداتني إذا ما كان لا يزال قابعاً في زاويته ، قال الكولونيل وامتقع وجهه بالغضب .

وفي هذه الأثناء دخل البارون الفاريتو إلى المطعم ، يبحث عنها .. وهكذا حظي بها وسار باتجاهها ..

اقترب منها وانحنى يقبل يد ريناتا ويقول : « مرحى يا ريناتا » . كان ضخما

قوي البنية . كان انساناً خجولاً لم يعرف الكولونيل شبيهاً له . . خجلاً ليس عن جهل أو انزعاج . . انما هناك ما يدعوه إلى ذلك . . ولا شأن لنا به .

– سيدي الكولونيل ، قال .

ابتسم كما يفعل الخجولون ، ولم يضف شيئاً . .

لم تكن ابتسامته ابتسامة رجل واثق من نفسه . . كما لم يكن لها من علاقة بابتسامة السياسي المحنك العالم بخفايا الامور . . كانت ضحكة الرجل المتريث والذي يعرف كيف يتصرف ويملك للاسرار بئرا عميقة . .

– سوف لا أبقى سوى دقيقة واحدة . . أتيت أخبركما بأن الصيد سيكون ممتازاً غداً . . وتنزل طيور البط من الشمال بكميات وافرة . . فيها الكثير من السمين . . كما تحبونها ، قال مبتسماً . .

– اجلس يا الفاريتو ، أرجوك . .

– لا . أجاب البارون الفاريتو . . يمكننا ان نلتقي في الكاراج في تمام الساعة الثانية بالضبط ، اذا اردت ؟ هل تملك عربة ؟

– أجل . .

– هذا ما يلزم بالفعل . . فاذا ذهبنا في ذلك الوقت ، تمكنا من مشاهدة طيور البط قبل هبوط الليل . .

– رائع ، قال الكولونيل . .

– حسناً ، إلى اللقاء يا ريناتا ، وداعاً يا سيدي الكولونيل . . وحتى أن التقي بكم في تمام الساعة الثانية ، اتمنى لكم وقتاً طيباً .

– تعارفنا يوم كنا لا نزال اطفالاً ، قالت الفتاة الشابة . . يكبرني بثلاث سنوات . .

– أجل ، انه احد أعز اصدقائي .

– هل تظن أن مواطنك بحث عنه في معلومات وهل سيأتي على ذكره في كتابه ؟

– بصراحـــة ، يا سيدي الكولونيل ، لم اره يفتح كتاباً واحداً حول الموضوع . .

– يستحق علامة جيدة ، قال الكولونيل . . والآن ، ارجوك ان تستمعي الي جيداً . . أظن ان نوع الشمبانيا هذا يفوقه شباباً وحيوية . . لم اجد البينارد في مقهى الريتز . . انما افترض انه بالامكان ان نحصل على انواع أخرى وممتازة من الكحول . . باستطاعتك ان تجزمي بأن هذا يأتي من أرض الكونتيسا ريناتا ويمكنك اعتباره هدية مني اليك . . وهكذا نوفر كمية كبيرة من المال . . سأحدث الجنرال بهذا الخصوص . . انه رجل شجاع .

– اشرحي له هذا ، قال الكولونيل . . لا يعتمد البروتوكول في الشرب . . بل يعب على هواه .

– اتفقنا . . وبانتظار هذا يمكنك ان تشرب هذا . . انه من النوع الممتاز كما تعلم .

– صحيح ، قال الكولونيل . . ولكنه ليس من نوع الشامبرتين .

– ماذا كنا نشرب فيما مضى ؟

– أي مشروب ، لا فرق . . قـال الكولونيل . . ولكنني ابحث اليوم عن الكمال . . ولنتفق منذ الان : ليس الكمال المطلق ، انمـــا كل ما هو في وسعنا وباستطاعتنا ان نتفهمه .

– وانا كذلك ، قال المايسترو الكبير . . واظنني قمت بعمل جيد . . ماذا تودان الان كخاتمة للعشاء .

– جبنة ، وأنت ماذا تريدين يا ابنتي ؟

استمرت الفتاة صامتة وشاردة الذهن ، برهة وجيزة ، ومنذ أن شاهدت البارون الفاريتو . . كان هناك من يجول في خاطرها ويدغدغ نفسها الأبية . .

– كذلك جبنة ، من فضلك .

– أي نوع تودينه ؟

– احضر جميع الأصناف المتوفرة لديكم وسنختار ما يروق لنا منها ، قال الكولونيل .

ابتعد المايسترو والتفت الكولونيل يقول للفتاة :

– ما بك يا صغيرتي ؟

– لا شيء .. دائماً وأبداً ، لا شيء .

– إذن أمسكي هذا وهدهديه ، إذ ليس أمامنا متسع من الوقت .

– أجل ، اتفقنا ، سأكتفي بالجبنة .

– هل هذا عثرة في طريقي ؟

– لا ، قالت ، دون أن تفهم ما رمى اليه الكولونيل .. ثم فقهت المعنى بعد تفكير قصير ، ضع يدك اليمنى في جيبك .

– حسناً ، قال الكولونيل .. ها هي ..

وضع يده اليمنى في جيبه وتلمس ما فيها برؤوس أصابعه ، ثم وضع الحجارة الثمينة بقبضته .. قبضة يده المشوهة .

– عفواً ، قالت . ولنعد إلى سابق حوارنا .. ومن حيث ابتدأنا .. دعنا ننصرف إلى التهام هذه الجبنة الشهية .

– موافق ، أجاب الكولونيل .. وأتساءل ، ما هو الصنف الجيد الذي يملكونه منها ؟

– حدثني عن الحرب العالمية الأخيرة ، قالت الفتاة ... وبعد ذلك سنقوم بنزهة في اليخت .

– لم يكن بذي فائدة كبرى ، قال الكولونيل.. أما بالنسبة لنا ، فالعكس هو الصحيح .. إنما هناك ثلاثة مراحل ، وربما أربعة ، مررت بها وعانيت منها أقسى أنواع الغرام .

– لماذا هذا ؟

– كنا نقاتل ضد عدو مشترك ، وبعد أن تعطلت جميع المواصلات اللاسلكية مع القيادة .. أبدنا كتائب عديدة ، وعلى الورق فقط .. ولكنها

كانت كتائب أشباح وحسب.. وعارية من الصحة والواقعية .. أبادها سلاحنا الجوي قبل أن تتكون .. ولم يكن الأمر صعباً إلا في النورماندي ، نظراً لصعوبة الأرض ، وخاصة عندما اجتحنا الجبهة واخترقنا الممر الذي تسير فيه مصفحات غريغوري بيتون ، وكان علينا أن ندع الباب مفتوحاً على مصراعيه .

– كيف يتم فتح الطريق أمام المصفحات ؟ أخبرني بذلك ، أرجوك .

– نتقاتل في البدء للاستيلاء على مدينة ما تشرف على جميع الطرقات .. لندعوها سان لو ، مثلاً .. ثم علينا أن نؤمن الاستقرار في المدينة حتى نتمكن من الاستيلاء على بقية الطرقات الرئيسية .. طبعاً ، هناك خط دفاع للعدو ، ولكنه لا يستطيع التخلي عنه ومجابهة المعركة بجميع قواه أو أن يصطدم بالقوات المعادية في الطريق .. أيزعجك هذا ؟ يرهبني جداً ..

– لا . لا يضيرني بشيء .. وانها المرة الأولى التي أستمتع فيها إلى أحاديث كهذه ، واضحة ومفسرة .

– شكراً ، قال الكولونيل .. هل تحتاجين فعلاً إلى معرفة المزيد عن هذا العلم الحزين ؟

– ارجوك ، قالت .. أحبك وأود ان اشاطرك هذا .

– انها مهنة لا يتقاسمها اثنان ، قال الكولونيل .. سأشرح لك الناحية التقنية منها .. مع قليل من النكات ، وهذا ما يجعل الحديث مقبولاً ومشوقاً.

– بعض النكات ، من فضلك .

– الاستيلاء على باريس مثلاً ، يمكن اعتباره لا شيء .. انما مجرد مغامرة عاطفية .. وبعيداً كل البعد عن العملية الحربية.. قتلنا بعض الضاربين على الآلة الكاتبة ومزقنا الستار الذي استعمله الالمان لتغطية جثث قتلاهم اثناء جلائهم عن المدينة .. وجدوه لا يصلح كضمادات ولذلك تخلوا عنه .

– ألم يكن ذلك شيئاً مهماً ؟

– حاول بعض فتيان ليكلرك اعطاء الحادث اهمية كبرى .. ولكنه لم يكن ليستحق مثل هذا الاعتناء والتفكير .

– هل اشتركت معهم ؟

– أجل . أجاب الكولونيل .. وأقولها بدون تردد .

– ألم يؤثر فيك هذا مطلقاً ؟ ومع العلم انه ليس من السهل لأي كان أن يستولي على باريس .

– استعادها الافرنسيون أنفسهم قبل أربعة أيام ..

– ابتدأت اتفهم القضية قليلاً الآن .. ولكنه شيء لا يدعو على التشجيع .

– دائماً هكذا .. ويصعب علينا التحكم بعواطفنا ازاء احداث كهذه ..

– ولكن هل تظن ان هناك تقارباً بين عهد كهذا ، وعهد القادة العظام آنذاك ؟ أم أنه أقل سوءاً ..

– اسوأ ، اقسم لك ..

– هذا يعني ، ان ما حصل لديك يعد اصابة شريفة .

– أجل ، وفوق صخرة ملساء .. في أعالي الجبال .

– أرجوك ، دعني ألمسها ، قالت .

– انتبهي إلى قبضتها ، قال الكولونيل ، فهناك جرح لم يلتئم بعد .

– يجب ان تكتب ، قالت الفتاة ، كي يعرف الجميع ما حصل لك .

– لا ، أجاب الكولونيل ، محتجاً .. لا أملك موهبة الكتابة رغم انني أعرف اشياء كثيرة .. ولعل أكبر كذاب هو الذي يكتب الاشياء ساعة ورودها اليه قبل ان يتأكد من صحتها .

– انما هناك جنود آخرين ، يكتبون مثل هذه الأشياء ..

– أجل .. كموريس دي ساكس ، فريدريك الكبير وتسن تسو ..

– ولكن جنود أيامنا يختلفون عنهم كثيراً .

– ان كلمة « جنودنا » تعجبني جداً .

– أليس هناك محاربون عصريون طرقوا هذا الموضوع وكتبوا فيه ؟

– كثيرون .. انما هل قرأت بعضهم ؟

– لا .. قرأت الكلاسيكيين . وأقرأ المجلات الجنسية والبوليسية .. بالإضافة إلى رسائلك .

– أحرقيها ، قال الكولونيل .. انها دون قيمة..
– أرجوك ، لا تكن شقياً .
– حسناً .. ماذا أستطيع ان اخبرك ولا يسيء اليك ؟
– هذا .. أجاب وأشار إلى المايسترو الكبير ان يتقدم منه ويفتح زجاجة الشمبانيا (رودرير – تعبئة ١٩٤٢) .
– ألا تود ان تكتب شيئاً ؟ وحتى لو طلبت اليك ذلك ..
– لا . قال الكولونيل . أعرف جنوداً كتبوا عن اول يوم لهم في المعركة.. ورغم ذلك جاءت كتبهم ممتازة وان لم تخل من بعض التفاهات . سيكتب كل انسان ، عاجلاً أم آجلاً ، سيكتب مذكراته .. أما أنا فسوف لا اكتب شيئاً يا فتاتي الحلوة .
أشار إلى المايسترو ان يتقدم ويملأ الكؤوس أمامها .
– سيدي المايسترو الكبير ، قال .. هل تحب ان تقاتل وتخذل ؟
– لا .
– ولكن هل انكسرنا ؟
– أجل . وجداً ..
– كيف حال الصحة ؟
– ممتازة ، باستثناء بعض آلام المرارة والارتجافات القلبية .
– ولكنك لم تحدثني قبلا عن هذه الآلام ، قال الكولونيل وقد شعر بنبضات قلبه تتسارع ..
– حسناً ، وها انت تعرف الآن ، أضاف المايسترو وابتسم بألم وأسى .
– كم مرة شعرت بآلام القلب ؟
– مرتين ، قال المايسترو .
– لقد سبقتك في هذا المجال ، قال الكولونيل .. اسأل ريناتا إذا كانت تود المزيد من هذا النبيذ الممتاز ..
– ألم تقل انك أصبت مرات عديدة ؟ سألت الفتاة الشابة .. كان عليك ان تخبرني بهذا قبلا .

– لم أشعر منذ لقائنا الأخير ..

– إذا كنت أنا السبب فأنني على استعداد للذهاب معك والعيش بكنفك والاعتناء بك .

– انه ليس سوى عضل في الجسد ، أجاب الكولونيل .. ولكنه الأهم .. يعمل بدقة متناهية .. والمؤسف انه لا يمكننا ان نرسل له من يصلحه إذا ما هو توقف عن العمل يوماً ما .. وعندما يتوقف ، يموت الإنسان ..

– أرجوك ، ألا تتحدث عن هذا .

– أنت دفعتيني إلى ذلك ، قال الكولونيل .

– وذلك التمثال ، هناك ، ألا تشبهه بشيء ؟

– لا ، طبعاً .. قال الكولونيل .. انه كاتب فاشل ، وسيعيش إلى الأبد .

– ولكنك لست كاتباً ، انت .. ثم كيف عرفت هذا ؟

– قال الكولونيل .. شكراً لله .. ولكنني قرأت كثيراً من الكتب .. ولدينا الوقت الكافي للمطالعة عندما نكون شباناً ولم نتزوج بعد .. طبعاً ، ليس كما في البحرية .. كما انني أعرف كيف أختار بين الكتب المفيدة والسيئة .. وأؤكد لك ان الكاتب الفاشل يعمر طويلاً .

– ما رأيك لو استبدلنا هذا الحوار ببعض النكات ؟ ان ما تقوله الآن يدمي قلبي .

– يمكنني أن أقص عليك بالمئات .. وكلها حقيقية .

– واحدة تكفي فقط .. ثم ننهي كأسنا ونذهب في رحلة مائية ، كما اقترحت .

– ألا تشعرين بالبرد ؟

– لا .. طبعاً .

– لا أعرف ماذا أقص عليك ، قال الكولونيل . ان كل ما يتعلق بالحرب ويقال عنها يسيء إلى الذين لم يعرفوها ويعانوا من أهوالها .

– وددت لو حدثتني عن حصار باريس وسقوطها .

– لماذا ؟ ألأنني وجدت شبهاً بينك وبين ماري انطوانيت وهي في عربتها الفخمة ؟

– لا ، لم يكن ذلك سوى تقدير منك .. وأدرك أن هناك شبهاً ما بيننا .. إنما لم يسبق لي ان ركبت عربة كالتي ملكتها ماري انطوانيت .. رغبت أن أسمعك فقط تتحدث عن باريس .. عندما نحب أحداً ونتعشقه ، نود الاستماع إلى صوته دائماً .. ويطلعنا على جميع الأمكنة التي سبق له وزارها .

– استديري قليلا ، من فضلك ، قال الكولونيل ، وعندئذ سأبتدىء بالحديث . مايسترو ، نادى قائلاً .. هل ما زال لديك ما نشربه في تلك الزجاجة الملعونة؟

– لا . أجاب المايسترو .

– آتنا بغيرها ، إذن .

– حاضر ..

– املأ الكؤوس .. حسناً ، يا فتاتي . لقد انفصلنا عن إمرة الجنرال لكليرك في كلامار .. ساروا في اتجاه مونتروج ومدخل اورليان ، واتجهنا نحن إلى ميدون وهكذا تخلصنا من جسر وبوابة سان كلود .. شيء تقني محض .. ألا يزعجك أن أستمر به ؟

– لا .

– من الأفضل أن أشرح لك هذا على الخارطة .

– أكمل ..

– تخلصنا من الجسر وأقمنا جسراً آخر في الجهة الثانية من النهر وطرحنا في السين كل الألمان الأحياء منهم والأموات . رميناهم في الماء لأنهم حاولوا الدفاع والصمود أمامنا .

سكت برهة وعاد يضيف :

– كان دفاعاً رمزياً ، طبعاً . وكان عليهم أن ينسفوه قبل وصولنا .. رمينا بكل هؤلاء الألمان إلى السين .. كانوا جميعاً من البيروقراطيين ، كما أظن .

– استمر .

– وفي الصباح جاء من يخبرنا أن الألمان استعادوا جميع قواهم وتمركزوا في أماكن قريبة منا جداً . كما انهم نصبوا مدفعيتهم في أعالي جبال الفاليريان، وان مصفحاتهم تجوب الشوارع .. كان هذا بالفعل ، حقيقة راهنة .. كما طلبوا الينا ألا نتعجل الدخول إلى تلك المناطق، لأن الجنرال لكليرك على أهبة اقتحام المدينة والاستيلاء عليها .. امتثلت لهذه الأوامر ودخلت على مهل ، بقدر المستطاع .

– كيف تم هذا ؟

– انك تتقاعس عن هجومك وتتأخر عنه مدة ساعتين ، تصرفها في شرب الشمبانيا والويسكي . تشرب بقدر ما يقدم لك مواطنوك .. المساعدون منهم أو المتحمسون .. لا فرق .

– ولكن أليس هناك من مُثل وروعة ، كما في الكتب ؟

– بالطبع ، هناك ما فيه الكفاية .. المدينة بنفسها ، مثلاً .. كان الناس في القديم سعداء ، فرحين ، اكثر منهم اليوم .. لأنهم لم يكونوا قد فكروا بالحرب بعد وبويلاتها ..

– ألم تتقاتلوا مطلقاً ؟

– ثلاث مرات فقط . كان شيئاً أشبه بالمزاح منه بالجدية .

– هل هذه هي المعركة الوحيدة والتي ربحتم المدينة بعدها ؟

– قاتلنا بضراوة .. وفي اثنتي عشر معركة ابتداء من رامبويه وحتى دخولنا إلى المدينة .. انما هناك معركتان فقط تستحقان لقب المعركة بالذات .. لم أقاتل بضراوة الا في هاتين المعركتين .

– اخبرني حكايات حقيقية عن المعركة ..

– قولي انك تحبينني .

– أحبك .. قالت الفتاة الشابة .. ويمكنك انتنشره في جريدة الغازيتا، اذا أردت .. أحب جسدك القاسي وعضلاتك القوية التي تخيفني عندما تغضب .. أحب يدك وكل جراحك .

– من الافضل ان احدثك بشيء يكون طبيعياً ولا تصنع فيه ، قال الكولونيل ... يمكنني ان أبدأ من هنا : اقول لك أحبك .. والبقية تأتي .

– لماذا لا تشتري أواني زجاجية فاخرة؟.. سألته الفتاة فجأة.. بأمكانك ان ترافقني إلى مدينة مورانو .

– لا أفهم شيئاً فيها ..

– سأعلمك .. وتتسلى جداً ..

– ان وجودنا روتيني ..

– يمكنك ان تستفيد من هذا عندما تحال على التقاعد وتأتي لتعيش هنا .

– عندئذ يكون أمامنا الوقت الكافي ..

– أود ان يتم ذلك في الحال ..

– وأنا كذلك .. سأذهب غداً إلى صيد البط ..

– ألا يمكنني ان اذهب واصطاد معك ؟

– شرط ان يوجه الفاريتو الدعوة اليك .

– باستطاعتي ان اجعله يفعل ذلك ..

– هذا ما أشك به .

– معيب ان تشك في قول الفتاة وقد تعدت عمر الكذب .

– حسناً ، حسناً ، يا فتاتي .. ها انا اتراجع ، آسفا ، عن أقوالي .

– شكراً .. لا أود ولا أرغب بمزيد من المتاعب لك .. سأبقى في البندقية .. سأرافق والدتي وعمتي إلى القداس كل صباح . ثم أقوم بزيارات خاطفة للفقراء .. انني ابنة وحيدة ويتحتم عليّ أن اقوم بواجبات عديدة تجاه الآخرين .

– هذا ما كنت اتساءل عنه دائماً ، واردت ان أعرف كيف تمضين أوقاتك .

– كما اخبرتك .. أتسلى أحياناً بتقليم اظافري . هل أفعل ذلك غداً ؟

– طبعاً لا ، لأنني ذاهب إلى الصيد يوم الأحد القادم .

– اذن سأقوم بكل هذا يوم الأثنين .. واكتفي مساء الأحد بقراءة المجلات والصحف ، وحتى الفاضح منها .

– وقد يكون فيها صور خلاعية للآنسة برغمان .. هل تصرين على انك تشبهينها ؟

– لا ، ابداً .. قالت الفتاة .. أود ان انفرد بنفسي وان يكون لي شخصية مستقلة عن أي انسان آخر .. كما اودك ان تحبني كثيراً .. وكذلك ، قالت فجأة وبلهجة الواثق من نفسه ، ارغب ان اشبهك تماماً .. هل يسمح لي بهذا ولو فترة قصيرة ، هذا المساء فقط .

– طبعاً ، قال الكولونيل .. في أية مدينة نحن الآن ؟

– في البندقية ، قالت .. اجمل المدائن وأفضلها قاطبة .. في رأيي .

– موافق تماماً . وشكراً على امتناعك عن طرح أسئلة تدور حول المعارك الحربية .

– انما يجب ان تقصها علي ، كاملة ، فيما بعد .

– واجب ؟ قال الكولونيل – ولمع بريق الغضب وقوة الإرادة في ناظريه وكأنها قذائف مدفع من عيار ثقيل – وعاد يسألها : هل قلت «يجب» يا ابنتي؟

– أجل .. انما ليس في المعنى الذي تفسره انت .. ارجو ان تسامحني إذا وجدت في اقوالي ما يسيء اليك .. أردت ان أقول بالحرف الواحد : « إذا سمحت وتفضلت بإخباري بعض قصص المعارك الأخرى » .

– يمكنك أن تقولي « يجب » إذا كان في ذلك ما يسرك ..

ابتسم وعادت اليه طيبة خاطره وأشرق ناظره بالرضى والغبطة من جديد. ولكن لم يعد بامكانه ان يتفوه بشيء آخر .. لأن الحب الذي يكنه للفتاة تغلب على كل ما فيه أو ما اعتراه من تشاؤم وامتعاض. ولم يجد بداً من فسح المجال أمام الفتاة الحلوة لتعبر عن أفكارها وتجلي ما غمض منها .

– لا فرق عندي ، مطلقاً ، يا فتاتي .. وأرجوك ان تصدقيني .. لأنني أدرك تماماً ما هي الأوامر وكيف تعطى ؟ ويسرني جداً أن يكون الآمر فتاة جميلة مثلك ..

– لا أريد أن آمرك مطلقاً – وامتلأت مآقيها بالدموع رغم ارادتها – بل أتوق دائماً إلى اطاعتك والامتثال لأوامرك .

– أعرف .. انما أردت ذلك .. لا بأس في هذا ..

– شكراً لكلمة « مثلنا » .

– لم يكلفني ذلك شيئاً ، يا فتاتي ، أضاف .

في هذه الأثناء وصل البواب ووقف أمام طاولتها وقال :

– سامحني يا سيدي الكولونيل .. هناك رجل في الخارج ، وأظنه واحداً من خدامك ، يا سيدتي ، يحمل رزمة ضخمة ويقول انها للكولونيل .. هل اتسلمها منه واحتفظ بها في المستودع معي ، أم أضعها فوق طاولتك في الغرفة ؟

– في غرفتي ، قال الكولونيل .

– أرجوك ، قالت الفتاة الشابة .. ألا يمكننا الاحتفاظ بها هنا ..

– فضها وآتنا بها .

– حسناً ..

– بعد ذلك يمكنك ان تأخذها إلى غرفتي بكل اعتناء وتعيد لفها ، كي نرسلها إلى شخص عزيز علينا ، غداً عند الظهر .

– حسناً ، أمراً وطاعة يا سيدي الكولونيل .

– هل ترغب بمشاهدته ؟ سألت الفتاة الشابة .

– جداً ، قال الكولونيل .. ثم طلب إلى المايسترو أن يأتيه بمزيد من الشمبانيا .. كما طلب اليه أن يعد كرسياً آخر إلى جانبهما ليجلس عليه القادم الجديد .

– لم يعد لدينا شمبانيا في البراد ومن النوع ذاته ، إنما هناك نوع آخر .. هلاّ تذوقتماه ؟

– هاته ، قال الكولونيل .. ثم أضاف : من فضلك .. انني لا أتحدث مثل جورج بيتون ، قال يحدث الفتاة .. إذ لا حاجة بي إلى ذلك .. وقد توفي هو اثناء الحرب ..

– المسكين !

– أجل .. لقد كان مسكيناً طيلة حياته .. رغم ما كان يملكه من مال .. وفرقاً كاملة من المدرعات .

– هل لديك شيئاً ضد المدرعات ؟

– أجل .. ضد كل انسان موجود في داخلها .. انه يحيل الرجال إلى وحوش وقساة . وعلها أولى الخطوات نحو الجبن والتخاذل .. عنيت بها الجبن الحقيقي .

ثم تطلع اليها وابتسم وأسف لأنه قادها إلى هنا . حيث لم يسبق لها أن دخلت منذ زمن بعيد ، كسباح ينزل إلى الماء للمرة الأولى في حياته ..

– يجب ان تسامحيني ، يا ابنتي .. انني مجحف أحياناً كثيرة .. ولكنني أقول أشياء حقيقية لا تجدينها في مذكرات الجنرالات .. ومنذ أن ينال الجنرال نجمة جديدة أو أي وسام آخر.. نرى الارتباك يتملكه ويحتار من أمره ويطمع إلى المزيد منها .

– هل سبق لك وكنت جنرالاً .

– لم يدم ذلك طويلا ، قال الكولونيل – ان الكابتين ، مثلاً ، يعرف الحقيقة وبإمكانه أن يقولها ساعة يشاء .. وإلا باستطاعتك تجميده وحذفه ..

– هل ستطردني من حياتك إذا كذبت ؟

– يعود ذلك إلى طبيعة الكذبة .

– سوف لا أتلفظ بالكذب اطلاقاً.. ولا احتاج إلى أن تطردني وتتناساني..

– ليكن ، أجاب الكولونيل .

– هل ابعدت كثيراً من حياتك ؟

– كمية لا بأس بها .

دخل عليهما البواب يحمل اللوحة الزيتية الكبيرة مغطاة بالقماش الابيض .

– آتنا بكرسيين ، قال الكولونيل يخاطب الخادم .. وحاول أن تضع اللوحة برفق .. إياك أن ترميها أرضاً .. مفهوم ؟.

ثم التفت إلى الفتاة وقال :

– يجب تغيير هذا الاطار .

– اعرف .. أجابته ، إنما لست أنا التي اختارته .. خذ اللوحة وسنختار الاطار المناسب في الاسبوع القادم .. والآن ، تأملها جيداً .. وقل لي عما تم .. ماذا تقول عني وماذا تخفي من ملامحي وشخصيتي ؟

– لوحة رائعة .. ممتازة ، أجاب الكولونيل مغتبطاً .

تجمع المايسترو الكبير وبقية الخدم من حول هـذه التحفة الفنية .. ولعل المايسترو كان أشدهم اعجاباً وفرحاً .. حتى الاميركي القابع في الزاوية الاخرى، منفرداً ، بدأ يتطلع ناحيتهم ويتساءل عن الفنان الذي اعطى مثل هذه التحفة الرائعة .. ولم يشاهد بقية الحضور سوى الوجه الاخر للوحة ، ظهرها .

– روعة ، قال الكولونيل . انما يستحيل ان تقدمي لي هدية كهذه .

– لقد تم كل شيء الآن ، قالت الفتاة .. كما انني اكيدة بأن شعري لم يكن ليسدل هكذا فوق اكتافي مطلقاً ..

.. وباستطاعتي اطالتها اكثر من ذلك ، اذا كان في هذا ما يرضيك .

– ربما . حاولي ، قال الكولونيل .. انك الجمال الوحيد .. وحبي الكبير .. أحبك كثيراً ..

– قل هذا للخدم ، من فضلك .. وانني لواثقة من دهشتهم .

– خذوا هذه اللوحة إلى غرفتي، قال الكولونيل يأمر البواب ... اشكرك لإحضارها إلى هنا .. واذا كان الثمن معتدلاً ، فأنا على استعداد لشرائها .

– ان السعر معتدل تماماً ، قالت الفتاة .. هل يجب ان نريه إلى مواطنك كي يتأمله ويدلي برأيه حوله .. وسيقول له المايسترو من هو الرسام ومـا هو عنوانه .. كما بامكانه التعرف إلى مصنعه اذا شاء .

– انها لوحة ممتازة ومن الأفضل ان نحملها إلى الغرفة ، قال المايسترو .

– خذوها إلى غرفتي ، من فضلكم

– « من فضلكم » تقول ؟

– شكراً ، قال الكولونيل .. انني منفعل جداً ، وبت لا استطيع السيطرة على عواطفي ...

– هذا ما يجب ان نتخلى عنه انا وأنت .

– اتفقنا ، قال الكولونيل ، ان المايسترو سيد نفسه دائماً ..

– لا ، قالت الفتاة .. انما اظن تفاعله صادر عن نية سيئة في نفسه وليس اعجاباً باللوحة .. ان كل العالم ، اليوم ، سيئو الخلق ولا يؤتمنون ، وهذا لمسته حقيقة بين سكان هذه المدينة .. اراه يبتعد عن السعادة ويتحاشاها ، تحاشيه وابتعاده عن مواطنك الصحافي ..

– ومهما بلغت السعادة من قوة وفاعلية ..

– انت من علمني هذه العبارة .. وها انت من جديد تعود لتتعلمها مني ..

– هكذا الحياة . قال الكولونيل .. ان ما نربحه في بوستون ، نخسره في شيكاغو ..

– بت لا افهم شيئاً الان .

– شيء يصعب تفسيره ، قال الكولونيل .. ولكن لا ، عاد يقول ، طبعاً لا ،.. ان شرح الصعب هو مهنتي .. انها كلعبة كرة القدم .. ما نربحه في ميلانو، نخسره في تورين ..

– لا أهوى كرة القدم بالذات .

– وكذلك أنا ، قال الكولونيل .. وخاصة عندما يكون اللعب بين مشاة الجيش والبحرية ..

– اعتقد بأننا سنمضي فترات هانئة هـذا المساء ، ومهما تكن الظروف ..

– أجل ، أجابت الفتاة .. سأقول للمايسترو ان يعد لنا ما يلزم من الشراب وبعد ذلك أحضر معطفي وننطلق .

خرجا من باب المقهى الجانبي المؤدي إلى مرفأ اليخوت .. تدفعها الرياح إلى الأمـام وتلسعها بسياطها البـاردة .. كانت أنوار الفندق تشع وتنعكس على صفحة المياه الزرقاء لتضيء اليخت القريب منها .. انها رائعة كالجواد الأصيل ، قال الكولونيل في نفسه ، ولمـاذا لا أشاهد سواها واعتبره حقيقة وواقعاً ؟ كم هي بارعة وحكيمة تلك اليد التي صممت مثل هذا الفن الراقي والجميل .

– إلى أين سنذهب ؟ سألت الفتاة الشابة .

– سنقوم بنزهة قصيرة في الحديقة ، قال الكولونيل .. أو إلى « بوام » ، وما على الربان الا ان يذعن لطلبنا ويقودنا إلى هناك .. والى ارسانوفيل .

– هل سنذهب إلى باريس ؟

– طبعاً ، قال الكولونيـل .. مريه ان يدور بنا ساعة كاملة فوق الميـاه وعندما يحلو له ذلك ..ولا أرغب أن اضغط على ارادتهلان الرياح غير مؤاتية .

– ان الموج عال جداً .. من جراء هـذه الرياح اللعينة ، قالت الفتاة .. وهناك أمكنة كثيرة ، تحت الجسور ، يمكنه ان يمر بها .. هل أستطيع ان أحدد له أين يذهب ؟

– دون شك ، يا ابنتي .. ثم أضاف يخاطب الخادم الذي يرافقه :

– احتفظ بسطل الثلج هذا معك في اليخت .. سنحتاجه بل قليل ..

– كلفني المايسترو الكبير ، وعندما تنوي السفر ، أن أقدم لك زجاجة النبيذ هذه ، هدية منه .

– اشكره نيابة عني وقل له لماذا يكلف نفسه دائماً .

– يجب أن يسير مدة قصيرة بعكس الرياح ، قالت الفتاة .. وبعد ذلك أدله على الطريق الذي عليه أن يتبعه .

– كما أرسل لك المايسترو هذا أيضاً .. قال الخادم الشاب .

كانت الهدية الآن حراماً صوفياً فخماً خاصاً بالضباط الأميركيين .

– أشكره مرة ثانية ، قال الكولونيل .. وتناول من جيبه ورقة نقدية دسها في يد الخادم . لم يتقبلها هذا بل أعادها اليه ، شاكراً .

– لقد أضفت العلاوة إلى فاتورة الحساب .. وسوف لا نموت جوعاً لا أنا ولا أنت ولا المايسترو الكبير نفسه .

– وبقية العائلات ؟

– لا أعرف . إنما سبق لقذائفكم أن هدمت منزلنا في تريفيز .

– متأسف .

– لا بأس ، قال الخادم .. كنت في المشاة ، مثلي ..

– اكرر اعتذاري وأسفي .

– طبعاً ، إنما لا يبدل ذلك شيئاً .. لا يزيـــد في السعادة الشخصية شيئاً يا سيدتي ولا يضمد جرحاً يا سيدي .

– ها نحن هنا ، أخيراً .. وكأننا في منزلنا ، قالت الفتاة .. ولا تستطيع أن تتصور مدى حبي لك الآن .. قبلني بعنف واجعلني أشعر بحبك أكثر فأكثر . أمسك بها الجنرال يشدها اليه ، يقبلها في عنقها بنهم وشهوة وتتأوه هي وجسدها يرتعش . من قوة النشوة .

– أحبك .

– ومهما عنت هذه الكلمة ، قالت تجيبه مقاطعة .

– أحبك واعرف ماذا تحمل هذه الكلمة من معاني .. ان الرسم رائع ولم أجد بعد وصفاً أطلقه عليك ..

– المجنونة ، قالت .. أو المشردة . المستهترة .

– لا .

– الكلمة الأخيرة .. وهذا ما أعلمتني به خادمتي مؤخراً .

– انتظري ، ودعيني أمر بيدي في شعرك أتلاعب به وأحك رأسك .

– باليد المجروحة ؟

– أجل .

– لسنا في الوضع المناسب .. دعنا نجلس إلى الجهة الثانية .

– حسناً ، كما تشائين ..

– ضمني إلى صدرك أكثر .. حطمني ..

– هل تعرفين ماذا تريدين بالضبط ؟

– طبعاً .. وهل في ذلك من ازعاج .

– لا . قال .. بل رائع . تدثري بالحرام جيداً .. لقد اشتدت قوة الرياح كما يبدو .

– تأتينا من القمم العالية ، رأساً ..

– أجل . ولربما كانت أبعد من ذلك .

كان الكولونيل يصغي إلى تكسر الأمواج ويحس بلسعة الرياح تندمج بفحيح حرام الصوف ، وفجأة شعر بالفتاة تزداد التصاقاً به ويده تتلاعب بنهديها النافرين .. ثم مر بيده الثانية ، القبيحة ، فوق شعرها مرتين وثلاثة .. قبلها .. انما جاءت القبلة مُرة كاليأس ..

– أرجوك ، قالت .. دعني أقبلك أنا بدوري .

– لا ، قال . لم انته بعد .

كانت الرياح باردة جداً تصفع وجهيهما بضراوة .. وساعدهما الحرام الصوفي على اتقائها والخلاص من شرها ..

ولم يكن هناك سوى الربان يضرب صفحة الماء ويسير بها على مهل .
– نعم ، قالت . اننا في وضع ملائم الآن .
قبّلها بعنف وراح يبحث عن «الجزيرة» ، يجدها فترة ويفقدها فترة أخرى.. يجب ان أحل فيها وأقيم .. أكان ذلك من أجل الشر أم من أجل الخير .
– عزيزتي ، حياتي ، قلت . ارجوك .
– لا . شدني اليك جداً .. وخذ « الاستحكامات » .
لم يقل الكولونيل شيئاً بل راح يفكر ويجيل في خاطره ما هو قادم عليه الآن.
– ارجوك ، لا تتحرك ، قالت الفتاة .. بلى ، تحرك بقوة .
كان الكولونيل ممدداً تحت الغطاء الصوفي ، ويعلم ان كل مـــا يتوجب على الرجل ان يقوم به تجاه المرأة هو وقف عليه باستثناء مـا يترتب عليه ايضاً ان يقدمه إلى وطنه الأم ..
– أرجوك يا عزيزي ، قالت .. واظن انه لا يمكنني ان احتمـل شيئاً من هذا النوع ..
– لا تفكري بشيء . مطلقاً ..
– هذا ما أقوم به ..
– لا تفكري
– ارجوك ، دعنا من هذا .
– هكذا ؟
– أنت تعرف .
– هل انت أكيدة منه ؟
– ارجوك ، كف عن التحدث به .. اذا سمحت .
صمتت برهة ولم تقل شيئاً .. وكذلك فعل هو ..
كان يمسك برأسها بين يديـــه ويضغط عليه باليد السليمة .. ويتقرب من « الجزيرة » ..
– ارجوك ، قالت . ضع يدك حيث يجب ان تكون .

– هذا ما تعتقدينه ؟

– لا . حاول ان تضمني أكثر وجرب ان تبرهن عن حبك الحقيقي ..

– أحبك من كل قلبي ، أجابها ..

في هذه الأثنـــاء تمايل اليخت بهما وازداد التصاقاً .. ومن كوة مقصورتهما استطاع الكولونيل ان يتبين القصر الكبير وقد انعكست ظلاله فوق صفحـة الماء .. فقبّل الفتاة وقال :

– إنك تحت رحمة الرياح ، الآن يا فتاتي .

– ولكن لا يزال الوقت باكراً .. ألا تدرك ما تحس به المرأة .؟

– لا . لا اعرف الا الشيء الذي تقولينه انت .

– شكراً .. أحقيقة ، ما تدعي ؟

– حسناً .. تخيل ذلك .. وانتظر حتى نعبر الجسر الثاني ..

– اشربي شيئاً من هذا ، قال الكولونيل ومد اليها يدا ثابتة تحمل كأس شمبانيا . فض فوهة الزجاجة وعاد يضيف :

– انه من النوع الممتاز .. وستشعرين براحـة تامة بعده .. خذي واشربي هنيئاً .. انه يطرد الاحزان من قلبك .

– لا اشعر بشيء من هذا . لست سوى امرأة او فتاة شابة .. هل تريـد ذلك ؟ فأنا اشعر انني بأمن الآن .

– اين الجزيرة الآن ؟ وفي اي نهر ؟

– هذا ما يتوجب عليك ان تكتشفه .. كما انني لست بالبلد المجهول بالنسبة لك .

– ان العكس هو الصحيح ، أجاب الكولونيل .

– ارجوك الا تتواقح .. قالت الفتاة ، باستطاعتك اقتحام مجاهل الجزيرة على مهل .. كما فعلت منذ لحظات .

– ليس هذا هجوماً ، قال الكولونيل ، بل هو شيء آخر .

– مهما يكن .. أسرع ، اذ ما زالت الرياح إلى جانبك .. « اهجم » وقبل ان تهدأ العاصفة ..

– أجل ، أجل ، أجاب الكولونيل..سأهجم،ما دامت هذه هي رغبتك.

– أرجوك ، ان تفعل .

اشتدت الرياح وراحت تتلاعب باليخت حتى كادت ان تقلبه رأساً على عقب وتقضي على كل من فيه .. وهذا ما دعا الربان كي يضغط بكل وزنه حتى يعيد التوازن اليه .. بينما كان الكولونيل والفتاة يتتبعان الحركة من تحت غطائهما ..

كفا عن الحديث مدة طويلة ولاحظ الكولونيل ان اليخت استطاع عبور الجسر بصعوبة .. ثم تطلع إلى الفتاة وقال يسألها :

– كيف تشعرين الان يا فتاتي ؟

– على خير ما يرام .

– هل تحبينني ؟

– ارجوك .. لا تصرح مثل هذه الاسئلة السخيفة .

– ان الموج مرتفع جداً .. وبالكاد استطعنا عبور آخر جسر فوق القنال..

– أظنني اعرف اين نحن ذاهبون ؟ لأنني ولدت في هذه المدينة .

– يحدث لي احياناً ان أضل عن مدينتي ، قال الجنرال .. فالولادة في مكان ما لا تكفي .

– انها تعني الكثير ، أجابت الفتاة .. وانت تعرف هذا وتتجاهله .. لا بأس ، ضمني الان إلى صدرك بحنان وغص الى اعماق « الجزيرة » مرة واحدة .

– لنحاول ذلك ، قال الكولونيل ..

– الا يمكنني ان اتفحص شخصيتك ؟

– انها معقدة جداً .. وما عليك إلا المحاولة ..

– أشعر بأنني أنت الآن ، قالت .. وانني كسبت مدينة باريس .

– ما هذا يا فتاتي ؟ قال مندهشا ..

– لا فرق عندي ..

– بعكسي أنا ..

– لماذا ؟ أتراها لا تساوي شيئاً ؟

– لا أفهم شيئاً من كل هذا .

– ولا أرى فائدة ترجى من ايضاحه ، أجابها الكولونيل ..

– اخبرني أشياء حقيقية عن باريس .. احب هذه المدينة جداً .. وما أن فكرت بأنني استوليت عليها حتى ظننت نفسي اتحدث إلى المارشال ناي ، في يخته .

– ليس كثيراً .. اجاب الكولونيل .. كان يقاتل ما بين العشر والخمس عشر مرة في اليوم الواحد..وربما أكثر من هذا .. وأرجوك ألا تحاولي مرافقته أو ركوب يخته .

– كان دائماً أحد ابطالي المفضلين .

– في واترلو مثلا ..؟

– وهل تظنه فشل هناك ؟

– مخيف . قال الكولونيل .. دعينا منه الآن .

– كانوا يلقبونه بأشجع الشجعان .

– سخافة .. ولماذا يطلقون عليه لقب أخبث الخبثاء ؟

– حدثني عن باريس ، من فضلك .. يجب ان نمسك عن حالات الجماع الآن.

– هذا ما أراه أنا كذلك .. من قال هذا ؟

– انا الذي يقوله .. لأنني أحبك .

– حسناً .. قلته ، ومع ذلك تحبني .. فليكن .. ثم أضافت .

– هل باستطاعتنا الجماع مرة واحدة الآن فقط ودون ان أسيء اليك ؟

– تسيئين إلي ؟قال الكولونيل يسألها .. وهل في هذه الأمور ما يسوء ؟..

– ارجوك ،لا تكن شقياً ، قالت وهي تشد الحرام الصوفي فوقها .. اشرب كأساً معي ، إذا اردت .. انني أعلم انك « تعبت » كثيراً ..

– صحيح ، قال الكولونيل .. دعينا من « الجزيرة » الآن .

– حسناً ، كما تشاء ، قالت تجيب .. لقد تعلمت هذه الكلمة منك . وكلمة أخرى .. دعها جانباً وهات ما عندك من احاديث طريفة .

– لماذا تحبين هذه اليد ؟سألها الكولونيل وقد وضعها حيث يجب أن توضع.

– أرجوك ، لا تتظاهر بالبلاهــة .. ودعنا لا نفكر بشيء .. أبداً .. أبداً ..

– إنني أبله ، أجاب الكولونيل .. وستزداد بلاهتي إذا ما فكرت في مــا حدث اليوم وما سيحدث بعد غد ..

– أرجوك أن تكون لطيفاً ومهذباً ..

– موافق .. والآن سأكشف لك عن سر حربي (اكسترا) .. وعـــلى الطريقة البريطانية .. أحبك ..

– لطفاً منك ، قالت ..

– ولكنني لطيف . قال الكولونيل يتطلع من الكوة إلى الجسر ليتأكد من الممر الضيق الذي سيمر منه اليخت ..

– استعمل دائماً الكلمات التي لا يجب استعمالها .. حبني ، أرجوك ، وهذا يكفيني .. ولا يسعك أن تتصور كم أحاول لأحبك بقدر ما تحبني أنت .

– هذا ما تقومين به .؟

– أجل هذا ما أفعله ، قالت، ومن كل قلبي .

أنهكهما الغرام فاستلقيا اليد باليد والخد على الخد

– تفكرين ؟

– في لا شيء . قالت الفتاة ..

– حسناً .. حاولي .

– أجل ..

– اشربي كأساً ..

– ليكن .. هاتها .. بت أجد فيها لذة ومتعة ..

جرعت كأسها وتنهدت بعمق ثم قبلته فوق خده وحركت مكعبات الثلج في الكأس الفارغ .

– هل يمكنني قضاء الليلة في غرفتي ؟

– لا .

– لماذا ؟

– ليس بالشيء المستحسن.. فهو لا يليق بك وبهم.. أما أنا فلا يهمني الأمر.

– إذن يجب أن أعود ، أليس كذلك ؟

– أجل ، أجاب الكولونيل . إنه افتراض منطقي ..

– كم يزعجني أن أتحدث في أشياء حزينة .. أليس بالامكان اختلاق الأعذار لهم ؟

– لا . سأقودك إلى منزلك حيث ستنامين في الحال وتخلدين إلى الراحة .. سنلتقي غداً ساعة تشائين وفي المكان الذي ترغبينه .

– هل أستطيع الاتصال بك هاتفياً في غرفتي ؟

– طبعاً .. ستجدينني مستيقظاً دائماً . نادني ساعة يخطر لك .. مفهوم ؟

– أجل .. إنما لماذا تستيقظ باكراً ؟

– إنها عادة مهنية .

– كم وددتك أن تستقيل من هذه المهنة المرعبة .. وألا تموت ..

– هذا ما أسعى اليه أنا بالذات .. وسأنال ما اصبو اليه يوماً ما .

– أجل . أجابت بصوت هادىء وناعس .. عندئذ سيتسنى لنا ان نذهب إلى روما ونشتري ما نشاء من الثياب .

– ونعيش سعداء ، إلى الأبد .

– لا . ارجوك .. أرجوك .. باستثناء هذا .. لانك تعرف انني قررت الا أبكي أبداً .. ارجوك .. يا حبيبي .

– وها أنت تبكين الآن ، أجابها الكولونيل . أي شيطان دعاك إلى اتخاذ مثل هذا القرار الحاسم ؟

– عد بي إلى البيت ، من فضلك .

– هذا ما كنت أفكر به ، أجاب الكولونيل .

– كن لطيفاً ، وللمرة الأخيرة ..

– بالتأكيد .. أضاف الكولونيل .

نقد الكولونيل الربان أجره ، وعبرا جسر البيازيتا ، ثم الساحة العامة الباردة . سارا ملتصقين ، والكولونيل يضغط منكبي الفتاة ليقيها شر البرد القارس .. تغمرهما السعادة ويدفئهما لهيب الحب .

– هنا صوّب الجندي الألماني فوق طيور الحمام ، قالت الفتاة ..

– لربما كنا لنقتله ، هو وأخيه ، لا فرق .. يستحق ان يشنق ..

– هل لازلت تحبني ؟

– أجل . وكم أود ان افرش كيساً فوق هذه الحجارة الباردة وانقض فوقك ابحث عن « الجزيرة » وابرهن لك كم أحبك !!

– ان هذا ، في نظري ، اقسى من قتل الحمام الآمن .

– انني متوحش .

– ليس دائماً .

– شكراً .

– سنعود إلى هنا يوماً ما .

– انك لا تزيدينني علماً في شيء .. متى تراهم سيهدمون هذه السينما ويرفعون مكانها كنيسة كبيرة .. إنها فكرة الجندي جاكسون ، من الفرقة الخامسة ..

– عندما نشاهد سان مارك يعود ثانية من الاسكندرية ..

– كان فتى من تورسيلو .

– وأنت من تورسيلو .

– أجل.. أنا من بياف الوسطى ومن غرابا،جئت إلى هنا رأساً من برتيكا، أنا من بازوبيبو أيضاً . وآه لو عرفت ماذا يعني هذا .. كان هادئاً يمكن للانسان ان يعيش فيه بعيداً عن المعارك والاجواء المشحونة برائحة البارود والموت ..

– وهل بقيت هناك أنت ؟

–طبعاً ، قال الكولونيل .. انني آخر من يغادر الحفلة .. تماماً كالمدعو غير المرغوب فيه .

– هلا نذهب ؟

– هذا قرارك ؟

– أجل .. انما ارجوك الا تعتبر نفسك كمدعو غير مرغوب فيه .

– حسناً ، ليكن ما تشائين .

– اعرف كيف أتقيد بقرار اتخذه .

– هذا ما لا أشك فيه .

– يجب ان أنام .

– طبيعي . . هذا ما يتوجب عليك القيام به وانت في هذا السن .. اما اذا رفضت تنفيذ هذا ، فانك تستحقين الطرد والشنق .

– أوه ، ارجوك .

– عفواً ، اردت ان أقول : رمياً بالرصاص بدل الشنق .

– ها نحن قد وصلنا ويمكنك ان تكون الآن اكثر لطافة من قبل .

– انني اكثر لطافة الآن مني في أي وقت مضى .

– ارجوك ان تقبلني الان وانت تتمنى لي ليلة سعيدة هانئة ..

قبّلها الكولونيل بشغف وضمها إلى صدره فترة طويلة وكاد ان ينقض عليها ويجامعها في هذا البرد القارس وتحت انوار الساحة العامة .

فتحت الباب ودخلت .. وعاد الكولونيل ادراجه يسير فـــوق الرصيف المبلول ..

لم يكن هناك سوى السياح والعشاق ليستأجروا اليخوت وينعمون بهـا .. يستعملونها لارتياد الأمكنة البعيدة حيث لا جسور توصلهم اليها سيراً على الاقدام .. عليّ ان اذهب إلى مرقص قريب، قال الكولونيل في نفسه، سار خطوات ثم عاد يضيف : لا ، يكفي الليلة ، ويجب ان اعود إلى المنزل .

لم يكن منزله سوى غرفة يتيمة في الفندق ، واذا صحت تسمية الغرفة بمنزل تحتوي على سرير وخزانة ... بيجامته منشورة فوق السرير وبالقرب من المخدة زجاجة شمبانيا وزجاجة مياه معدنية.. وقد حرص الخدم على وضع رسم الفتاة فوق كرسيين وجعلا رؤيته من السرير واضحة وكلية .. مد يده يتناول صحيفة الهيرالد تريبيون الملقاة قرب البيجاما .. قرأ العناوين الضخمة فيها وعاد يهز برأسه ويطرحها بعيداً بقرف واشمئزاز .. تناول جرعة من الشمبانيا ثم جلس فوق سريره يحدق في الرسم الماثل أمامه .

سأشتريه ، قال يخاطب نفسه بصوت عال ، ما زال ليس هناك في الغرفة من انسان غيره ·

فتح الزجاجة وعاد يعب منها بنهم وشراهة وسال السائل الذهبي متدلياً فوق صدره ومرطباً شاربيه الكثيفين .. اشعل لفافة وعاد يسكب الشمبانيا في كأسه ويقول مخاطباً رسم الفتاة :

– بصحتك ، يا فتاتي العزيزة .. بصحة جمالك واناقتك المغرية يا حياتي .

كانت تنظر اليه ، من خلال الرسم ، ولا تقول شيئاً ..

– يا إلهي ! هل أصابني مس من الجنون ؟ ما لي اتحدث إلى الرسم وكأنه حياً ينطق أمامي ؟

سأحاول أن أكون مهذباً للغاية ولطيفاً .. سأحـاول ان اكون كما تريد ، وأبتدىء من صباح غد ، ان شاء الله .

ـ يا فتاتي ، عاد يقول ، وقد اشاح بنظره عن الرسم .. ارجوك ان تعرفي هذا وتتأكدي منه : اعلمي انني أحبـــك وأشتهيك . ارجوك الا تتركيني وتتخلي عني الآن .

اخرج الكولونيل الجوهرات من جيبه وتطلع اليها ملياً .. تلمسها جيـداً وأحس بها باردة بين يديه .. شعر بها حارة تكاد تحرق يديه ..

كان علي ان اضعها في صندوق حديدي صغير واخبئها في خزانتي ، قال في نفسه .. ولكن أي مكان يستطيع الحفاظ عليها أكثر من هذا المكان ؟..

شيء مسلٍ حقاً ..

انها تساوي أكثر من نصف مليون دولار على الأقل..

أعاد الحجارة إلى جيوبه وغطاها بمنديله الأبيض ..

أظنها الآن في مأمن ، قال في نفسه وعاد الى قراءة صحيفة الهيرالد بتمعن.. كان يقرأ مقال ريد سميث ويبتسم مسروراً .

استيقظ الكولونيل قبل شروق الشمس وتيقن ان ليس هناك من ينـــام إلى جانبه .

لم تخف سرعة الرياح بل ازدادت نوعاً ما .. اسرع الكولونيل إلى النوافذ يشرعها ليتأكد من صحو الطقس. لا بأس، قال في نفسه ، سيكون نهاراً رائعاً وها هي الشمس تستعد للشروق لتزيد الجو دفئاً وحرارة .

اتجه إلى غرفة الحمام ، يحمـل بيده الصحيفة ومقال سميث وباليد الأخرى كأساً من الشمبانيا الذهبية .. يا إلهي ! قال في نفسه ، سيكون سروري بالغاً عندما أشاهد المايسترو الكبير مرة ثانية وسيزودني بزجاجات أخرى من هذا الشراب اللذيذ .

جلس والصحيفة في يده ، يفكر في كيفية تمضية هذا النهار الجميل .

ستتصل به هاتفيـاً ، دون شك ، انما ليس الآن ، فيما بعد ، فهي لا تزال مستغرقة في نوم هانىء لذيذ .. إذ ان الفتيات الجميلات ينمن كثيراً .. سوف لا تناديه قبل العاشرة وفي الوقت الذي تفتح فيه المتاجر أبوابها لاستقبال السياح والمحاربين القدامى أمثاله .

ثم ماذا تريدني أن أفعل بهذه الحجارة الكريمة ؟ إنها لا تزال هناك رابضة في جيبي .. ماذا يمكننا أن نفعل بها و كيف نتصرف للتخلص منها ؟

انك تدرك تماماً معنى هذا ، عاد يخاطب نفسه ويقرأ الاعلانات المبوبة في صفحة الهيرالد الأخيرة .. كم مرة لعبت نفس اللعبة ولم تسأم ، أرادت الفتاة أن تروح عنك فقط .. ومن حسن حظها انها تعرفت إلى انسان مثلي .. أضاف يخاطب نفسه من جديد .

كم مرة وقفت إلى جانبهم وجالستهم مع الآخرين أمثالك ؟ هذا أسوأ ما في الأمر . أم انك كنت تحاول دائماً العزلة والتأمل ؟ تعيش مع أفكارك وتأملاتك ساعات وساعات ؟ كأن تنام حتى الصباح ، فوق قبر مهجور ..

ليس هناك من صداقة حميمة في الجيش .. ولا أظن الوضع يختلف عنه في السوق العمومية .. حيث تتغلب المصلحة الشخصية واستجلاب أكثر ما يمكن من الزبائن .. لم تطأ قدماي يوماً سوقاً عمومية .. ولكنني افترضها تعمل كغيرها من المحلات التي اعتاد أفراد الجيش ارتيادها .

سأبعث بجميع مساعدي إلى الخارج .. اسميهم سفراء وأكل إلى البعض الآخر أصعب المهمات في حالات السلم .. روح عن نفسك .. ما لي أراك حزيناً هكذا ؟

ونساؤهم ؟ ماذا أنت فاعل بهن ، عاد يسائل نفسه من جديد .. سأشتري لهن قبعات جديدة أو أرميهن بالرصاص دفعة واحدة .. إذ أن كل هذا يؤدي إلى نفس النتيجة .

تطلع إلى المرآة فأرعبه منظره المخيف .

ماذا عليك أن تفعل الآن ؟ يجب أن تحلق ذقنك وتستحم .. تقص شعرك وترتدي أجمل الملابس .. أعمال سهلة وباستطاعتك أن تقوم بها سريعاً . فأنت فارس في فرقة المشاة يا سيدي .. يمكنك أن تقابل نفسك بجان دارك أو القائد جورج ارمستروغ كاستر .. انني أكيد منه كل التأكيد .. ماذا تنتظر لتتخذ لنفسك خليلة تحبها وتحبك ؟

حسناً ، قال في نفسه ، بعد قليل ستشرق الشمس وتطل من تحت الغيوم

المتلبدة ، عندئذ يتسنى لي أن أتأمل الرسم وأحدق به ملياً .. سوف أحتفظ به إلى الأبد .. سأشتريه ومهما كان الثمن باهظاً .

من تراها تشبه وهي في هـذا الوضع الحالم ؟.. أنا أعرف ، كيف هي .. تنام وكأن النعاس لم يستبد بها بعد ويتغلب عليها .. تبدو وكأنها ترتاح فقط.. وهذا ما آمله من كل قلبي .. آه ، كم أحبها يا الهي. وسأسعى جاهداً لأن أكون عند حسن ظنها واتبع الطريق الذي ترشدني اليه وتودني أن أسير به لتكتمل سعادتنا ، من جديد ، يوماً ما ..

انبلج الصباح واشرقت الشمس .. واستطاع الكولونيل ان يتفرس في الرسم ويتأمله جيداً . لا شك انه فقه ما يرمي اليه هذا الرسم وتفهمه بسررعة أكثر مما يفهم انسان أمي في المعادلات الرياضية والتحاليل اليكميائية .. أجل، قال في نفسه ، انني اتمتع بنظر ثاقب يمكنني من التفريق بين الصالح والطالح ..

لا شك انه عمل فني رائع ، قام به شكسبير نفسه .. ولا يزال يتزعم الحركة المسرحية والادبية حتى يومنا هذا .

هل قرأت الملك لير يا فتاتي ؟ لقد قرأها السيد جين توني ، وكان بطلا في العالم .. وانا كذلك قرأتها .. ان الجنود يهوون شكسبير ويتمشقون قراءته . لأنه يكتب كالجندي بالضبط ولا فرق في الوطنية بينهما .

هل لديك ما تقولينه وتجيبين به سوى ارجاع رأسك الحلو إلى الوراء ؟ قال يسائل الرسم .. ألا يكفيك شكسبير ؟

ليس هناك ما تتخوف منه .. عليك ان ترتاح فقط وتعود إلى الجري من جديد .. لا فائدة منه .. ان دفاعنا ، نحن الاثنين ، لا يرجى منه شيء وسيبقى عبئاً وعالة على افكارنا .. ولكن من يجرؤ ان يقول لك ان تتركنا ؟

لا أحد ، قال في نفسه وهويتطلع إلى الرسم..طبعاً ، ليس أنا من قال ومن أوعز .

مد يده إلى داخل الخزانة ووجد ان الخادم ترك زجاجة شمبانيا، إلى جانب الاولى .

اذا أحببنا الوطن ، قال في نفسه ، يجب علينا ان نتقبله ونؤمن به قبل كل شيء . لقد احببت ثلاثة وفقدت الثلاثة في آن واحد .

لنكن عادلين .. احتللنا مدينتين فقط ، فمن اين جاءت المدينة الثالثة ؟ عاد يصحح اقواله ويتراجع عن اخطائه .

سنعود والنصر حليفنا يا فتاتي ، سيكون لنا وطن ثالث .

– وانت ايها الرسم العاهر ، ما لي أراك تنظر الي هكذا كالمعتوه ؟ تعال وقاسمني فراشي الليلة بدل ان تبقى مسمراً !

ايها الرسم الجميل ، قال يخاطب الفتاة ثانية .. انطق ، قل شيئاً .. انك تفتت قلبي وتدميه .

كانت بالفعل هدية رائعة ومغرية .. تسر الناظرين وتفرح القلب .

هل تعرف ان « تناور » في عمليات الحب .. سريعاً وبجدارة ؟

لم يجب الرسم بشيء .. بل استمر الكولونيل في مناجاته : لا شك انك تدرك ذلك تماماً وتجيده .. ان صاحبتك اكبر عاهرة عرفتها .. تحسن الجماع وتلذ به اكثر من اية امرأة اخرى .

ولكن الرسم استمر صامتاً يزيد في اثارة الكولونيل ويجعله يعب من الشمبانيا الذهبية اكثر فأكثر ..

– انك تعلم ما هو الجماع وتدركه ، أشاباً كنت أم فتاة ام حبي الوحيد ، أو اي شيء آخر ، فانك تدرك كيف يتم ذلك .

ولم يجب الرسم بل استمر صامتاً ، كعادته .

– إذهب الى الشيطان ، قال الكولونيل يخاطبه وقد استشاط غضباً .

– اذهب انت ، قال الرسم ودون ان يتكلم.. ايها الجندي الاميركي القذر.

– أجل ، أجاب الكولونيل وقد اعتاد مثل هذا النداء .. ورفض التقيد ببروتوكول الألقاب التي يحملها .. أحبك أيها الرسم الجميل . أحبك ولا أودك

أن تحقد علي وتغضب مني . أحبك لأنك جميل جداً .. انما أحب الفتاة مئات المرات .. هل فهمت ؟

لا شيء يؤكد لي انها سمعت اقوالي ..

– هل انت مستاء حقاً أيها الرسم الحلو ؟ لا يمكنك ان تتحرك دون إطار ذهبي يليق بالمكانة التي أكنها لصاحبتك في قلبي .

استمر الرسم ساكناً لا « يتحرك » أو « ينطق » وكأن الخادم جاء به توا إلى الغرفة الآن ساعة طلب اليه الكولونيل ان ينقله بعد ان اطلع الفتاة عليه عندما كانا يتناولان طعام العشاء سوية .

عاد يتفرس الرسم من جديد وعرف فيه حبه الحقيقي ..

– ارجوك ان تصفح وتعفو عني .. قد نستطيع ان ننام فترة وجيزة قبل ان تنادينا سيدتك ونبدأ الحديث الذي وعدتني به البارحة ، ساعة افترقنا ..

أجل ، ربما نادتني قبل الموعد المضروب بيننا .

دفع البواب بالجريدة من تحت الباب وتلقفها الجنرال بلهفة من يده دون أن يفتح له أو ينظر اليه .. كان الكولونيل يكرهه تماماً وخاصة بعد أن التقى به في القطار وضبطه يفتش في حاجياته وحقائبه .. حتى ان الكولونيل سأمه وقرر ترك الغرفة منتقلاً إلى غرفة أخرى ، ليبتعد عنـه .. نزل من القطار في المحطة وما أن وصل إلى الفندق حتى عاد من جديد يفتش عن بعض حقائبه .. وإذا به يلتقي بهذا الانسان يسير نحوه ويحمل في يده ما ينقص من حقائب.

– ان عملك لا يشرف مدينتنا ، اكتفى الكولونيل بالقول ولم يضف شيئاً وهو يتسلم الأشياء المفقودة .

استمر السكون فترة ما ..

– أكمل يا عزيزي، أكمل ، قال الكولونيل.. انني لا أحمل أسراراً حربية في حقائبي .. ولم اعتد أن اقوم بأعمال كهذه .

ومنذ ذلك الحين تردت أواصر الصداقة بينهما .. وأصر الكولونيل على تسلم جريدته الصباحية من تحت الباب ليتجنب رؤية البواب .

– أجل ، يا قذر.. لقد ربحت الجولة اليوم ، قال الكولونيل بلهجة إيطالية، اذهب إلى الشيطان ..

ان مثل هؤلاء الشبان لا يقتلون أنفسهم ، قال في نفسه .. ولا يترتب عليهم سوى توزيع الصحف الصباحية وإيصالها إلى أصحابها .. من تحت الباب .. قد

لا يكون هناك من يكره هذا الانسان بقدر ما أكرهه أنا .. من يدري ، علّه من الفاشستيين القدامى ؟

إنما لا أستطيع أن أكره هذا الحزب رغم المحاولات التي قمت بها . هل تعرف السبب ؟ أجل .. لكوني جندياً ..

اسمع أيها الرسم ، هل يتوجب عليّ أن اكره البوش لأننا نقتلهم ؟ هل يجب أن أكرههم كجنود وليس كإنسانيين ؟ ان ذلك يبدو لي طريقة سهلة .

حسناً ، أيها الرسم . لندع هذا جانباً الآن .. انك لا تزال صغيراً على الحب بعد وادراك مثل هذه القضايا الخطيرة .. انك أصغر من الفتـــاة التي تمثلها بعامين .. ولكنها افتى من الجحيم وأكبر منه ..

حتى هذا أيها الرسم ، أرجوك أن تحمله معك الى الجحيم . انك تصلح بالنسبة لي .. تصلح لأن تكون سلوة لي.. انما أراك ساكتاً لا تجيب بشيء .. هل تدرك الى ماذا سيؤول اليه حبنا ؟ قل لي .. هل تعلم ؟

– ماذا حدث أيها الرسم العزيز ؟ سأل الكولونيل الرسم الصامت .. هل بدأت تحس بالجوع مثلي ؟

وقرع الكولونيل الجرس وما ان جاء الخادم حتى طلب اليه ان يعد له طعام الافطار ويأتيه في الحال ..

أكل على عجل وعاد يتمدد فوق سريره يقرأ صحيفته ، بانتظار رنين جرس الهاتف . سوف لا تناديني قبل ساعات .. فماذا تراني فاعلاً طيلة هذا الوقت ؟

ان الشبان يستغرقون في النوم ، عند الصباح ، ردد في نفسه .

– لماذا يهرم الانسان يا أخي ؟ قال الكولونيل يسأل الخادم .

– لا اعرف ، يا سيدي الكولونيل .. ولعلها سنة الأشياء .. سنة الطبيعة.

– أجل ، هذا مـا أعتقده انا كذلك .. هـات ، دعنا نرى ما احضرت : بيض وخبز محمص بالزبدة .. شاي . رائع ، والف شكر .

– هل ترغب ببعض الأطعمة الاميركية ؟

– ليذهب الى جهنم كل ما يمت الى الأميركيين بصلة ، باستثنائي أنا ، هل استيقظ المايسترو الكبير ؟

– هل تود المزيد من الشمبانيا ؟ ولكن ارى ان زجاجتك لا تزال مملوءة.

– لا أظنه يحتاج اليها كثيراً .. في الحقيقة .

– أجل .. أجل .. هذه بالذات .

– لا ، قال الكولونيل .. وأنا كذلك .. احتاج الى المزيد منها الآن .

تناول الكولونيل إفطاره على مهـــل .. كلاعب البوكس وقد تمدد فوق الأرض يستمع إلى الحـــكم يعد حتى الأربعة ويسترخي فترة ليسمع كلمة خمسة فينهض سريعاً وكأن شيئاً لم يكن .

– وانت ايها الرسم ، ارى انه من الافضل لك ان ترتاح قليلاً وتسترخي .. ولعل هذا ما يصعب عليك تنفيذه.. إنك الشيء الذي ندعوه بالعمل الفني الرائع. ليس هناك من رسوم تتحرك وتعبر كما عبرت انت .

« وددت لو كانت معلمتك هنا ... لكنت تحركت اكثر فـأكثر .. كيف يتصرف الفتيات مثلها ، يعرفن اشياء كثيرة نسبة لأعمارهن وحداثة سنهن ؟

« ان الفتاة الجميلة ، عندنا في اميركا ، هي التي تأتي من تكساس .. وقد يساعدها الحظ وتجيبك بطلاقة اذا ما سألتها في اي شهر أو سنة أتت .. يجدن الحساب ويحسنّ معاملتك اذا وفدتهن . يعلمونهن تصفيف الشعر والاعتناء به .

« مارينانا ، التي تمثلها انت ، فهي تنام الان ولا تفكر بهندامها .. تنام والشعر الناعم ينسدل فوق الوسادة وأظنها ستنسى تصفيفه اذا لم تنبهها خادمتها إلى ذلك .

« اتصورها والرياح تتلاعب بشعرها وتفعل به ما تشاء .. وتدغدغ نهديها النافرين وتلصق المريلة الصغيرة ... لا تغضب ... انني اتغنى بجمالك .. »

ما لي اتلفظ بالكلام البذيء ؟ وهذا ما لا يجب فعله ، قال في نفسه .

آدر وجهك ايها الرسم فأنا لا أود اخجالك واحراج موقفك ! سأستحم الآن واحلق ذقني وهذا ما لا تفعله انت مطلقاً .. انما يطلب اليك ان تلبس هندامك وترافقني إلى المدينة .. لا عفوا ، انك لا تتحرك .. وستلازم البيت حتى عودتي ..

خرج من سريره . يجر خلفه رجله المجروحة والتي عادت لتؤلمه مجدداً منذ أيام . اطفأ النور بيده المصابة عندما لمعت الشمس تضيء الغرفة .. وندم على المصاريف الاضافية والاخطاء المثيلة التي يقع فيها من وقت إلى آخر.. وقف أمام المرآة ومر بيده يتلمس ذقنه ويتمتم :

– يا لك من عجوز خطير .

ان الرسم هو شيء من الماضي .. أما المرآة فهي العكس تماماً .. انها الحياة نفسها ، انها حديث اليوم ..

لقد بلغت الخمسين ايها العجوز القذر .. اذهب واستحم الان ، بدل ان تضيع وقتك في احاديث خرافية ، لا جدوى فيها .

ان اليوم ليس كالبارحة وسوف لا يكون كغيره ..

أليس هذا ما قالته لك المرآة ؟

توقف الكولونيل في القاعة الكبرى ، امام مكتب الاستقبالات ، ولم يكن الخادم قد اتى بعد .. لم يجد سوى الحارس الليلي .

– هل تستطيع ان تحتفظ بشيء لي في الخزنة الحديدية ؟

– لا ، يا سيدي الكولونيل .. لا يسمح لأحد بفتح الصندوق الحديدي قبل وصول نائب المدير والخادم المسؤول .. انما استطيع ان احفظ لك معي كل ماتريد ..

– شكراً . لا يهم . ودس المغلف الذي يحتوي على الحجارة الثمينة في جيبه .

– لا تحدث جرائم وسرقات في هذه المدينة يا سيدي الكولونيل ، قال الحارس الليلي مبتسماً .

كان الليل طويلا وسر جداً بوجود من يتحدث اليه ويمضي معه الساعات الطوال .

– لم يسبق ان حدث شيء من هذا ، يا سيدي الكولونيل .. اللهم الا بعض المناقشات السياسية والعقائدية .. والتي كانت تنتهي دائماً بالتوفيق بين الفريقين المتخاصمين .

– ما هي سياستك يا سيدي ؟ سأله الكولونيل .. وقد بدأ يشعر بالوحدة القاتلة .

– تقريباً ما تتخيله يا سيدي .

– هذا ما أراه .. وكيف تسير بقية الأمور معك ؟

– لا بأس .. أحسن منها في العام الماضي .

– والحب ؟ هل عرفته ..

– ليس كثيراً .. إنني لا أهتم بالمسائل العاطفية .. كما أنني لا أحب التحدث بالسياسة وأفضل الابتعاد عنها دائماً ..

– ستتخلى عن كل ما هو عاطفي إذا أصبت بها .

ـ ربما كان ذلك في الجيش .. أيتحدث جنودكم في السياسة ؟
ـ دائماً .. وليس في نفس الموضوع ولنفس الغاية .. يختلفون دائماً من حيث المبادىء والتفكير .
ـ لندع ذلك جانباً ..
ـ أنا من طرح السؤال. وكنت أود أن أتخذ منه قضية تسلية وإضاعة وقت.
ـ هل تعرف المايسترو الكبير ؟
ـ إننا من نفس المدينة .. ومن نفس الحي بالذات ..
ـ إنها مدينة ممتازة .
ـ سيدي الكولونيل .. لقد تعلمت من السياسة أن الانسان المحترم هو محترم دائماً ويحاول البقاء هكذا حتى آخر حياته .
ـ لا عليك من هذا .. إن حزبك لا يزال فتياً .. وليس معصوماً عن ارتكاب بعض الأخطاء ..
ـ أرجوك ألا تتحدث هكذا .
ـ لم تكن هذه سوى « مزحة » صباحية .
ـ قل لي يا سيدي الكولونيل ، ما رأيك ، في الحقيقة ، بالرئيس تيتو ؟
ـ أعرف عنه الكثير وأتعشق سياسته..إنه جاري وقد اعتدت ألا أتحدث عن جيراني إذا ما سئلت عنهم ..
ـ أحب أن أعرف فقط .
ـ حسناً .. إنما هل تعرف أن الناس لا يجيبون دائماً على مثل هذه الأسئلة ؟
ـ أدرك هذا تماماً ..
ـ لا . قال الكولونيل .. إنما أقول لك صراحة أن الرئيس تيتو لديه مشاغل كثيرة.
ـ هذا ما أعلمه عن الساسة العالميين ..
ـ لننتظر ، قال الكولونيل ..
ـ أتمنى لك يوماً سعيداً يا سيدي الكولونيل .

استقل الكولونيل اليخت ودفع عشر فرنكات كأجر للربان .. لم يكن اليخت من النوع الممتاز ولذلك وجد الكولونيل نفسه بـين العمال والفلاحين الذين يعبرون القنال كل صباح .

القى نظرة أخيرة على غرفتي المنبطحة وراءه وشاهد نوافذ غرفته مشرعة مفتوحة على مصراعيها . لم يكن هناك ما يشير إلى هطول الامطار وهبوب العواصف الفجائية .. بل استمرت الرياح القوية تصفر باردة ، مزمجرة .. بدأ جميع الركاب يرتجفون واستغرق الكولونيل في تفكير عميق .

عادت إلى ذاكرته الايام الماضية التي أمضاها سوية مع أعز الاصدقاء لديه ، في خدمة الجيش .. ذكرهم جميعاً وحاول أن يستعيد كل دقيقة رائعة مرت بـه وجعلت من حياته سعادة أبدية ..

توقف اليخت على محاذاة الضفة المواجهة من القنال وتطلع الكولونيل إلى الناس المتشحين بالسواد يتسلقون سلم العربة المطلية بالأسود كذلك . هل هي عربة حقاً ؟ قال في نفسه ... ان للعربة سلاسل أو عجلات !

ليس هناك من سيرد عليك ويعتد بأفكارك ، قال في نفسه .. طبعاً ، ليس في هذا الصباح بالذات . لقد ولى العهد الذي كنت تنال فيه أجراً على كل كلمة تنطق بها .

اتجه إلى القسم البعيد من المدينة ، الذي يقـود رأسا إلى الادرياتيك وهو المفضل لديه أبداً . انخرط في شارع ضيق مظلم واقسم الا يعدّ او يدون الشوارع والازقة التي سيسير فيها ..

في هذه الاثناء سمع شابين يتحدثان عنه .. لم يلتفت اليهما بل أصاخ السمع يسترق ما يرد في حديثهما ولا يترك كلمة واحدة إلا وتنبه اليها .. انهما في طريقهما إلى عملها ، قال في نفسه ، ولربما كانت هذه الكلمات ، كانت بداية حديث طويل بينهما .. ولربما كانا ، ايضاً ، من الفاشستيين القدامى .. ولكن ها هما يتمرضان لي مباشرة ، وفي هذه اللحظة بالذات ... لا أظنهما يحقدان على الاميركيين ويكنان لهم سوءا .

ولعل ما يسيء اليهما ، دون شك ، الزي الذي ارتديه .

أما السؤال الآن فهو لماذا أراني اتنزه واجوب الشوارع في ساعة متأخرة من الليل ؟ما الذي يدعوني إلى مثل هذا التصرف؟ ويأتي الآن دورهما فيؤكدان على انني بت عاجزاً عن التعاطي والقيام بأعمال الحب ..

التفت الكولونيل فجأة إلى اليسار ، وعند أول منعطف في الشارع ، كي يتسنى له ان يقيّم المسافة بالضبط..وما ان انعطف الشابان من وراء الكنيسة حتى كان الكولونيل ، بدوره يختفي في آخر الشارع ويغيب في الظلام الدامس. وقف في الزاوية المظلمة ومن حيث يستطيع أن يرى ويسمع ودون أن يشاهده أحد .. وقف يرقب مرورهما بقربه .. وما أن أصبحا على بعد خطوات منه حتى خرج من عزلته ووقف أمامهما ، يديه في جيب معطفه .

توقفا ، وقد فاجأهما وجوده في مثل هذا المكان ، وراح الثلاثة يحدقون إلى بعضهم البعض .. بينما استغرق هو في ضحك عال ، ملؤه الخداع والرياء.ثم تطلع إلى رجليهما وشاهد الأحذية السوداء الضيقة التي تشد أقدامهما وتبدو ملطخة بالوحول ومبللة بالأمطار .

سوف لا أتعرض لهما بسوء ، قال في نفسه .. ثم أضاف :

وهل يليق بكولونيل ، مثلي ، تجاوز الخمسين من عمره ، هل يليق به أن يتعرض لشبان دونه سناً ومكانة ؟.. كما أنني لا أحب أن أصطدم بأناس فيمدينة أحب سكانها جداً .. وسأفعل كل شيء كي أتدارك مثل هذه الحوادث .

كان يعشق السوق .. اندفع في شوارع وأزقة ضيقة تكتظ بالناس ولذلك لم يكن هناك مفر من الاحتكاك بالبعض ودفع البعض الآخر ليفسح له طريقاً ويمر إلى حيز آخر، إلى شارع أو زقاق آخر ، ينتقل من بائع إلى آخر، وقد التف من حوله المشترون على شتى نزعاتهم : منهم المتفرج ومنهم القاصد للشراء فعلاً .

كان الكولونيل يحب التفرج والاستطلاع .. يقف أمـــام كل بائع ويتأمل بضاعته ، يسأل عن هذه الفاكهة وتلك الخضرة ..

وقف أمام بائعة وقال :

– دعيني أتذوق هذه المقانق مـن فضلك ، قطعة واحدة تكفي .. ناولته البائعة قطعة صغيرة وما ان مضغها حـتى شعر بلذتها .. كانت مصنوعة بطريقة ممتازة وقد أضيفت إليها البهارات والتوابل .. على كونها من ادسم اللحوم ..

– سأشتري منها نصف كيلو .

وانصرفت المرأة إلى اعداد طلبه .. وفجأة عاد يسألها :

– هذا أطيب وألذ ما عندك ؟ أليس هناك ما تحتفظين به ولا تعرضينه ، للزبائن الممتازين ، أمثالي ؟

– هذا أجود الأجناس التي أتعامل بهـا .. ولا أظنك واجداً أحسن منه مطلقاً .

– أضيفي نصف كيلو آخر ..

– لدي كل ما تحتاجه .

هذا ما سآخذه لبوبي ، قال في نفسه .

هل يصدق الايطاليون ان مثل هذا النوع الجيد من المقانق يطعمه الأمير كيون إلى الكلاب ؟ بينا هناك قوم فقراء يتضوعون جوعاً !! ولا يمكنك ، يا سيدي ، ان تقدم قطعة مقانق فاخرة لـكلبك ، أمام عامل يشقى طول النهــار ويتغذى بكسرة خبز وبعض الأعشاب! والأفضل هو الشراء وعدم الافصاح أغنياً كنت.. « غني حرب » ، أم فقيراً تربـح قوتك بعرق جبينك .

دفع الكولونيل ثمن مشترياته وتسلم الرزمة من يــد البائعة وأكمل طريقه يدفع هــذا ويتحاشى الاصطدام بذاك نظراً لقوة الازدحام في هذه الأسواق التموينية .

ان هذا السوق أشبه بمتحف برادو أو بالاكاديمية اليوم ، قال الكولونيل في نفسه . أسرع الخطى وإذا به يجد نفسه في سوق السمك .

توقف يتأمل الأسماك الطازجة ومختلف أنواعها ..

ينتقل من « فرش » إلى آخر ثم يعود اليــه ثانية ، ليمعن النظر في أسماكه ويختار منها ما يشاء .. عرفه بعض البائعين وراحوا يقدمون له أجود ما لديهم من الأصناف الدسمة والطازجة .

وأخيراً ، استقر رأيه على مجموعة من الأسماك وطلب إلى البائع المسؤول أن يوضبها في كيس كبير ويلفها جيداً بأوراق الجيلاتين .

نقد البائع ما يتوجب عليه دفعه ثم سار باتجاه اليخت لينقله إلى الفندق .

دخل الكولونيل مسرعاً إلى قاعة فندق الغريتي الكبرى .

دفع أجور اليخت وربانه ودخل إلى الفندق ليتقي شر الرياح الباردة التي لا تزال تصفر بشدة . استخدم رجلين قويين ليعودا باليخت ويساعدا الربان على مخر المياه الباردة .

– هل اتصل بي أحد هاتفياً ؟ قال يسأل البواب الجالس في مركزه ..

– اتصلت بك سيدة ، مرتين متتاليتين ، أجاب البواب بالانجليزية .

– ألم تترك رقم هاتفها ؟

– أجل . إليكه .

– اطلبه ، من فضلك ، وبسرعة ، قال يخاطب البواب .

وطلب البواب الرقم المدون أمامه على ورقة صغيرة .

– يمكنك أن تتحدث من الغرفة المجاورة ، يا سيدي الكولونيل ..

– إنك لا تضيع الوقت سدى ..

– من هناك ، قال البواب .

وفي داخل الغرفة انتزع الكولونيل الجهاز اللاقط وقال :

– هنا الكولونيل كانتويل .

– لقد طلبتك مرتين يا ريشار ، قالت الفتاة الشابة .. إنما أخبروني أنك خرجت .. أين ذهبت ؟

– إلى السوق .. كيف حالك يا حلوتي ؟

- لا أحد يستمع إلينا.. إنني حلوتك وملكك فقط.. ومها كانت الظروف..
- أنت . هل نمت جيداً ؟
- حلمت انني اتزلج وامارس هوايتي المفضلة .. إنما في الظلام الدامس .. وبدونك ، يا حياتي .
- هكذا يجب ان يكون .. وهكذا يجب ان يتم . لماذا استيقظت باكراً ؟
- متى يمكننا ان نلتقي ، وأين ؟
- متى تشائين وحيث تريدين .
- ألا زلت تحتفظ بالأحجار الكريمة . والرسم ؟ هل افادك في شيء ؟
- اجل . اجل . إن الحجارة لا تزال في جيبي وفي الجهة اليسرى ، قرب القلب بالضبط . كما انني تحدثت إلى رسمك طيلة مساء البارحة .. ويا للأسف، لم ينطق بشيء!! عاودت الكرة في الصباح ، وجاءت النتيجة سلبية كما في المساء.
- هل تحبه أكثر مني ؟
- لا يزال تذوقي للأشياء طبيعياً . ولكنه مفيد ومسل .
- أين يجب أن نلتقي ؟
- ما رأيك بتناول الفطور في فلوريان ، في الساحة وإلى الجهة اليمنى المطلة على القنال ؟
- سأوافيك إلى هناك بمدة عشرين دقيقة اذا أردت .
- أشتهيك ، قال الكولونيل .
وهنا انتهت المكالمة بين الاثنين..
وما أن خرج من غرفة الهاتف حتى شعر وكأن كماشة أو قفصاً حديدياً راحا يشدان عليه ويضغطانه بين أسنانها في محاولة للقضاء عليه تماماً.. وللحال اتجه الى مكتب البواب وقال يخاطبه بالإيطالية :
- دومنيكو ، هل بإمكانك أن تذهب وتأتيني بكوب ماء ؟
أسرع البواب يلبي الطلب واتكأ الكولونيل فوق الطاولة .. وعاد الخادم بالماء يناوله الى الكولونيل الذي تناول أربعة حبوب مهدئة للأعصاب من جيب

سترته وابتلعها دفعة واحدة .. وعاد يتكيء من جديد فوق الطاولة .

– دومنيكو ، قال ..

– نعم .

– لدي شيء جديد وهام في هـــذا الظرف .. وأودك أن تحتفظ لي به في الخزنة الحديدية . أما السحب فسيتم بواسطتي ، شخصياً أو بإيعاز مني.. كتابياً كان ذلك أم شفوياً وبواسطة الهاتف .. هل تود أن أسلمك هذا كتابياً .

– لا . ليس ذلك ضرورياً .

– ولكن ، انت ؟ يا عزيزي ! لا أظنك ستعيش أبداً ..

– تقريباً .. أجابه البواب ، إنما سأنوه بذلك كتابياً وسيوقعه ، بعـدي ، المدير ونائبه .

– إنها شرفاء جداً ، قال الكولونيل مقتنعاً.

– ألا تود أن تجلس وترتاح يا سيدي الكولونيل ؟

– لا . ومن يرتاح في مثل هذه الفنادق ؟ اللهم إلا الضعفاء المتقدمون في السن ؟ أترتاح أنت ؟

– لا .

يمكنني أن أرتاح ، وقوفاً ، أو باستنادي الى الطاولة أو الحائط .. بعكس مواطني : تراهم ينامون ويخلدون الى الراحة ساعات طوال .

كان الكولونيل يتحدث بسرعة ويحاول استعادة حيويته ومظهره الأنيق .

– هل صحيح ما تقوله ؟

– طبعاً .

– لا أظن .

– لدينا الكثير من الأسرار الحربية والتي لا يمكن البوح بها .. كما أن الجنرال نفسه يأبى التحدث عنها أمام زوجته ، كي لا تنقلها هذه الى رفيقة لهـــا .. وأنت تعلم مدى خطورة الثرثرة النسائية. سنجمع في المرة القادمة ، الميكروبات ونبثها من حول البندقية وعلى بعد عشرين الف متر .

– شيء رهيب ومخيف ..

– ولعل الأسوأ من ذلك هو ما تسرب من أسرار حربيـــة خطيرة إلى الصحافة المحلية وتناقلتها الأنباء العالمية وعممتها على جميع صحف العالم.

– هل تظنهم جادين في اتخاذ مثل هذه الاجراءات !

– لا . لم يحدث أن نفذ شيء من هذا .

بدا الكولونيل غاضباً و كأنه جنرال ، بأربعة نجوم يتألم ..

لم تعط الحبوب المفعول الذي كان ينتظره .. وهذا ممـــا زاد في غضبه وقلقه .. تراجع إلى الوراء وقــال : « وداعاً ، يا دومنيكو » ، ثم غادر قاعة الفندق الرحبة .

فكر في انه يلزمه اثنتي عشر دقيقــة ليصل إلى المكان الذي ستوافيه اليه حبيبته .. فانطلق باعتزاز ، يسير ثابت الخطوات ، لا يأبه بالجسور و كثرتها .

وصلت الحبيبة في الموعد المحدد . كانت جميلة أكثر منها في أي وقت مضى . . وما أن اقتربت من الكولونيل حتى قالت :

– قل الحقيقة ، يا ريشار . هل تشعر بارتياح ؟ قل لي . أرجوك .

– طبعاً ، أجاب الكولونيل .

– هل ذهبت إلى كل مكان في السوق ؟

– زرت بعضها فقط .. ولم تتح لي الفرصة كي أذهب إلى أمكنة البط المتوحش .

– شكراً .

– على ماذا ؟ قال الكولونيل .. كما انني لا أذهب إن لم نكن سوية ..

– ألا تجد انه لزاماً علينا ان نقوم برحلة صيد ، معاً ، إلى ذلك المكان؟

– لا . بالطبع لا . كان حرياً بألفاريتو أن يدعوك لو انه فعلاً ، يريدك .

– وهل هذا هو السبب الوحيد الذي منعه عن دعوتي ؟

– أجل ، أجابها الكولونيل .. ماذا تريدين أن تأكلي الآ ن ؟

– إن طعام الفطور سيىء هنا، ولا أحب هذا المكان عندما يكون مبللاً .. منظر حزين .. وحتى الحمام لا يجد له زاوية يتقي فيها شر المطر وقساوة البرد .. ما رأيك لو عدنا الى غرفتي وتناولنا طعامنا هناك ، في جو دافىء ، بدل أن نبقى هنا عرضة للطقس البارد والرياح العاتية ؟

هل تودين ذلك فعلا ؟

- أجل.

حسناً .. ولكن .. فقد تناولت أنا طعاماً خفيفاً هذا الصباح ..

- حقاً ؟

- سأكتفي الآن ببعض القهوة والحليب .. وشيئاً من البيض المسلوق .. وأنت ؟ هل أنت جائعة ؟

- جداً ، قالت تجيبه بصراحة ..

- سنهتم « بالقضية » بجدية ، أجاب الكولونيل .

انطلقا الى الفندق والرياح تلسعها ، من الوراء ، بسياطها القاسية ، وشعر الفتاة ينسدل فوق جبينها تارة فتمسك به بيديها الناعمتين وترجعه الى الوراء لتتلاعب به الرياح كيفما شاءت . التصقت بالكولونيل وطلبت اليه أن يشدها اليه بقوة ، ثم أضافت :

- هل تحبني ، رغم الهواء البارد ؟ ولا شك انه قارص ، أليس كذلك ؟

- أحبك ، ولا دخل للرياح في هوى القلب .

- أحببتك وطارحتك الغرام طيلة الليل.. حلمت بك تصهرني وتقبّل كل عضو في جسمي .

- كيف كان التزلج ؟

- رائع جداً ..

- هل تزلجت طيلة الليل؟ وهل تعرضت للسقوط في الأودية والانحدارات؟

- لا . إنما خلدت بعد ذلك الى نوم لذيذ وهادىء .. ثم استيقظت مرتاحة ، فرحة .. كنت معي ونمت كالطفل البريء .

- لم أكن معك ، ولم أنم .

- ولكنك معي الآن ، قالت وهي تلتصق به أكثر فأكثر .. من الأمام .

- ونحن قد وصلنا ، تقريباً .

- أجل .

– ألم أقل لك ، وبلهجة خاصة ، إنني أحبك ؟
– لقد قلته قبلا .. وأودك أن تقوله الآن وإلى الأبد .
– أحبك ، قال . وأودك أن تعتبري هذا الحب رسمياً ونهائياً ، أرجوك .
– سأتقبله وأعتبره كما تريده أنت وتوده .
– إنها الطريقة الفضلى ، قال .. إنك لطيفة وشجاعة .
صمتا فترة وعادا إلى الحديث مرة أخرى عندما اقتربا من الجسر ..
– أجل ، يسرني جداً ..
– انني في غاية النشوة والسرور .

أعد لهما المايسترو الكبير طاولة جيدة قرب النافذة ومن حيث يمكنهما أن يشاهدا القنال بكامله .. لم يكن من انسان آخر ، غيرهما ، في قاعة الطعام .

بدا المايسترو مرتاحاً منذ الصباح الباكر ، يوزع نكاته .. يحي الجميع ويستقبل زواره هاشاً ، باشاً .

– تمنياتي الطيبة بالتقرير الطبي ، قال الكولونيل يخاطب المايسترو ، يشد على يده بحماس ويبتسم . ثم هل تعلم انني تناولت طعام الفطور في غرفتي كما يفعل أكثر الأغنياء ، وقد عنيت بهم : أغنياء الحروب ، دون سواهم .. ولكن تلك السيدة ..

– هذه الفتاة ، قال المايسترو يقاطعه ويبتسم .

بدا مرتاحاً وفي صحة جيدة وقد استعاد نشاطه وحيويته .

– ان هذه السيدة ، عفواً الفتاة ، تود فطوراً ممتازاً .. أحسن فطور قدمته في حياتك .. فطوراً فخماً .

– فهمت ، قال المايسترو وهو يحدق إلى ريناتا .. وقد شعر بأن قلبه يكاد ان ينخلع من صدره .. انها روعة في الرقة والجمال ، لا يضاهيها جمال أو خفة دم في العالم بأكمله ..

– ماذا تريدين ان تأكلي يا فتاتي ؟ قال الكولونيل يسألها .. ويتأمل ذلك الجمال الطبيعي الماثل امامه ، دون رتوش .

– كل شيء ..
– وبعد ؟ هل لديك افكار جديدة ؟
– شاي بدل القهوة ، وكل ما يعده المايسترو ويقدمه لنا .
– هذا يعود إلى شهيتك .. قال المايسترو .
– انا الذي يقرر ..
– يمكن اعتبار ذلك شرفاً لنا ، قال المايسترو .. ما رأيكم بحساء الهليون وبعض العصافير المشوية ، جاءني بها أناس أثق بهـم جيداً .. كما يمكن اعداد أطباق شهية من العجة والسمك الطازج ..
– لا فرق عندي ، أجابت الفتاة بارتياح وبدون تصنع أو تكلف .
– وانا كذلك .. يمكنني ان اردد نفس ما صرحت به الفتاة ..
– علينا الان ان ننتقل إلى القسم الجدي من الموضوع ونقلع عن الهزار ..
– هذا ما ارتئيه انا كذلك .. آتنا بزجاجة شمبانيا .
– فقط ؟
– وقسماً من اللحم المجفف ، الذي سبق لك وأخبرتني انه يأتيك من كندا ، قال الكولونيل .

تركهما المايسترو وذهب يعد الاطعمة المطلوبة .. وما ان اصبحا وحيدين حتى قال الكولونيل يخاطب الفتاة :
– كيف حالك الآن يا فتاتي ؟
– أشعر بازدياد الجوع .. واشكرك على كل ما ابديته من لطف واعتناء .
– لا شكر على واجب .. قال الكولونيل ، بالايطالية .
جلسا بهدوء حول الطاولة ، وأخـذا يتأملان شروق الشمس البهي على القناة .

– أمي ترفض الاقامة الطويلة مهما كانت رفاهية المنزل وترجع ذلك لنقصان الاشجار . ولذا فانها تقضي عطلاتها في الريف . فأجاب الكولونيل :
– هذا هو السبب الرئيسي الذي يذهب من أجله الناس الى الريف . بامكاننا

ان نشتل بضع شجرات بشرط ان نجد مكاناً يحتوي على حديقة كبيرة نوعاً ما .

– انا أفضل الحور « اللومبردي » وشجر الدلب .

– أنا أحبهما أيضاً وأحب أيضاً « الحور » وشجر الكستناء . ولكن يا فتاتي لن تري أشجاراً جميلة الا متى زرنا أميركا .

– هل سنرى أنواعاً جديدة من الاشجار ، أثناء اقامتنا في أميركا ، وهل سوف نقف في كل محطة بنزين أو استراحة بغض الطرف عن اسمائهم ؟

فرد الكولونيل قائلاً :

– سنحط الرحال في كل منزل أو مخيم سياحي . أما من ناحية ما تبقى من المحطات ، فإننا سنقف نهاراً فقط .

– كم أحبذ السفر الطويل والتوقف في محطات الاستراحة وبذر ما أملك من النقود وأشبع نفسي . هذا ما يحصل يا « ماك » في الأفلام الأميركية أو في الكتب .

– هذا ما يحصل في محطات خاصة لهذه الأشياء .

– ومحطات الاستراحة ما تكون ؟

– تعرفين أن الأمكنة التي سنزورها ...

– آه ! قالتها الفتاة وقد احمرت . عفواً ، فإنني أحب كثيراً تعلم اللغة الأميركية ، ولكنني ، بدون شك، أقول أشياء لا معنى لها كما يحصل لك عندما تتكلم اللغة الايطالية .

– هي لغة سهلة للغاية . وكلما اتجهنا نحو الشمال كلما هانت اللغة وسهل فهمها .

أحضر « المعلم الكبير » الترويقة ، ومن الرائحة الفائحة منها عرفا أنها سياً كلان لحماً جافاً وكلاوي مشوية وعليها يزاد الشمبليون المشوي أيضاً .

– يهيأ لي أن هذا لذيذ ، قالت الفتاة . شكراً كثيراً أيها المعلم الكبير . ثم وجهت الكلام الى الكولونيل مستعلمة :

– أيجب أن أتكلم الأميركية ؟

ومدت يدها الى المعلم الكبير بخفة ورشاقة وقالت له : أنت رائع ..
فأجاب المعلم الكبير :
– شكراً ، مدام .
فعادت وسألت الكولونيل :
– أيجب علي أن استعمل كلمة « خبير » بدل « رائع » ..؟
– كلا ، فالاثنتين متساويتين .
– أهكذا كانوا يتكلمون في الشمال عندما كنت صغيراً ؟ ماذا كانوا يقولون عند الترويقة ؟
– لقد كان الخادم يخـــدم ويأمر في الوقت عينه . فكان يقول : « تعالوا واملأوا بطونكم ، وإلا رميت بالترويقة في سلة النفايات » .
– علي أن أتعلم هذا لاستعماله عندمـا نكون في الريف . وفي يوم من الأيام عندما نعزم سفير انكلترا وزوجته المملة ، سأعلم الخادم ترديد هذا القول .
– سيفقد من شأنه ، قالهـــا الكولونيل ، ولكن مع ذلك ستكون عملية مثيرة .
– قل لي شيئاً من الاميركية الجيدة حتى يسنح لي ترديده الى المعـلم الكبير عندما يدخل . سأقوله له بصوت منخفض كأنني أعطيه موعداً كما كانوا يفعلون سابقاً .
– هذا يتوقف على نفسيته . فإذا كانت علامات النفور بادية على وجهـه ، فبإمكانك أن تقولي له : « قل لي، ماك ، هل دفع لك لكي تتخذ هذه الشخصية القاسية والنافرة ، أو ماذا ؟
فقالت الفتاة :
– جميلةجداً. ومن ثم رددت القولبصوت كانت قد تعلمتهمن«غيدا لوبينو».
– هل بإمكاني أن أقول هذا الى المعلم الكبير؟
– بكل تأكيد . ولم لا ؟ أيها المعلم الكبير !
تقدم المعلم الكبير ثم انحنى بكل انتباه :

– « قل لي، ماك، هل دفع لك لكي تتخذ هذه الشخصية القاسية والنافرة».
قالتها الفتاة بقسوة.

فأجاب المعلم الكبير :

– نعم ، وأشكرك على تحديدك الوضع بمثل هذه التعابير الصحيحة والواقعية .

ثم نظر الكولونيل الى الفتاة وقال لها :

– ماذا سنفعل بعد الترويقة ؟

فأجابته قائلة :

– ما رأيك لو صعدنا نتأمل الرسم لنرى اذا كان يساوي شيئاً. أريد أن أقول اذا كان جميلا في النهار .

– فليكن ، قال الكولونيل .

عندما صعدا معاً ، وجدا الغرفة نظيفة ومجهزة . ذلك مما سر الكولونيل لأنه كان يأبى أن يجدها والفوضى قائمة بها .

فقال الكولونيل للفتاة :

– قفي بالقرب منه . ثم تذكر شيئاً فأردف : لو سمحت .

فأطاعت الفتاة ووقفت على جانب الرسم . فألقى الكولونيل عليها نظرة من عين المكان الذي تأملها منه البارحة ، وقال :

– ليس هناك ، بدون شك ، أي تقارب . انني لا اتكلم عن وجوه الشبه . فالتشابه كاملة عناصره .

– هل يوجب أن يكون هناك تقارب . قالت الفتاة وهي تضع رأسها على الرسم .

– كلا . ولكن البارحة تكلمت مع الرسم كأنني أتكلم معك .

– أمر لطيف جداً . وذلك يدل على ضرورته .

كانا مستلقيين على السرير عندما خاطبته قائلة :

– ألا تغلق النوافذ ابداً ؟

– كلا وأنت ؟

– عندما تمطر فقط .

– هل تعتقدين اننا نتشابه كثيراً ؟

– لا أعرف . لم تسنح لنا الفرص بعد كي نكتشف ذلك .

– فرصة حقيقية ، كلا . ولكننا تلاقينا مرات تحضني على الابداء بهذا الرأي

– وماذا يهمك اذا قلت ذلك ؟

– لاأعرف . ولكنني أعتقد انه أفضل من لا شيء.

– صحيح . انها حيلة للتجربة . !

– ما هي أشجانك في هذه الحياة ..؟

– واجبات الآخرين ، ثم أردف سائلا :

– وأنت ؟

– أنت .

– لا أحب أن أكون شجناً . لقد كنت عدة مرات ابن عـاهرة تعيساً ولكنني لم أك قط شجن الآخرين .

– حسناً ، فانك شجني اليوم .

– عظيم جداً . فلتوافق على ذلك .

– أنت لطيف بأخذك هكذا الأمر . أنت طيب جداً هذا الصباح . انني مؤاخذة نفسي على أن الأمور هي على هذه الحال . أرجوك ، خذني بين يديك ، ودعنا من الكلام ومن الأحلام .

– التكلم ومضغ الماضي هما الشيئان الوحيدان اللذان بامكاني أن أقوم بهما .

– لا تقل ذلك . فانك ضليع بشتى الأمور .

– صحيح ، قال الكولونيل . فانني أعرف فن الهجوم والدفـــاع وحتى التراجع . وهذا أيضاً ؟

– أنت ضليع بفن الرسم والمطالعة وتعرف جيداً الحياة ومتطلباتها .

– هذا سهل جداً . يكفي أن ينظر إلى الرسم دون حكم مسبق وأن يقرأ الكتاب بروح واسعة ومتعطشة . أما الحياة فيكفي أن نعيشها .

– حاضر ، حاضر .
– لا تنزع بدلتك عنك ، إذا سمحت .
– انك تقوم بأي شيء عندما أقول لك « إذا سمحت » .
– انني أفعل أشياء دون ذلك .
– ليس غالباً .
– كلا ، أجاب الكولونيل ، « إذا سمحت » هي عبارة جميلة جداً .
– إذا سمحت ، إذا سمحت ، إذا سمحت .
– « بير بياسيره » . هذا يعني من أجل الغبطة . انني أود أن نتكلم دائماً الايطالية .
– ذلك بالامكان . ولكن هناك أشياء تفهم أكثر بالانكليزية ، قالت الفتاة .
– « انني أعبدك يا حبي الأخير ، والوحيد ، والحقيقي . آخر مرة عندما أزهر الزنبق على جدران الحديقة . وتعالوا كلوا واملؤوا بطونكم وإلا سأرمي بذلك في سلة المهملات » . ألا تود أن تقول ذلك في غير لغة يا ريشار ؟
– كلا .
– قبلني بعد ، إذا سمحت .
– لست بحاجة إلى « إذا سمحت » .
– شخصياً ، لانتهي بالكون نوعاً من « اللاضرورة إلى إذا سمحت » . الشيء الجيد في أمر موتك . أنه ليس بامكانك أن تتخلى عني قط .
– أرجو أن تكوني أكثر لطافة . راقبي لسانك الجميل بهذا الشأن .
– انني فظة عندما تكون فظاً . ألا تحب أن أكون مشابهة لك ؟
– لا أحب أبداً أن تختلفي عما أنت عليه . وللمرة الأخيرة أعترف لك بأنني أحبك كما أنت .
– انك تعبر عن اللطافة بكل وضوح أحياناً . ماذا جرى لك ولامرأتك . اذا لم يكن ذلك سراً .

– لقد كانت طموحة وقد كنت أكثر الأحيان غائباً .

– تود القول انها تركتك لتغذي طموحها بينما أنت ، فقد تركتها لأن الواجب يتطلب منك ذلك .

– نعم ، أجاب الكولونيل وهو يحاول أن يتذكر ذلك مبعداً عنه الأحزان والآلام التي تتعلق بماضيه ، لقد كانت أكثر طموحاً من نابوليون .

– مهما كان ذلك ، أرجو أن لا نتكلم عنها بتاتاً . أرجو المعذرة على طرحي السؤال . أعتقد أنها ستكون حزينة ببعدها عنك .

– كلا ، انها متكبرة كثيراً وليس من المعقول أن تكون حزينة . انني أعرفها جيداً وأعرف انها قبلت بي زوجاً لكي تسهل لنفسها الدخول إلى المحيط العسكري . وذلك مما يساعدها على اتمام وظيفتها على أكمل وجه لقد كانت صحفية .

– انهم قوم يشمئز منهم ، قالت الفتاة .

– انني موافق تماماً على رأيك هذا .

– ولكن كيف اقترنت بصحفية ما تزال تزاول مهنتها ؟

– لقد قلت لك انني اخطىء أحياناً . قال الكولونيل .

– دعنا نتكلم عن أشياء مرحة .

– حاضر .

– ولكن ذلك مرعب . كيف أقدمت على مثل ذلك ؟

– أأعرف ذلك ؟ بإمكاني أن أمدك بالتفصيلات . ولكن دعينا من ذلك .

– نعم ، دعنا من ذلك إذا سمحت . ولكنني لم أك أتصور الامور على هذه الاحوال المخيفة . قل لي ، هل سوف تعيدها ؟

– أقسم لك انني لن أقدم على ذلك .

– هل سوف تكتب لها ؟

– كلا ، طبعاً .

– ألن تذهب وتكلمها عن علاقتنا لكي تكتب عنا بعد ذلك في مقالاتها ؟

– كلا . كنت في البادىء ، أطلعها على جميع الأمـور وكانت تضعها في مقالاتها . ولكن ذلك كان في غير بلد . على كل لقد ماتت العاهرة .

– أمتأكد من ذلك .

– كتأكيدي بموت « فيبوس » الفينيقي . ولكنها تجهل ذلك تمام الجهل .

– ماذا تفعل لو كنا معاً على « البيازا » والتقيت بها ؟

– سأنظر أمامي غير عابىء بها لكي ابرهن لها انها قد خرجت من حياتي .

– شكراً جزيلا . قالت الفتاة . تعرف ان ذكرى امرأة يصعّب الأمـور وخصوصاً تجاه فتاة تنقصها الخبرة .

– لا يوجد هناك أية امرأة ، قال الكولونيل وعيناه تشع بالذكريات ، لا في ذاكرتي ولا في أي مكان آخر .

– شكراً جزيلا. عندما أنظر اليك ،أؤمن حقاً بما تدعيه .ولكن أرجوك، ألا تحدق ولا تفكر ابداً بي .

– أيجب ملاحقتها دوماً واعتبارها كشجرة ؟ سألها الكولونيل بحنق .

– كلا ، ولكن لننساها .

– هذا أمر شبه خيالي .. قال الكولونيل .

والعجيب في ذلك ، انه حقيقي . عجيب ، لانها كانت حاضرة في الغرفـة لمدة ما ، وقريبة لكي تزرع الخوف في القلوب .ولكنها قد ذهبت الآن إلى الأبد، ملتهية ، حاملة معها عقد طلاقها .

– أمر عجيب ، قال الكولونيل ،.. كان ذلك الحقيقة الصرفة .

– انني مسرورة جداً ، قالت الفتاة ، ولكنني أتساءل لِمَ سمحوا لهـا الدخول إلى النزل .

– اننا نتشابه كثيراً هكذا ، ولكننا تبحرنا كثيراً وذلك يكفي .

– يمكنك العودة اليها إذا أردت . فاننا لا يمكننا أن نتزوج بسببها .

– انها في عالم النسيان . قال الكولونيل . ولكن من المعقول أن يعاودها الحنان في حال نظرت جيداً إلى نفسها في المرآة .

– الآن وقد خرجت من الغرفة ، لا يجب علينا أن نقول عنها أشياء ليست بحميدة .. ولكنني كامرأة ايطالية ، أرجو لها الموت .

– أنا أيضاً ، اجاب الكولونيل ، وبما أنها قد ذهبت ، دعينا من الكلام عنها .

– سيكون ذلك إلى الأبد . قالت الفتاة .

استلقيا معاً ، وهيمن السكون ، وأخذ الكولونيل يشعر بدقات قلب الفتاة . وكانت هذه الاخيرة ، هادئة ومحبة . كل ما جال في أفكارهما كان قد اعترفا به و حين قبل فمها ، انقطع خط التفاهم بينهما . فقالت الفتاة :

– ريشار ، آسف على كون الامور صعبة للغاية .

– لا يجب أن نأسف أبداً . قال الكولونيل . لا يجب التكلم عن الخسارة والربح يا فتاتي .

– أعد .

– فتاتي .

– أتتفضل باخباري أشياء مفرحة ألذكرها طول فترة الاسبوع ، وتكلمني أيضاً عن الحرب من أجل تربيتي .

– دعينا من الحروب .

– كلا . فانني بأمس الحاجة لها من أجل تربيتي .

– أنا أيضاً .. قالها الكولونيل .. هناك قائد في جيشنا ، توصل بفضل حنكته إلى معرفة أكبر مخططات العدو . فتقدم على رأس قواته وتصرف ببراعة مما

جعل القيادة العليا تمنحه امتيازات خاصة تفوق مـا منح إلى من هو أعلى رتبة وشأنا . وهذا مما سمح لنا أن نغتسل ونقضي أجمل عطلة اسبوعية ·

– نحن الان في عطلة اسبوعية .

– اعرف ذلك . قال الكولونيل . وأعرف أن أعد إلى سبعة أيضاً .

– انك عصبي المزاج .

– كلا .. ولكن عندي نصف دهر من العمر ، وأعرف ماهية الاشياء .

– كلمني عن باريس لأنني أحب أن أفكر بك وبها طيلة الاسبوع .

– يا فتاة ، ألا يمكنك ان تتركي باريس جانباً ؟

– ولكنني كنت فيها وأود العودة اليها . ولذلك أود معرفة المزيد عنها . انها أجمل بلاد العالم بعد بلادنا . أريد أن أعرف أشياء حقيقية عنها لكي أحملها معي .

– سنذهب معاً إلى باريس وسأطلعك عليها هناك .

– شكراً . ولكن أرجوك أن تخبرني شيئاً عنها من أجل هذا الاسبوع فقط .

– « ليكلاك » كان دنيئاً كما سبق واخبرتك . شاطر جـداً ، متعجرف ، وطموح الى أقسى الدرجات . انه ميت الآن .

– نعم .. لقد أطلعتني على ذلك .

– قيل انه لا يجب ان يقال كلام رديء عن الأموات . على ما اعتقد ، هذا هو الوقت المناسب لكن تقال الحقيقة عنهم . لم أقل عن أحد وهو غائب ما لم أقله وهو حاضر . وتابع الكولونيل قائلا : بدون ورقة حرير ..

– دعنا من التكلم عنه ، لقد سئمت منه .

– لماذا ، ماذا تريدين ؟

– أتودين ان اخبرك عن الذين سجل التاريخ اسماءهم ؟

ـ نعم ، إذا سمحت ، ان ذوقي معدم من كثرة مـــا طالعت من المجلات ولكنني سأطالع « لأنني » في فترة غيابك ، وسأذهب الى القداس كل صباح ألا يكفي هذا ؟

ـ اذهبي إلى « هاربر » قبل ان تتناولي فطور الصباح .

ـ سأذهب .. قالت الفتاة ، ولكنني أرجوك ان تطلعني عن مشاهير القواد.

ـ ألا تعتقدين انه من الأفضل ان ننام سوية ؟

ـ كيف ننام ولم يعد معنا متسع من الوقت .؟ قالت ذلك ثم رمت رأسها بقوة على ذقن الكولونيل مما جعل هذا الأخير ينحي ذقنه .

ـ حاضر ، حاضر ، سأتكلم .

ـ أعطني أولاً يدك كي امسك بها هكذا ، ستكون بيدي عندما أطالع « دانتي » وعندما أفعل أشياء أخرى .

ـ « دانتي » كان أمرءاً دنيئاً جداً ، وكان أكثر ادعاء من « ليكلاك » .

ـ أعرف ذلك .. ولكنه لم يكن يكتب بدناءة .

ـ صحيح ، ليكلاك كان يعرف كيف يحارب بابداع .

ـ اذاً اخبريني .

كان رأسها يستريح على صدر الكولونيل عندما قال هذا الأخير .

ـ لماذا لم تريدين ان اقلع عني بدلتي ؟

ـ أحب ان استشعر بالازرار . أسيء هذا ؟..

ـ تباً لك . قال الكولونيل .. كم شخصاً من عائلتك تشاجر ؟

ـ كلهم . قالت الفتاة .. كانوا تجاراً وكثيرون منهم رؤساء هذه المدينة كما تعرف

– ولكنهم تشاجروا جميعاً ؟
– جميعاً ، حسب معرفتي .
– حاضر ، قال الكولونيل . سأطلعك على الذي تودين معرفته .
- اخبرني أجمل الاشياء وأبدعها . هذا كل شيء . قليل من الدنيء الاكثر دناءة . من المجلات .
– « دومنيكا دل كرياري » أو « تريبونا اللستزانا » .
– أكثر ، اذا بالإمكان .
– قبلني أولاً ..

وقبلته بقوة وبحنان . ولم يعد بمقدرة الكولونيل ان يفكر بالحرب ولا بأي شيء آخر . واخذ يفكر بها ويحسها الملتصق به . أخذت انوثتها منه كل مأخذ . ماذا تراه يفعل وكل ذلك تحت طائلة يديه. وتسلطت فكرة الموت على ذاكرته . الموت هو أسوأ الاشياء . فهو يأتينا فجأة أو على الهويني . فهو يأتينا مصطحباً معه تلك الزفرات كالـتي تصدر من الاسلحة الاوتوماتيكية . من الممكن أن ينتج عن قنبلة يدوية أو من مدفع مورتر ، لقد رأيته أمام عيني عندما اسقطت علينا طائرات العدو دفعة من قنابلها . من المعقول أن يزور المرء وهو في سريره غاطاً في نومه . اعرف ذلك تمام المعرفة فقد قضيت عمري كله بصحبته وكانت مهنتي هي أن أقدمه للناس . ولكن ماذا أقول لهذه الفتاة المستلقية إلى جانبه ..

– ماذ تريدين أن تعرفي يا فتاتي ؟ سألها الكولونيل .
– كل شيء .
- حاضر ، قال الكولونيل ، هيا بنا .

استلقيا على السرير وصرا أفخاذهما على بعضهم وألقت الفتاة رأسها على صدر الكولونيل فغطى شعرها المالس عنق صديقها ثم شرع يحدثها ..

– كنا قد أبحرنا بدون أي عوائق ، ولكنهم كانوا في انتظارنا على الضفة الاخرى. وكان لا بد أن نتحد مع المظليين الذين كانوا قد وصلونا مع الامدادات

الاخرى . فاستولينا على عدة مدن وتمركزنا بها بقوة . ثم عدنا واستولينا على « شربروك » . كانت الحالة صعبة للغاية . فالاوامر كانت تصلنا من قائد يدعى « ليتنغ جو » ومن الاكيد أنك لم تسمعي به ولكنه كان قائداً ممتازاً .

– تابع ، اذا سمحت ، فقد سمعتك تتكلم عنه من قبل .

– بعد شربروك ، استولينا على كل ما وقع تحت طائلة أيدينا. أما أنا ، فقد اكتفيت بعرش الاميرال . ولكن أعرف اشخاصاً استولوا على اكثر من ستة ملايين فرنك فرنسي كانت القيادة الالمانية قد أصدرتها . وكان الخمسون فرنكاً يساوون دولاراً . والكثيرون من الشعب باتوا يملكون أدوات فلاحة حديثة عوضاً عن بغل صغير . لم أسرق في حياتي غير هذا الدائر لانني كنت أعتقد ان السرقة تجلب الشؤم في زمن الحروب . ولكنني شربت الكونياك وكنت الهو كثيراً . كان الدائر صديقي الوفي كما كان التليفون كل حياتي . كان لدينا خطوط تفوق عدد أسواق الدعارة في تكساس .

– أرجوك أن تتابع حديثك مخففاً نوعاً ما وقاحتك . لا أعرف ماذا تعني هذه الكلمة ولا أود معرفة معناها .

– تكساس هي من الولايات الفخمة .. قال الكولونيل ، ولذا اتخذتها مثلاً لأن نسبة الجنس اللطيف فيها تفوق عدد الرجال .

– تابع

– وقصارى القول اننا انتقلنا إلى فرجة الغابة . أرجوك قولي لي إذا كان حديثي يزعجك .

– كلا .

– اذن قطعنا الغابة . قال الكولونيل وقد أحنى رأسه على صدرها وبات في حالة اعتراف لا محادثة . في اليوم الأول امطروا علينا بقنابلهم وأصبح ليلنا نهاراً فخربت رداراتنا ولكننا أصلحناها في اليوم الثاني ولكننا توقفنا في ذلك اليوم وأخذنا نلهو . تعرفين انني أعبد الجامعة .

– تابع ولكن بلطف .

– لم تكن الأحوال مثمرة .. تابع الكولونيل ، فقد كانت أحوالنا جيدة

وكذلك اخواننا الانكليز الذين كانوا يحلقون بطائراتهم فوق سماء انكلترا .. كانوا في أعالي الأجواء بها مما جعلني أقول لمساعدي الضابط انهم يستحقون لقب « ولهلا اكسبرس » .

– كلا . اعرف جيداً « ولهلا اكسبرس » . لم نرها في القوة التي تتكلم عنها. ولكننا رأيناها عدة مرات.

– كنا على الف وثمانمائة متر خلف المكان الذي منه سنهاجم العدو . أتعرفين ماذا تعني هذه المسافة في الحرب عند الهجوم ؟

– كلا ، وكيف اعرف ؟

– ثم أمطرت مقدمة « الولهلا اكسبرس » بدخان ملون ورجعت إلى قاعدتها .. فتمكنا بذلك من معرفة قواعد العدو . وكانت هذه الأخيرة صلبة ومتحصنة للغاية . ومن المحتمل كان يصعب على أي كان طردها لولا المغامرة الجبارة التي عشناها في تلك القوة . وبعد ذلك يا فتاتي ، عادت الولهلا اكسبرس وامطرت تلك القواعد بوابل من القنابل وخصصت الكثير منها الى المناطق التي كان العدو يعتزم مجابهتنا وتوقيفنا فيها . وبعد هذا ، اعتقدنا أن الأرض ليست الا بركاناً . فالاسرى التي كانت لدينا أخذت ترتجف كمثل المصاب بالملاريا . كانوا من المظليين الاشداء ولكنهم عجزوا عن صد رعبهم. كان ذلك وقصف مدروس كما ترين . وقصارى القول يا فتاتي كي لا أقتل وقتك وأزعجك بهذه القصص ، اننا تقدمنا الى خطوطهم . وبدلاً ان تقف الطائرات عن القصف ، أخذت تمطرنا بقنابلها معتقدة ان العدو ما زال على تلك الخطوط .

اذا كان للرجل ضمير ، قال الكولونيل، يجب عليه أن يفكر وفي يوم أو آخر ماذا تعني فكرة امتلاك الجو .

– اعطني كأس « فلبوليسلا » قال الكولونيل . ثم تذكر شيئاً فأردف ، إذا سمحت . اعذريني لا تندهشي ، يا صغيرتي فأنت التي طلبت أن أروي لك قصصاً .

– لست صغيرتك . لا بد انك تفكر بامرأة أخرى .

– هذا صحيح . فأنت ، حبي الحقيق والوحيد .

هل هذا صحيح ؟ لا يمنع أنك أردتني أن أتكلم ..

– أرجوك تكلم ، قالت الفتاة ، كم أود أن أكون صغيرتك في حال عرفت ماذا علي أن أفعل . ولكنني لست الا فتاة من هذه المدينة مغرمة بحبك .

– سنتصرف اذن حسب النتائج . قال الكولونيل . واحبك أيضاً . هذه طريقة كلام اعتنقتها من الفيليبيين .

– ولكنني أفضل أن اكون حبيبتك لا غير .

– أنت حبيبتي ، قال الكولونيل ..

– أرجوك لا تكن وقحاً . أحبني حباً نقياً صحيحاً . وأرجوك أيضاً أن تصارحني بالحقيقة . اذا كانت لا تؤلمك .

– سأقولها لك . اجابها الكولونيل . وسأعمل جهدي لكي ارويهـــا على حقيقتها . وأفضل ان تتعلميها مني اذا كنت فضولية ، على أن تتعلمينها من كتاب .

– أرجوك ، لا تكن خبيثاً . أرو لي الحقيقة وضمني بقوة ثم افرغ لي حمولة قلبك اذا كان ممكناً .

– لست بحاجة إلى ذلـــك . ليس هناك أي شيء في قلبي باستثناء الاستعمال المحكم للمدمرات الثقيلة . ولكن بشأن تدعيم المشاة وحمايتها ، فهناك شخص اشتهر بذلك وهو بيتا كزادا . وهو شخص يدير قفاه إلى كل من يدعي بالمعرفة اكثر منه .

– أرجوك .

– اذا رغبت يوماً بالاستغناء عن ذلك المستهتر الذي هو انا ، فأني ادلك إلى انسان آخر وأوصيك به .

– انت عكس ما تقول ، وانا احبك مهما يكن من امرك .

– اعطني قرصين مـــن الحبوب المسكنة واملئي الكأس خمراً ، ودعيني أروي لك اشياء اخرى .

– ليس هناك ما يدعوك إلى ذلك ..

– ربما كان ذلك احسن..ولكني اتساءل دائماً : من يهتم بالحرب . ياإلهي؟

– ربما انا وانت فقط ، أجابت ويدها تتلاعب بشعره. ارجوك ان تبقى عاقلاً ولا تفسد علينا لذة الحب ونشوته . ضع يدك هناك ...

– ايها الجيدة ام الرديئة ؟

– الرديئة ، أجابت الفتاة .. تلك التي أحبها ولا استطيع ان انساها طيلة الاسبوع . لا استطيع ان احتفظ بها كما تحتفظ انت بالحجارة الكريمة .

– انها في الصندوق الحديدي ، وتحت تصرفك ، وأضاف يقول :

– هيا بنا ننام ، ونتناسى الأشياء المادية ..

– إلى الشيطان وبئس المصير أيتها الأمور المحزنة ، قال الكولونيل مغمضاً عينيه .

ها هو وطني ، ردد في نفسه ، ومن المستحيل أن نتخلص من الحنين اليه.

– لماذا لا تنتخب رئيساً للولايات المتحدة ؟ سألته الفتاة .. انك تصلح لأن تكون رئيساً ممتازاً .

– أنا . رئيس ؟ خدمت في الحرس الوطني ، في ولاية مونتانا ، يوم كنت في السادسة عشرة من عمري .. لم ألبس الأزياء الرسمية ، وليس فيّ أية صفة من صفات الرئيس.. كما لا استطيع أن أكون رئيساً للمعارضة أو أنكبّ فوق دليل الهاتف وأقف أمام عدسات المصورين ..

– لا أفهم شيئاً من هواجسك هذه ، ولا أظن ان معلوماتي ستذهب إلى حد التقصي .. إنما يرهبني سماع مثل هذه الاعترافات .. لا تغضب. دع الغضب يجتاحني ويبتعد عنك أنت ..

– هل تعلمين ما معنى بياع خردة فاشل ؟

– لا .

– ليس في ذلك ما يخجل . لدينا الكثير منهم .، واحد على الأقل ، في كل مدينة . لا ، يا فتاتي .. أنا لست جندياً يقف عند الجبهة .. لأن هـذا يقودك حالاً إلى أرلنفتون ، أما إذا مـا أبقت القنابل من جسدك شيئاً .. وتنفيذاً لرغبات عائلتك .

– هل هي مكان لائق ارلنفتون ، هذه ؟

– لا أعلم ، قال الكولونيل .. لم أدفن فيها بعد أبداً .

– أين تريد أن يدفنوك ؟

– فوق ، في أعالي الجبال ، في الهضاب ..

– افكر بأنهم سيدفنونك في لاغرابا ..

– لا فرق .. انما المهم أن يكون ذلك في بقعة اخترقتها القنابل وتراكم فوقها روث البقر أيام الصيف .

– أتعيش المواشي هناك ؟

– أجل . انها هناك دائماً .. حيث العشب في اخضرار دائم .

– ولا تود أن تتعرف إلى مقبرة ارلنفتون أو أية مقبرة أخرى ؟

– لا أحب هذا .. انها أشبه بدورات المياه النتنة ..

– أرجوك ألا تتوافح ..

– أردت أن في ذلك أنانية وحب ذات .. وهـذه من الأشياء التي أكرهها جداً .

صمت برهة يفكر ثم عاد يقول :

– لا . تزوجي . وارزقي خمسة اطفال .. أدعيهم كلهم بريشار .

– قلب الأسد ؟ أجابت الفتاة . وقد اغراها العود إلى الحوار بعد ان لمست فيه ما يتناسب وعواطفها الرقيقة تجاه هذا الكولونيل الاميركي .

– قلب الرعديدة العاهرة ! أجاب الكولونيـل بامتعاض وقرف.. قلب الناقد الذي يلذع بسياط قلمه الناس الآمنين ويجرحهم دون ان يميز بـين صدق القول وخطئه .

– أرجوك ألا تكون صلفاً ، قالت الفتاة .. ولا تنس انك تسيء إلى نفسك قبل أن تسيء إلى أي انسان آخر .. ضمني اليك بقوة ودعنـا لا نفكر بشيء آخر .. غير الحب .

ضمها إلى صدره بأقوى مـا يمكن وحاول أن لا يفكر في شيء .. غيرها .

كانا في سرير واحد ، لا يتحركان . الفتـاة بين أحضان الكولونيل الذي قطع على نفسه عهداً بألا يفكر بشيء سوى بلذة الحب ، لم تكن هذه هي المرة الأولى .. فلطالما مرّ في لحظات كهذه لا تنسى ، وفي أمكنة أكثر من أن تحصى وتعد لم يكن لديه شيئاً يفعله الآن .. لقد فات الأوان وانقضى عهد الشباب إلى الأبد .

لم يكونا كأوتيلو وديسموند ، مع ان الفتاة كانت تفوق بطلة شكسبير جمالاً ورقة .. وكان الكولونيل قادراً على الحرب ، تضاهي شجاعته شجاعـة المور ، ان لم تفقها .

– تصلح هؤلاء العواهر كجنود ممتازين ! انما كم قتلنا منهن في الماضي ؟ مـا يوازي جيلاً بكامله ! على ما أظن .. هذا إذا ما أضفنا اليها آخر حملات القادة المراكشيين ضد عبد الكريم .. حيث عملوا على إبادتهم الواحد تلو الآخر .. لم ينكل بهم أحد كما فعلنا نحن مع البوش وقبل أن يكتشفوا الأنهيت .

.. هل تودينني أن أقص عليك كل شيء بلطف وهدوء ؟

– أفضل ذلك كثيراً .. وهكذا يتسنى لنا أن نتبادل الحديث ونناقش الأفكار .

– لا أجد هناك ما يستأهل المشاطرة ، قـال الكولونيل . خذي كل شيء لك يا فتاتي .. سوف لا تفهمين جيداً الحملات وماذا تعني في الحروب .. سأعطيك مثلاً . رومل ، إذ استطعنا ان ندمر له جميع مواصلاته .. وأوكلنا هذه المهمة

إلى سلاح المشاة ... لاحقاً نحن واشترك معنا الطيران الانجليزي .. وددت أن أرشدني امور كثيرة .. هو وارنست أوديت .

أخبرني ، فقط ، ما تشاء ، و شرب هذا الكأس . توقف عن الحديث اذا شعرت بألم أو أي شيء آخر .. والا .. لا تقل شيئاً ابداً

– كنت كولونيل احتياط ، بدأ يقول .. انتقل من كتيبة إلى أخرى أشرف على الجرحى ، أخفف عنهم وأضمد جراحهم .. أو احل محل كولونيـــل آخر قتل او أصيب بجروح بلغة أو كولونيل آخر جرد من رتبته وزج في السجن .. لم يقتل أحد تقريباً .. بل كثر عدد المسرحين والساجين .

– اكمل . أرجوك . ألا تود ان تشرب دواءك ؟

– دعني منه الآن ، أجاب .

– لقد شرحت لي ذلك ، قالت الفتاة .

– كم هو مؤسف ان لا تكوني جندياً .. بالنظر لما تتمتعين به من عمق تفكير وذاكرة قوية .

– لا أطلب أكثر من ذلك . شرط ان أخدم تحت امرتك .

– لا تفكري بهذا .. انني خبيث جداً .. وقانوني .. أثناء الوظيفة .. انما لم يساعدني الحظ .

– لقد نلنا نصيبنا من الحظ .. ويكفينا أن نكون سوية .

– أجل ، أجاب الكولونيل . أعاطلاً كان أم جيداً ..

– ومع ذلك .. هو الحظ .

– اتفقنا .. أجاب الكولونيل .انما الحظ لا يكفي للعراك .. انـه شرط ضروري . ان الذين يخوضون غمـار الحرب متكلين على الحظ ، يلاقون حتفهم بفخار ووقار كجنود مشاة نابوليون .

– لماذا تكره المشاة ؟

– أنا لا أكره شيئاً يا فتاتي ، أجاب الكولونيل وجرع نصف كأسه دفعـة

واحدة ، انما لي نظره خاصة في ذلك وقد توصلت اليها بعد تفكير عميق وحوار طويل مع نفسي دام سنين.. مما كون عندي اعتباراً للبعض ومقتاً للبعض الآخر.

– ألا يتمتع المشاة بمزايا خاصة بهم وواقعية في آن واحدة ؟

– لا . أجاب الكولونيل . ثم أضاف مستدركاً : ربما كان لديهم ذلك في الماضي ، أما الآن ، وفي وقتنا ، فلا .

– ان كل يوم يمر ينتزع منك ظناً .

– لا . العكس هو الصحيح.. اذ أشعر بغرور جديد عند شروق شمس نهار جديد . وليس هناك ما يمنع بقطع دابر كل ما هو ضار ومضن .. ويجب أن يتم ذلك بشفرة موسى حادة .

– أرجوك ، لا تقاطعني هكذا .

– إنك لا تقاطعين .

– قبلني وضمني إلى صدرك ، هل تريد ؟ دعنا ننظر إلى مياه القنال تترقرق تحت الضوء الساطع .. ومن ثم يمكنك أن تتابع حديثك .

نظرا الى القنال البراق سوية ثم استطرد الكولونيل يقول :

– أوكل إلي أمر كتيبة وبأمر من قائد الفصيلة بعد أن جرد رئيسها الشاب لعدم توفر الكفاءات المطلوبة فيه .. مع أنني عرفته منذ ثمانية عشر عاماً .. يعمل في نفس السلك .. كان ذلك جل ما ابتغيه .. وكل ما صبوت اليه من رتبة عسكرية . تقدمت منه وسألته :

– كيف تخسر كتيبتك ؟

– عندما تحيط بك كتيبة عدوة ولم تكن انت بعد في المكان الذي يؤهلك للدفاع عن نفسك . ان أولاد المهنة أذكياء جداً . كان جميع هؤلاء البوش محترفين باستثناء المتهوسين منهم .. ان كل هذا مهم جداً ، وقد ورد في الصحف وتناقلته الألسن .. وهكذا وجدتني مجبراً على تسلم زمام الكتيبة ..

– أتمسك بزمام واحدة وتتغاضى عن ثلاثة أخر ، فتعرضها إلى الهلاك والاندثار ...

صمت الكولونيل برهة وعاد يسأل الفتاة :

– أليس في حديثي ما يسيء اليك ؟

– لا . إنني لا أفهم التعابير المحلية وبإمكانك أن تشرحها لي فيما بعد وعندما يحلو لك ذلك .. أرجوك الآن ان تستمر في الحديث وتسرد ما بقي من قصتك.

– ما ان تدخلي المدينة ، حتى تهاجمك الطائرات من الخلف فتبيد ما تبيد وتقتل ما تقتل ، ناشرة الرعب والدمار . إن ما أحدثك به هو حقيقة واقعة ، شاهدته بنفسي .. ويحتدم القتال بين أسراب الطائرات .. جاءت تمهد الطريق وتحمي الجيوش من طيران العدو المضاد . وسأخبرك ، فيما بعد ، ماذا يشبه ذلك .

رفع الكولونيل نظره إلى السقف يتأمل النور البراق يرسم أشكالاً هندسية رائعة .. تعكسها مياه القنال الرقراقة ، الصافية .

ثم تطلع الى الفتاة الجميلة الجاثمة أمامه .. وفكر في أنه سيتركها بعد قليل .

– دعينا من حديث الحرب الآن .

– أرجوك .. أرجوك .. أكمل سيكون لدي ما يكفيني طيلة الأسبوع .

– على الأقل ...

– إنك لا تقدر كم هو صعب انتظار أسبوع .. وخاصة لفتاة في عامها التاسع عشر .

– تيقنت كثيراً من طول ساعة الانتظار ، أجاب الكولونيل .. ويمكنني أن ابرهن لك بأن الدقائق تصبح ساعات وأياماً .

– أجل . أرجوك . أكمل .

استمر الكولونيل يروي ما عاناه من أحداث الحرب ومغامراته .. وخاصة ما حدث له في باريس وكيف أنه برهن عن جدارة في الجندية ، وعندما كان ضابطاً مسؤولاً عن كتيبة بكاملها .. حدثها كذلك عن حصار اكس لاشبال وكيف اخترق هو الحصار وفتح الطريق الى المانيا ..

ثم عاد يطرح نفس السؤال التقليدي :

– هل أزعجك حديثي ؟

– إنك لا تزعجني أبداً .. ما دمت تقول الحقيقة ، وليس مـــا يزعج في القصص الحربية سوى الأكاذيب .

– إنك فتاة غريبة الأطوار .

– أجل ، أجابت ، وأعرف ذلك منذ زمن بعيد .

– هل تظنين نفسك قادرة على القتال ؟

– لا اعرف اذا ما كنت قادرة . انما بإمكاني ان اتعلم اذا ما حاولت ان تعلمني .

– سوف لا أعلمك مطلقاً . سأكتفي بإخبارك النكات فقط .

– قصصاً محزنة عن موت ونهاية الملوك ؟

– لا .. عن كل ما يعرف بـ « ج. أ. »[1].

أخبرها الكولونيل شيئاً عن حياة الجندية الخاصة وكيف كانوا يلتفون كل مساء حول النار ويقرأون جريدة واحدة .. يتسامرون ويستعيدون ذكريات الماضي . ولعل ما أثار دهشتها هو حديثه عن اقترانه بإحدى الممرضات في مخيم الجنود الجرحى .

– ولكن كيف استطعت ان تتزوج فتاة كهذه ؟

– بالغلط ، كما سبق وأخبرتك .

– حدثني بعد .

– ما الفائدة من ذلك ؟ ولماذا تريدينني ان استبدل الجهل بالكلمة الصادقة؟

– سأسجل كل ما تقوله ، اذا اردت .

– ان هنا مـــن المراسلين ما يكفي .. مدربين وكل يكتب حسب سجيته وأذواقه .

---

(١) معناها (G.I.) وهي كلمة تطلق على جنود الجيش الاميركي (المترجم) .

تنفس الكولونيل بارتياح وتناول كأسه يجرع ما تبقى فيه من الخمر المعتق ولف خصر الفتاةبذراعيه يشدها اليه ويلتهم شفتيهابشهية بينما راحت يده تعبث بشعرها وانحدرت حتى نهديها ..

سوت ثوبها وتطلعت إلى الكولونيل تقول :

– حدثني عن المدينة .

– في الحال ، أجاب . انما لا أريد ان اسيء اليك .

– انك لا تسيء إلي مطلقاً .. انها مدينة قديمة ولدينا الكثير من المحاربين القدامى .. نحترمهم ونعرف أوضاعهم أكثر من أي مواطن آخر . نعرف انهم ليسوا براحة تامة ويكرهون النساء .

– ألازعجك أنا ؟

– ما رأيك أنت ؟ قالت الفتاة الشابة .

– انني انحر نفسي واقضي عليها ، يا فتاتي .

– لا أظن ذلك يا ريشار .. ولا اعتقدك اقدمت على عمل يؤثر على مزاجك ويزعجك . لا تكذب ،أرجوك يا عزيزي .. وخاصة إذا كان الوقت قصيراً ولا يتسع إلى ذلك .

– اتفقنا .

– ألا تجد نفسك مجبراً على قول كل هذا .. لتطهر نفسك من كل مرارة ؟

– ثقي بي يا فتاتي .

– تابع حديثك ، إذا شئت ..

اسمعي يا فتاتي ، قـال الكولونيل .. لقد انتهينا الان من روايات الرقص والخداع ، وكذلك من حكايات كنساس ، حيث البذور تنبت وتنمو بسرعة فائقة .. واليك هذه القصة الاخيرة عن الحرب :

« اقتتلنا جداً .. » انه عمل روتيني ولكنه تثقيفي في آن واحد .. علىهناك من يهمه ما حدث. واليك القضية بالتفصيل :

هاجم البيض في الساعة ه .. وروّج الحمر انهم يلتظرون كي يحيطوا بها من الوراء .. انها خدعة سهلة . أليس كذلك ؟ قـــال الكولونيل يخاطب الفتاة الشابة .. يجب ان تنفذ هذه الاوامر قبل العشاء .

– لا يمكن ان نكون جميعاً في مدفعية القتال ، أجابته الفتاة بلطف . انني احترمها اكثر من اية كتيبة اخرى ، وخاصة الطيارين ... تكلم ، أرجوك ، ودعني اعتني بكل أمورك .

– ان الطيارين ممتازون ويستحقون كل اعتناء تام وتقدير ، قال الكولونيل.

تطلع إلى السقف وعاد يتأمل الانوار المتلألئة فوق صفحة المياه الرقراقة .. وعاودته ذكرى الكتيبة الضائعة والتي كان يرأسها هو .. لم يكوّنها هو .. بل آلت اليه بالوراثة . لم يبق منها أحد معافى سوى القليل.. كانت الاصابات كثيرة واحدثت تشوها أبديا لدى البعض .

- كان فيلقا ممتازاً .. واستمر هكذا حتى اوعز الي ان ادمره نزولا عند اوامر الاخرين .

- لماذا نمتثل للغير عندما نثق في انفسنا تماماً ؟

- يطيعون الاوامر ، في جيشنا ، اطاعـــة عمياء ، أجاب الكولونيل .. وتأملين دائما بالحصول على معلم صالح .

- ومن أي الانواع كان قائدكم ؟

- من الممتازين !!

- ألا تريد ان تنام وتنال مني ما يبغيه كل رجل من المرأة ؟

- أجل ، أجاب الكولونيل ، وبكل شهية وغبطة .

– نمت برهة لا بأس بها ، قالت الفتاة بصوت هادىء . ثم أضافت : هل هناك شيئاً يسرك وتودني أن اقوم به .

– لا ، أجاب الكولونيل ، شكراً .

امتعض فجأة وقال :

– سأنام عندما أريد وساعة أريد ، مفهوم يا ابنتي .

– أنا لا أستطيع ابداً ، قالت الفتاة ، أنام عندما أجد رغبة في النوم وحسب .

– انك رائعة .. و« تنامين » أحسن من أي انسان في الدنيا .

– سوف لا أغر باطرائك ..

– نامي ، أرجوك .

– لا . تكلم بصوت منخفض وضع يدك المشوهة في يدي .

– منذ متى هي مشوهة وسيئة ؟

– ولكنها هكذا ، أجابت الفتاة .. أرجوك ان تسرد أخبار الحرب بروية وتؤدة ..

– أمر صبياني . ومع ذلك يستحق ان ينفذ ..

استمر الكولونيل يحدث الصبية عـــن مغامرات الحروب واهوالها .. يمعن في التفاصيل ويستعمل اللهجات الأميركية التي لم تكن الفتــاة تدرك منها شيئا .

ـ أود ان اعرف ماذا تقول وتعني .

ـ اعني ان الحروب ، اذا ما اشتعلت ، لا ترحم .

ـ انك تتحدث كدانتي ، قالت بصوت خافت .

ـ أنا هو دانتي الآن ، أجاب .

– سوف أمعن في التفاصيل ، ما دمت تشعرين بنعاس .

تأملها وتمعن فيها بفضول . كانت أجمل من بقية الفتيات اللواتي التقاهن في حياته . كن يجئن ويذهبن بلمح البصر ولا يتركن وراءهن من أثر . لم يحفظ في ذاكرته إلا بعض ملامح السمراوات منهن . يعملن في البارات وعاب الليل ولا يدركن من هم آباؤهن !

ليس هذا بالتصرف اللائق ، قال في نفسه . ما زال لا يود اطلاع الفتاة على شعور وأحاسيس شبيهة بهذه .. لا شك انها ستسيء اليها.. وقد استغرقت في نوم عميق وبدت كهرة مفترسة .

مر بيده فوق شعرها وقال :

– نامي يا حبيبتي ، سأوقظك ساعة يحين موعد الفطور .

كانت الفتاة نائمة ، عـــلى ثغرها ابتسامة رقيقة وفي يدها يد الكولونيل المشوهة .. تضمها إلى صدرها وتحبها بقدر مـا يمقتها هو ويكرهها . تلنفس بعمق وارتياح كإنسان مرتاح الضمير ، مطمئن البال .

– روى الكولونيل كل شيء ، وبصوت يشبه الهمس:

وبعد أن سمعنا الجنرال والتر سميث يقول ان الهجوم بسيط وهـــو أشبه بالألعاب الصبيانية ، سررنا جـــداً ونفذناه بكل طيبة خاطر . كان هناك « الأحمر الكبير » رقم ١ والذي يدعي بأنه قوي كالحديد لما يتمتع به من حسن

الدعاية .. كما كان هناك أيضاً ، الفيلق التاسع والذي يفوق فيلقنا بدرجات .. بينما لم يكن سوانا ، في الحقيقة ، من يطلب اليه المضي ويتوانى .

لم يتسع الوقت لنقرأ المجلات والصحف .. ولا لنقوم بأية تسلية أخرى .. إذ كنا نتحرك إلى المعركة دائماً قبل بزوغ الفجر .

يقسمنا الجنرال إلى أربعة .. وهذا ما لا أنساه مطلقاً بالنظر للسرور الذي يغمرنا كلما قمنا بهذا الترتيب .

صدرت الأوامر بأن نهاجم ، بمساعدة « الأحمر الكبير » ، كتيبة المدفعية الأولى في جيش الولايات المتحدة .. ولم نطلع الجنرال على سير الأعمال التي قمنا بها .. إذ هاجمنا نفس الموضع الذي رغبه الألمان .

حسناً ، ومهما يكن من أمر ، فان ترتيب الفيلق وإعـــادة تنظيمه ، أمر حربي متفق عليه .. وسوف لا أطيل الحديث عنه : اذ بالامـــكان ان نجد التفاصيل الوافية عنه في جميع الكتب العسكرية .

تثاءبت الفتاة ونظرت إلى الكولونيل تقول :

— ان قصة الفيلق البائس تؤثر في نفسي جداً .

— أجل ، وانا كذلك. أجـــاب الكولونيل . هيا نشرب كأساً أخرى ، وبعدها تنامين من جديد . انما ارجوك ان تعرفي هذا : ان الحرب انتهت وباتت في عالم النسيان .

« لا تظني ذلك ادعاء يا فتاتي » ، قال في نفسه ، ونام حبه من جديد. كان نوماً عميقا يختلف عن اي نوم آخر ، وخاصة عندما وصل وتعرف إلى الفتاة . لم يرد ان يتذكر تلك اللحظات ...

ولكن من انت ايها الأنسان البائس لتسمح لنفسك بانتقاد الوصوليين ؟ انظر إلى المهمة التي توليتها وخرجت منها فاشلاً .

رغبت ان اكون ، وكنت بالفعل ، ضابطاً في جيش الولايات المتحدة .

كنت متردداً ، احياناً ، ولقد تكلمت كثيراً عن الذين نجحوا حيث فشلت انا .

سرد الكولونيل حادث جيلسبورغ وكيف تمت هـــذه الملحمة البشرية الرهيبة وعن الدفاع المستميت الذي اظهره كل من الجانبين .. اذ قتل عضوان كبيران من اعضاء الاكاديمية الحربية .. وهذا ما اظهرته ، فــيا بعد ، دوائر الاحصاء الخاصة ...

كيف يريدونني ان اذكر ذلك دون ان تحز المرارة في نفسي ؟ وليكن مراً اكثر مما تتصوره هذه الفتاة .. انها تنام الآن بهدوء ولا أظنها تفقه ما يدور في خلدي ..

ثم بهدوء وطمأنينة ، يا حبي الحقيقي .. وعندما تستيقظ سيكون كل شيء عن الحرب قد انتهى وسأعمل جاهداً على أن أعيد إلى ثغرك الحلو بسمته الرقيقة .. وأنسيك الحرب وهذه المهنة الحزينة .. وبعد ذلك نذهب إلى المدينة نشتري ما طاب ولذ من المشروب والهدايا .. ثم نشرب كأساً عذبة في بار هارفر الهادىء .

سنتناول طعام العشاء في مقهى هارفر أو نعود إلى هنا .. حيث نودع بعضنا على أمل لقاء قريب .. فأجتمع إلى الأصدقاء نتبادل حلو الكلام ونوزع النكات مرفهين عن النفوس البائسة .

هكذا أنا يا فتاتي ، أستبق الأمور وأشعر بها قبل أن تحصل . آمل أن تعود الأيام التي قضيناها سوية وأن يكون لنا عودة إلى الأمكنة التي أقمنا فيها سنوات طيبة مملوءة بالشوق والحنين .. أحن إلى أيام العناق والشوق .. وإلى الخلوات اللطيفة ، نتبادل الحديث واقرأ في عينيك اللذة والهيام .

أنا لا أنسى بسمة ارتسمت على شفتيك ولا رعشة جسمك وقد هزته اللذة والنشوة .

أنا لا أنسى يداً لطيفة مرت فوق جسمي وقبلتها وأرحتها فوق خدي وعلى فمي .. لا أنسى شفتين سميكتين التهمتها مرات لا تحصى ..

جرع كأسه دفعة واحـــدة ونظر إلى لوحة زيتيـة معلقة فوق رأسه وقال :

– ليس هناك مـا يدعوني إلى اليأس والحزن .. ان الحياة وجدت لتعاش وليس لشيء آخر .

تركنا فوق ارض المعركة ، في اليوم الأول ، ثلاثة مـن قادة الفيلق . قتل أحدهم في الدقائق العشرين الأولى ، وقتل الاثنان الآخران فيما بعد . إن هذه ما هي سوى احصائيات من اختصاص الصحفيين . لا أعرف كم مرة خسرنا مثل هؤلاء القادة .. إنما بالامكان التأكد من ذلك .

جاءنا من يحل مكانهم ولكنهم لم يفوقوهم قوة وجدارة ، ولعل بعضهم كان دون سابقيه دراية وحنكة . إن عدد رجال الكتيبة ضئيل .. وأظنه لا يكفي لدفن القادة إذا ما هم تعرضوا لهجوم صاعق استهدفهم هم بالذات . وقد يكون هؤلاء الرجال في زحمة القتال أو ربما كانوا يتقاتلون فيما بينهم ساعة تقع الكارثة ويتعرضون للدمار الشامل .

عندما لا يداهمنا الثلج ، كنا نتعرض للمطر الشديد والضباب وتقطع علينا السيول الجارفة كل طريق ، مما يؤدي إلى توقف سير الموكب وتقدمه كلياً .. وطالما تركنا بعض الآليات ومن فيها يغوص في الوحول بانتظار وصول النجدة.

دعينا من ذلك . فإلى جهنم وبئس المصير أيها الماضي التعيس ، باستثناء بعض اللحظات التي يروق لنا التفكير فيها واستعادة لذاتها ..

كان الأولى هو أن نعبر مضيقاً في سفوح التلال المرتفعة . ابتدأت بتنظيف المكان وفي دائرة يبلغ طول قطرها اربعمائة متر .. ثم تبين لنا أن هذا المركز

يصلح لأن يكون مركز مراقبة ممتاز نظراً لموقعه الاستراتيجي .. وفجأة تقدم مني سائق الشاحنة يقول: سيدي الكولونيل، هناك جندي أمريكي مجروح.. في وسط الطريق ، وأظنه ميتاً .. وأخاف أن يضعف وجـوده من معنويات الجنود .

– ليس علينا سوى إبعاده .

وأبعدناه .

وإليك الحادثة الثانية :

ألقينا كمية من الفوسفور المضيء فوق المدينة قبـــل أن ندخلها .. وللمرة الأولى في حياتي ، شاهدت كلباً المانياً يأكل جندياً مـن البوش . ثم رأيت هراً يفعل ما فعله الـكلب .

وتوالت المشاهد المؤذية أمام ناظري .. كانت تعد بالآلاف .. ما رأيك يا فتاتي بالهر الشجاع يأكل جندي البوش ؟ أو كلب الماني يعمل تمزيقاً في مؤخرة جندي مشوي بالفوسفور المحرق ؟

.. كما أخبرني أحد الضباط أموراً مرعبة ومحزنة أكثر من هذه وكيف وقف يتطلع إلى الجرذان ينهشون جثث جنوده الأموات، قال يخاطب الرسم القريب منه. عند هذا الموضوع انهى حديثي.. والان، قل لي ماذا انت فاعل بمهنة مزرية كهذه ايها الجندي ؟

هيا .. من يرغب بشرب كأس من النبيذ المعتق معي ؟ في اية ساعة تشاء ان أوقظ شبيهك ايها الرسم الصامت ؟ يجب ان نذهب إلى سوق الصاغة .. انني اتوق إلى التسلية والمرح !

.. هل بإمكانك ان تخبرني اين يكن المرح في ذلك ، ايها الرسم ؟ عليك ان تخبرني في الحال .

حسناً ، لا تسأم وتستاء . افعل ما بدا لك . سأوقظ شبيهك بعد قليل . ونذهب إلى المدينة سوية ونتركك هنا وحيداً ليصار إلى اعدادك وتوضيبك .

كان نهاراً قاسياً ، برده قارص . توقفنا في سوق الصاغة ، امام واجهات المحلات الفخمة نتفحص التماثيل العاجية المصفرة المنقوشة بالابنوس والحجارة الكريمة .

– ايها تفضلين يا فتاتي ؟

– الموجود على اليمين .. ألا تظنه يحمل رأساً أجمل بكثير من الرؤوس الباقية ؟

– كلها لها رؤوس جميلة .. انما افضل الاول .

– هيا نسأل عن الثمن .

– سأدخل انا في المقدمة .

– دعني اقوم بمثل هذا العمل .. سيطلبون مني اقل ما يمكن. .ويضاعفون الثمن اذا ما شاهدوك .. فأنت معروف بأنك أميركي غني .

– وانت يا ريمبو ؟

– صورة طبق الاصل عنك يا .. فيرلين ، قالت الفتاة .

– تفضلي بالدخول يا صاحبة الجلالة .

– دعنا من هذا .. وهيا ننهي أمر هذه الجوهرة .. وبعد ذلك يمكننا ان نذهب إلى سيبرياني ونصبح من الشخصيات المهمة .

كان الثمن باهظاً وأكثر مما تصوره الكولونيل .

– سأذهب لاحضار الدراهم من سيبرياني .

– لا ، قالت . ثم أضافت تخاطب البائع : ضعه في علبة جميلة وارسله الى سيبرياني وقل لهم ان الكولونيل اشتراه وطلب أن يدفع ثمنه ويحفظ له .

– سمعاً وطاعة ، يا سيدتي .. قال البائع .

غادرا المحل وعادا إلى الشارع يتنشقان الهواء المنعش .

– ان احجارك الثمينة موجودة في خزنة غريتي ، بإسمك .

– انها لك أنت !

– لا . أجابها الكولونيل بعبوس .. ثم أضاف : هناك أمور يستحيل علينا أن نقوم بها .. وأنت أعرف بها من أي انسان آخر .. لا يمكنك أن تتزوجيني .

– رائع ، قالت . أنا أفهم ذلك تماماً .. إنما أرجوك أن تحتفظ بها كحاملة الحظ . هل تريد ؟

– لا . مستحيل . انها أحجار ثمينة جداً .

– وكذلك رسمي ..

– يختلف تماماً .

– أجل . قالت موافقة . أظن أنني بدأت افهم .

– يمكنني أن أقبل منك حصاناً مثلا .. وليس سيارة فخمة .

– فهمت جيداً الآن .. وأين يمكننا أن نذهب كي تقبلني و .. بعيداً عن عيون الناس .

– في هذا الممر .. وشرط أن لا يكون فيه أحد .

– لا يهمني أحد . أودك أن تضمني إلى صدرك وتقبلني بشهوة و ..

استدارا إلى الممر وذهبا بعيداً فيه .

– اوه ، ريشار .. أنت حبيبي ، قالت .

– أحبك .

– حبني أكثر ، أرجوك .. اخلع ثيابي بسرعة .

– أجل .

هبت الرياح الناعمة تتلاعب بشعر الفتـــاة وتلصقه بوجه الكولونيل . ثم تخلصت منه رويداً رويداً ونظرت اليه تقول :

– ان أحسن ما نقوم به الآن هو الذهاب الى بار هاريس .

– دون شك .. هل تودين ان نلعب دور الشخصيات التاريخية ؟

– أجل . أجابت .

– هيا بنا اذن ، قال الكولونيل .

لم يكن في مقى هاريس سوى عدد قليل من الرواد لا يعرفهم الكولونيل ولم يسبق له ان رآهم قبلا .. وفي زاوية بعيدة جلس رجلان يناقشون اموراً تجارية .

– هل تعرفين أحداً من هؤلاء ؟ قال يسأل الفتاة .

– لم يسبق وارتدت البـــار في الصباح ولم يتسن لي ان اتعرف اليهم ، أجابت :

– سيطردون في الحال .

– لا . سيغادرون المكان عندما يشعرون باقتراب البوليس .

– أيزعجك وجودك هنا الآن ؟

– أتظنني سنوب إلى درجة كهذه ولكوني متحدرة من عائلة قديمة ؟ اننا لسنا بسنوب ، نحن . ان السنوب هم الذين يدعون الغني.. هم اولئك الاغبياء.. هل رأيت أغنياء جدد ؟ نعم . هؤلاء هم السنوب .

– أجل ، أجاب الكولونيل .. شاهدت الكثير منهم في كنساس سيتي ، وفي الوقت الذي كنت ارتاد فورت ريلي لمزاولة لعبة البولو في الكونتري كلوب .

– أكان ذلك تافهاً هناك بقدر ما هو هنا ؟

– لا . كان ممتازاً جداً . وخاصة في احدى زوايا بار في كنساس سيتي اعتدت الجلوس فيه دائماً .

– حقاً ؟ كم يؤسفني ألا نذهب اليه سوية . هل هناك معسكرات ايضاً ؟ وكتلك التي امضينا فيها العديد من الليالي الحلوة سوية ؟

– طبعاً . سننزل في فندق موشلباك ، حيث توجد اكبر السرائر في العالم واضخمها ، ونتظاهر بأننا من اصحاب الملايين .

– أين سنترك سيارتنا الكاديلاك ؟

– ألدينا كاديلاك الآن ؟

– أجل . اذا كنت لا تود استعمال البويك .

– من المستحسن استعمال واحدة كل يوم ، أجاب الكولونيل ..

– ولا يهم أي الانواع نختار . سنكتفي بوضعها في المرآب القريب من الفندق .

– هل فخم جداً فندق موشلبك هذا ؟

– رائع . وسيروق لك جداً .. وعندما نغادره ، ننحرف إلى الشمال ، إلى سان جو ونشرب كأساً لذيذة في بار روبيدوكس .. ثم نعبر وتقودين المركب انت .

– ما هذا ؟

– التعود على القيادة .

– أنا التي ستقود في هذه اللحظة .

– انتبهي .. هناك بضعة أمتار غير معبدة في بداية الطريق ..

– اني مزودة بالخرائط السياحية والكتب التي ترشد إلى أجمل الأمكنة وألذ الاطعمة وأين يمكننا ان نتناولها .

– ما هي أول محطة ؟

– ميسوري . سنشتري العربة في كنساس سي بعد ان نصلها بالطائرة .. هل نسيت .

– ظننت الطائرة لرحلة البوكرك ؟

– لا . كان ذلك في الماضي .

– وسنتوقف ، بعد الظهر في أحسن موتيل يشير اليه الدليل ، حيث تقرأ انت : تايم ولايف ونيوزويك ، واتصفح انا آخر اعداد فوغ وبازار .

– اجل . وبعد ذلك نعود إلى هنا .

– طبعاً . مع عربتنا وعلى ظهر اجمل البواخر الايطاليـة .. من جنوا رأساً ، الى هنا .

– ألا نحتاج التوقف ليلاً في مكان ما ؟

– لماذا ؟ اننا على عجلة .. كي نصل إلى بيتنا .

– أين سيكون ؟

– أمامنا متسع كبير من الوقت لنقرر ذلك . ان البيوت كثيرة في هذه المدينة .

– ألا تحب السكن في الريف ؟

– أجل . أجاب الكولونيل . ولم لا ؟

– وهكذا يتسنى لنا رؤية الاشجـار كل صباح .. وأيها سنرى بعد عودتنا من هذه الرحلة ؟

– أشجار الحور والصنوبر والمستحي [1] .. وما عليك إلا ان تنتظري حتى الخريف كي تشاهدينها صفراء يتساقط ورقها بسرعة .

– لا انتظر سوى هذا . أين سننزل عندما نصل إلى ويمنوغ ؟

– سنذهب اولاً إلى شيرادين وبعدها نتدبر الامر .

---

(١) نوع من الأشجار الباسقة الأغصان والتي تكثر على ضفاف الأنهر .

– جميلة شيرادين هذه ؟

– ماذا تشبه : مانتو ، فيرون أم فيسنس ؟

– الثلاث سوية .

– مثل كورتينا ، انذاك !

– أبداً . تقع كورتينا في واد عميق.. بينما تتمسك شيرادين بسفوح الجبال.

– هل ستلاقي السيارات صعوبة بالصعود ؟

– لا .

– ماذا تريدين ان تشربي ؟

– لست بحاجة إلى شيء ، أظن .

– كأسين من المرتيني الجاف . قال الكولونيل يخاطب البارمن .

– قلت انني لا احتاج شيئاً .

– أجل يا فتاتي ، عرفت ولا لزوم للاعتراض .. قد يبقى الكوب فوق المقصف أو اشربه انا .. أرجوك ان تلتزمي الصمت .

– لم نطلب الحارس العبد الذي سيسهر علينا بعد !

– لا اريد انأطلبه ما دامسيبرياني غائباً وليسلدي المال الكافيلأنقدهالثمن.

– هل كل شيء صعب حتى هذه الدرجة؟

– بالنسبة لي يا فتاتي .

– أعد كلمة « فتاتي » ثلاث مرات .

– فتاتي .. فتاتي .. فتاتي ..

– لا أفهم . انما يتوجب علينا أن نغادر هذا المكان في الحال .. احب أن يرانا الجميع .. ولكنني لا أرغب برؤية أحد .

– الخادم والعلبة ، هناك ، امام الصندوق .

– عرفت .. وقد شاهدته منذ لحظات .

عاد البارمن يحمل المارتيني و كوب الثلج .

– آتني بتلك الرزمة هناك ، عند الصندوق . أظنها جاءتني منذ برهة ، قال له الكولونيل .. قل لسيبرياني انني سأرسل له شيكاً بالمبلغ .

– هل ترغبين بهذا الكأس يا ابنتي ؟

– أجل .. ما دمت انا قد عدلت عن فكرتي كذلك ..

شربا بعد ان قدما كأسيهما من بعض فتلامسا دون ان يشعر بفعلتهما احد .

– انك على حق فيما ارتأيت ، قالت بعد ان احست بحرارة المارتيني .

– وانت كذلك ، قال يخبىء قرصين من الدواء في يده اليمنى ..

وما ان استدارت الفتاة تتأمل احد الحضور حتى ابتلع الكولونيل القرصين وأتبعهما بجرعة من المارتيني اللذيذ .

– ما رأيك بالذهاب ؟

– هيا .

– بارمن ، قال الكولونيل ، آتنـــا بفاتورة الحساب ، ولا تنس ان تخبر سيبرياني بأنني سأرسل له شيكاً .. مفهوم ؟

تناولا طعام الافطار في فندق غريتي ..

وبعد الطعام مباشرة انفرد الكولونيل بالفتاة في مكان مريح .. ثم أخذ يدها يقبلها ويقول :

– يا فتاتي .. منذ متى لم أخبرك بأنني أحبك ؟

– منذ أن جلسنا إلى المائدة .

– أقولها لك الآن .

سرحت شعرها بعد عودتها إلى الفندق مباشرة ودخلت إلى ملبس السيدات تسوي من هندامها . كانت تكره جداً ولوج مثل هذه الأمكنة .

استعملت أحمر الشفاه بطريقة مغرية تعجب الكولونيل وتروق له .. ثم قالت في نفسها : « لا تفكري بشيء . ولا تحزني لأنه سيذهب » .

– انك جميلة جداً .

– شكراً . أحب أن أكون جميلة لك وحدك وليس لانسان آخر .

– ان اللغة الايطالية ، لغة عذبة جداً .

– نعم . كان هذا رأي دانتي .

– مايسترو . ماذا في قائمتك من غذاء دسم وشهي ؟

– هل تريد سمكاً أم لحماً ؟

– ان اليوم سبت ولا أظن السمك طازجاً . ومع ذلك جئني بطبق كبير منه .

– انه من نوع السول .. وماذا من أجل السيدة ؟
– الذي تقرره . انك أعلم مني في هذه المهنة .
– قرري يا فتاتي !..
– لا . أفضل العودة إلى من يفوقني خبرة في أنواع الأطعمة .
– سأعد لك مفاجأة .
– هل هناك من أخبار جديدة حول جوقة الشرف ؟ سأل الكولونيل.
– ان رئيسنا يمر في أزمة حرجة فقط .. وقد حجزوا جميع ممتلكاته .
– آمل ألاّ يكون ذلك خطيراً .
– يجب أن تثق به .. إذ سبق له وخرج سالماً من عواصف أقوى من هذه .
– بصحة رئيسنا ، قال الكولونيل .
ورفع كأسه يشربها دفعة واحدة . ثم تناول الأخرى من يد المايسترو الكبير . قال يخاطب الفتاة :
– اشربي نخبه ، يا فتاتي .
– لا أستطيع ان أشرب نخب هذا الخنزير ، قالت الفتاة .. ومع ذلك فأنا لست عضواً في الجوقة .
– اعتبري نفسك واحدة منها ابتداء من الآن ..
– الآن سأشرب نخبه ، قالت . هل صحيح .. أنا عضو عامل في الجوقة ؟
– أجل . أجاب المايسترو .. وسأسميك : السكرتيرة الفوق العادة . وسيطلعك الكولونيل على اسرار الجوقة .. أخبرها ايها الكولونيل ، أرجوك.
– سوف تعرف كل شيء ،أجاب الكولونيل .اليس في الزاوية بعض الخبثاء؟
– لا . لقد غادر المكان آخرهم برفقة زوجته السيدة بايديكر .
– حسناً ، قال الكولونيل .. سأكشف كل شيء ..وليس سوى السر الأكبر الذي يجب أن تعرفيه . حاول ان تتداركني ، يا مايسترو ، إذا ما أنا وقعت في الخطأ .
– باشر أنت وسأتولى انا التصحيح .

– سأبدأ . أجاب الكولونيل . انصتي جيداً يا فتاتي.. واليك السر الأكبر: « الحب هو الحب . والفرح هو الفرح . والرغبة هي الرغبة . وأي سر يكمن عندما يموت السمك الأحمر ؟ »

– هذه هي نهاية الاعترافات ، قال المايسترو .

– يسرني ويشرفني جداً ان أكون عضواً عاملاً في جوقتكم الكريمة ، أجابت الفتاة . . انما ليست هي جمعية واضحة الأهداف .. كما يبدو لي !

– طبعاً ، أجاب الكولونيل .. والآن ماذا سنأكل ايها الكولونيل ؟

– قليلاً من السلاطين المحشية لك وطبقاً من اللحم المشوي والخضار للسيدة .

– هات . لا يهم ، قال الكولونيل .

انسحب المايسترو الكبير يعد اطباق الطعام. والتفت الكولونيل إلى فتاته يخاطبها بلطف ويقول :

– هل صرحت لك بأنني أحبك ؟

– لم تقل هذا منذ مدة .. ولكنني أحبك .

– ماذا يحصل للشخصين إذا ما تحابا ؟

– ينالان كل يشتهيان .. ويرتعان في سعادة تفوق سعادة الآخرين . ثم يشعر أحدهما بالفراغ إلى الأبد .

– سوف لا اكون فظا ، أجاب الكولونيل . كان باستطاعتي ان أجيب بصلافة . انما ارجوك الا تبرهني عن ذلك الفراغ .

– سأحاول ، قالت الفتاة . ولا زلت احاول منذ ان استيقظت هذا الصباح .. لا بل منذ تعارفنا الأول .

– يجب ان تستمري ، قال الكولونيل .

أطل المايسترو عن بعد واشار اليه الكولونيل وقال : آتنا بزجاجة نبيذ جاف من محاصيل فيزوف .

– ألا أستطيع ان اشرب النبيذ هذا مع طبق اللحوم الحار ؟ سألت الفتاة .

– طبعاً . طبعاً . يحق لك .

– اود ان اشرب النوع الذي تشربه انت .
– ان النبيذ يتلاءم مع هذا الطبق الشهي .
– كم وددت الا يكون بيننا هذا الفارق من العمر .
– ان هذا يسرني جداً ، قال الكولونيل .. ثم أضاف : انكن طازجين كالوردة ..
– من قال هذا ؟
– لا ادري .
– لنكن كما قلت .. وقل لي انك تحبني .. أرجوك .
– أحبك ، قال .. ويمكنك الاعتماد على هذا .
– ان اليوم يوم سبت .. ومتى سيحل السبت القادم ؟
– ان السبت القادم هو عيد متحرك ، آتني بإنسان يطرح هذا السؤال مثلك ..
– انت . اذا شئت .
– سأطلب ذلك إلى المايسترو الكبير .. وعله يجيب على سؤالك .
– عشية عيد الفصح ! قال المايسترو باسماً .

أبحر الكولونيل في الزورق الذي استعمله سابقاً .

جلس على حافته يمسك بالرسم التذكاري المهدى اليه من الفتـاة وقد أحكم الخدم توضيب الأمتعة وعملوا على تأمين مكان مريح للكولونيل .

– حسناً ، يا فتاتي ، قال ..

– هل بامكاني ان ارافقك حتى الكاراج ؟

– سيكون الوداع أصعب هناك !

– أرجوك أن تسمح لي بهذه الرغبة .

– حسناً ، قال الكولونيل ، وستتحملين أنت مسؤولية ما يحدث .. هيا ، اصعدي .

وبينما كان الخادم جاكسون ينزل البضائع في المحطة ، كان الكولونيل يمسك بالرسم ولا يسلمه إلى أحد .

– هل تودين أن نفترق هنا ؟

– أهذا ضروري ؟

– لا .

– ألا يمكنني أن أذهب إلى الكاراج في الوقت الذي يخرجون فيه العربة ؟

– سيكون ذلك قاسياً جداً .
– لا فرق عندي .
– احمل هذا إلى الكاراج .. واطلب إلى أحد أن يراقب المكان في الوقت الذي تكون فيه أنت منصرفاً إلى إنزال المربة ، قال الكولونيل يأمر خادمه جاكسون .. تأكد من صلاحية البنادق ووفرة الذخيرة .
– أجل ، يا سيدي الكولونيل ، قال جاكسون .
– سآتي إذاً ؟ سألت الفتاة .
– لا . أجابها الكولونيل .
– لماذا ؟
– انك تعرفين السبب . فأنت لست مدعوة .
– لا تكن صلفاً ، أرجوك .
– دعيني أدفع لهذا الرجل أجره .. وبعدئذ نجلس فوق المقعد الرخامي ، تحت تلك الشجرة الوارفة الظل .
نقد صاحب المركب أجره وأخبره بأنه لم ينس ما وعده به : محرك سيارة جيب تصلح لاستبدال محرك مركبه هذا ..
– ستكون آلة مستعملة ولكنها تفوق ما تملكه الآن بمئات المرات . وما ان جلسا في المكان الذي اشار اليه الكولونيل حتى اقترب منهما بائع صور تذكارية ..
– اذهب عنا .. لسنا هنا من أجل ما تعرض .
وأخيراً بكت الفتاة ، لم تستطع ان تفي بما وعدت به : ألا تبكي ساعة الوداع .
– لا تخافي يا عزيزتي ، سوف لا انساك ، قال الكولونيل يطيب خاطرها .
– لقد انتهيت ولست بفتاة هستيرية .
– لم افكر ابداً انك من هذا النوع . بل قلت ، دائما ، انك أجمل فتاة عرفتها في العالم ..

– ماذا يغير ذلك أو يؤثر في الموقف ..
– هي الحقيقة ..
– والآن ، ماذا ؟
– سنفترق .
– ماذا يعني ذلك ؟
– لا أعرف ، أجاب الكولونيل .
– سأحاول ان أجده .
– افعلي ذلك بهدوء وروية .
– أجل ، أجابت الفتاة .. في عربتنا .
– ولكنك اعتدت ركوب الخيل ..
– ألا تستطيع ان تقول شيئاً أو تنفذه بلطف ؟
– ربما لا . ولكني حاولت .
– أرجوك ان تجرب ثانية .. هذا كل ما يتبقى لنا من أمل ..
– سأحاول مرة ثانية .

وهكذا تضاماوتعانقا بشدة..فجاء عناقها قويا وصحيحاً..وقاد الكولونيل الفتاة في المشى الرخامي حتى آخر السلم الأبيض .

– يجب ان تبحر في مركب جيد .. وليس في هذا المتعفن .
– أود ذلك . أرجو الا يكون في الأمر ما يسيء اليك ..

عادت الفتاة تتعلق به وتبكي ووجد صعوبة فائقة في ابعادها عنه :

– لا بأس يا حيـــاتي ، ويا أقوى حب عرفه قلبي .. وداعاً يا معبودتي ، يا جميلتي .
– وداعاً ، أجابت .

وقف الكولونيل في جوف خشبة كبيرة يستعملها الصيادون للاختباء من صياد آخر يحاول قتل البط .

كان لوصول الصيادين بهجة كبيرة ، واستقبال حافل ، تبعه عشاء شواء فخم في الهواء الطلق . رافق الكولونيل في هذه الرحلة ثلاثة آخرون ..

كان الكذب الصفة الوحيدة التي يكرهها الكولونيل في الانسان .

كما صنّف الكذابين كما يصنف الطوابع. يسر جداً بأحاديثهم ، الا في الحالات التي لا تدعو إلى ذلك وعندما يكونون في عملهم . انتشرت رائحة الشواء في الجو واسرع الكولونيل بانتزاع سدة زجاجة الخمر وجرع نصفها .

كاد الكولونيل ان يكذب مرتين ، ولكنه عاد وامتنع عن ذلك .

مر بالقرب منهم سرب من الطيور فانهالوا عليه رمياً بالرصاص واسقطوا منه عدداً وفيراً .

سأدعهم يستديرون حول انفسهم مرة ثانية ، قال الكولونيل في نفسه . انتبه ها هي آتية فوقك وعلى انخفاض بائن .

وأتت الطيور بالفعل ، ثم تجمهرت فوق صفحة الماء تود الوقوف .. عاجلها أحد الصيادين بطلقة فقتل اثنين وهرب البقية .

« يكفي اثنان من نفس العائلة » قال الكولونيل في نفسه .

كان يبتعد عن الغضب ويتحاشاه .. لأنه يعرف بماذا تعود عليه هذه الصفة من ويل ودمار .. فأسرع بتناول قرصين من الاقراص المهدئة للاعصاب .

تذكر فتاته وراح يردد في نفسه :

« كم وددت ان تكوني معنا ، يا جميلتي ، وقريبة مني في هذه اللحظة ، في هذا المرصد الأمين..أحس بك وتلامس كتفاك كتفاي ويحتك ظهرك بظهري . سأعود لأراك ، وسوف أقتل البط ليسقط بعضه في أحد البراميل القريبة منك، وتلتقطينه دون تعب .. »

نهض واستدار على نفسه . واذا به يشاهد ذكر البط وحيداً ، ماداً عنقه الابيض الجميل .. يتحرك بسرعة باتجاه البحر . لم ينتظر ، اذ صوب باتجاه الطائر ورماه في أم وجهه فتركه يخر صريعاً تلون دماءه الثلج الناصع البياض .

– لم يسبق لك ان شاهدت مثيلا له في حياتك ، قال الكولونيل يخاطب حارس المركب .

ماذا تنتظر كي تطير ؟ قال الكولونيل في نفسه . إذ قد يمر كثير من البلهاء ويتعرضون لها .. وعلى كل ، يجب أن أكون على استعداد .. ولم يأت أحد كما توقع وعاش على أمل الخيال والتفكير .

خف الرمي ولم يعد يسمع سوى بعض الطلقات المتقطعة .

انبلج الصباح وبدأت العصافير تميز بين المياه والثلج .. ولذلك ابتعدت عنه واصطفت في صفوف متوازية فوق صفحات المياه . نفدت الذخيرة واكتفى بالجلوس وتأمل البندقية بين يديه . كان يعلم انه لا يستحقها ولكنه قبلها إلى الأبد .. ولهذا يحاول دائماً أن يفهم ويفهم .

نظر إلى البندقية مرة أخيرة وتذكر حادثة مرت به يوم كان يتنزه مع الفتاة ومر بالقرب منهما بحاران ، فصفرا إعجاباً بالفتاة ..

كاد أن يتركها لشأنها لولا أن تحركت فيه معاني الشهامة والبطولة .. وما أن التفت اليهما حتى بادراه بالصفير ثانية .

– ابقي بقرب الحائط ، قال الكولونيل يخاطب الفتاة .. أو انظري إلى مكان آخر .

– انهما كبيران وشابان .
– ستريهما أصغر وأصغر ، بعد ثوان ، أكد لها الكولونيل .
وسار الكولونيل باتجاه البحارين .
– أين دوريتك ؟ سأله .
– هل أعلم ؟ قال كبيرهم وأضخمهم . ان كل ما أريده هو التعرف إلى ...
– هل يحمل أمثالك أسماء أم ينادى عليهم بالأرقام ؟
– هل أعلم ؟ أجاب أحدهم .
وأضاف الآخر :
– عندما أعلم ذلك ، لا يفرض علي ان اقوله لكولونيل خنوع مثلك .

« هذا كلب يستحق أن يرفس » ، قال الكولونيل في نفسه قبل أن يهجم فوقه .. وأضاف : يا للقرد القذر ويا للئيم الخسيس.

عاجلهما الكولونيل بضربتين قويتين : أصابت أحدهم في أم وجهه وأصابت الآخر في معدته .

– والآن ، وداعاً أيتها المهنة الكريمة ، قال يخاطب الفتاة .
– كيف تشعر الآن ؟ قالت الفتاة تسأله .
– ممتاز . ألم تنظري ؟
– نعم .
– ستؤلمني يداي غداً .. ومهما يكن ، يمكننا الآن أن نتنزه بهدوء ..
– أرجوك ان تسير على مهل .

– ليس في المعنى الذي أفهمه ..

– سنذهب سوية مثلما تريد .

وهكذا فعلا .

– أتود ان تجري تجربة ؟

– بكل تأكيد .

– حاول ان تمشي هكذا ..

– سأحاول ، ولكني أشك في النتيجة .

– لنسر على مهل ، إذاً .

– ألم تصَب انت ؟

– بضع لكمات فقط !

– أهكذا يحصل دائماً بعد العراك ؟

– إذا كان الانسان محظوظاً .

– وإذا لم يكن ؟

– ستخونك ركبتاك وتقع كما حدث لاحدهما .

– ألا زلت عزيزة عليك بعد ما حصل ؟

– أحبك الآن أكثر من أي وقت مضى ..

– ولم لا ؟ انه فعل جميل ..أنا بدأت احبك أكثر عندما حصل ما حصل.. هل يعجبك سير خطواتي ؟

– تدبين كحشرة وسط غابة وأحياناً كضبع أو ذئب مفترس .

– اتساءل إذا ما كان الضبع يسرك ؟

– انتظري برهة .. وعندما ترينه ، عندئذ نناقش الموضوع ..

– اقسم لك ..

– سيري أمامي .. كي أتأكد .

سارت خطوات أمامه ، ثم ناداها الكولونيل وقال :

– تسيرين كالبطل .. لو كنت حصاناً لاشتريتك ولو أجبرت على الاقتراض بفائدة ٢٠ بالمئة شهرياً .

– لا تحتاج الى شرائي .

– أعرف . لم نتحدث عن هذا ، بل كنا نتحدث عن سيرك .

– قل لي ، قالت .ماذا سيحل بهذين الرجلين ؟ انني لا أدرك شيئاً من هذا، ألا يجب ان أبقى للاعتناء بهما ؟

– أبداً . قد يتعفنون في الرمال .. وهما مسببا الحادث . لا أدري في ذلك مسؤولية انسانية أو مدنية . كلنا مؤمنون . هل تريدين ان أخبرك أمراً أنا أكيد منه ..

– قله ، أرجوك .

– عندما نتعارك ، نسعى دائماً إلى حل واحد هو: الفوز، والباقي هو هراء.. على حد قول صاحبي القديم الدكتور هر دكتور رومل .

– أكنت تحب رومل حقاً ؟

– جداً .

– ولكنه كان عدوك اللدود .

– اشعر بحنان ، احياناً ، تجاه اعدائي اكثر من اصدقائي . والبحرية ، كعادتها ، تربح جميع المعارك .. هذا ما تعلمته يوم كنت اتردد على البنتاغون ويوم كان يحق لي ولوجه من بابه الاكبر .. اذا اردت ان نعود من حيث اتينا ، فانا على استعداد .. ثم ما رأيك لو مررنا بهذين الوقحين وسألناهما رأيهما في المعركة ؟

– لقد شاهدت معارك شبيهة بهذه طوال ليلة بكاملها .

– وانا كذلك، قال الكولونيل ، وبالايطالية هذه المرة . هيا نشرب كأساً في بار هارفس وبعد ذلك اعود بك إلى منزلك .

– الم تُسىء إلى يدك المشوهة ؟

– لا . قال شارحاً .. لم استعملها سوى في قبضة واحدة فوق رأسه .

– هل استطيع لمسها ؟

– شرط ان يتم ذلك بهدوء .

– ولكنها تبدو متورمة حمراء .

– لم يكسر فيها شيء ، وسينتهي الورم بعد دقائق .

– أتحبني ؟

– أجل .. كوني مطمئنة .

هذا كل ما حدث باختصار.. ومنذ ذلك الحين أو من يوم آخر ، ولدت المعجزة . لست أذكر متى تم هذا ، قال في نفسه .

بردت حرارة الجو وعادت المياه إلى جليد وامتنعت الشركة[1] عن الصياح والنداء المزيف ، امتنعت عن الخيانة لتتقي البرد الشديد .

« عاهرة ، قال الكولونيل في نفسه ، ثم أضاف : انك غير عادلة . فهذه مهمتك وعليك ان تقومي بها بصدق وأمانة .. ولكن أين الحقيقة يا إلهي ؟ ان الطائر الذكر يصلح اكثر من هذه ويجيد الصياح اكثر منها » .

هيا ، لا تفكر بها ، لا تفكر في ريناتا ، ان ذلك لا يجديك شيئاً يا بني .. ولربما اساء اليك .. ألم تودعها وينتهي كل شيء عند هذا الحد ؟ يا لها من مهنة شائقة : ان نحب ثم نفارق .

من الذي سمح لك بالتعرف إلى فتاة كهذه ؟

لا أحد ، قال في نفسه .. إنما قدمها إلي أندريا .

لا يهم ، إنما كيف اتيح لها أن تقع في حب وقح مثلك ؟ هذا ما كنت أسائل نفسي به دائماً .

---

(١) الشركة : هي الطائر الذي يستعمله الصياد لجلب بقية الطيور للتجمع حولها واصطيادهم بسهولة . (المترجم) .

لم يعرف إذا كانت الفتاة تحبه أم لا . إذ لم يسبق أن حزن يوماً واحداً في حياته . لقد عرف الحزن والشقاء ولكن ليس في الصباح .

انها في منزلها الآن ، قد تكون نائمة أو مستيقظة ، إنما هناك مركزها الحقيقي وهناك خلقت لتعيش وليس هنا في هذا الجليد العاهر الذي يكاد أن يقضي علينا .

ومع ذلك يؤسفني افتقادها هنا .. لو كنا معاً لساعدتني .. كأن تراقب اليمين عندما يأتي سرب البط من الشمال .. ومن يدري قد أطلب إلى هؤلاء الصيادين ان يعدوا لنا وسائداً من الريش لنستعملها في منزلنا المنتظر ..

سمع ، في هذه الاثناء ، صفير الطيور وخفقان الأجنحة . رفع رأسه ليرى. ولكنها مرت عالية جداً فاكتفى بالتطلع .. وأكملت الطيور سيرها باتجاه البحر .

ان كل ما أود ان أهبها هو الأمانة وهذا لا وجود له ، ان كل حي الذي لا قيمة له لا يعني شيئاً بالنسبة لها ، باستثناء بندقيتي الاثنتين وميدالياتي وأزيائي وبعض كتبي .. بالاضافة إلى مرتب كولونيل متقاعد ..

سأهبها كل ما املك في هذا الكون ، قال في نفسه .

اعطتني هي حبها وأحجاراً كريمة أعدتها لها ، ورسما .. واستطيع ان ارجع لها إذا شئت .. يمكنني ان أهبها خاتمي الثمين كذلك ! ولكن أين تراني وضعته ؟

انتهى